كتاب الهلال

الصهيونية والحضارة الغربية

د. عبد الوهاب المسيرى



سلسلة شهرية تصدر عن

دار الهلال

الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

رئيس مجلس الإدارة **مكرم محمد أحمد**

رئيس التحرير **مصطفى نبيل**

مدير التحرير **عادل عبدالصمد**

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ ش محمد عز العرب

ت: ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

فاكس : FAX -3625469

العدد ٦٣٢ - جماد آخر ١٤٢٤هـ - أغسطس ٢٠٠٣م

No - 632 - Au - 2003

اسعار بيع العدد فئة ٨ جنيهات

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت ١.٢٥٠ فلس - السعوديه ١٢ ريالا - البحرين ١.٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١.٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٣.٥ دولار - سويسرا ٤ فرنكات.

عنوان البريد الإلكترونى : darhilal@idsc . gov . eg

إهـــداء ٢٠٠٦

المرحوم / يوسف درويش

القاهرة

الصهيونية والحضارة الغربية الحديثة

د. عبدالوهاب محمد المسيرى

دار الهلال

الغلاف للفنان:
محمد أبوطالب

مقدمة

شاع فى الخطاب التحليلى العربى أن الصهيونية تضرب بجذورها فى التوراة والتلمود والتقاليد الدينية والإثنية اليهودية. وبدلاً من دراسة الظاهرة الصهيونية وأبعادها التاريخية والاجتماعية والثقافية، باعتبارها ظاهرة غربية استعمارية استيطانية إحلالية، انطلق الباحثون إلي بطون الكتب الدينية اليهودية يحاولون تفسير سلوك الصهاينة. بل إن هذا المنهج امتد ليشمل السلوك الاستعمارى الغربى، وقد قام بعض المحللين، ممن أدمنوا هذا المنهج الاختزالى، بمحاولة تفسير الغزو الأمريكى للعراق فى ضوء ما جاء فى العهد القديم! وهو ما أسميه تفسير الأحداث بأثر رجعى، فما جدوي أن نعرف أنه جاء فى التلمود كذا وكذا، ثم نبين مواطن الشبه بين ما حدث وبين بعض العبارات الغامضة التى وردت فى هذا الكتاب الضخم المتناقض الذى يحوى ألوف الصفحات، والذى كثيراً ما يقول الشىء وعكسه؟

وأعتقد أن ثمة خللاً تصنيفياً أساسياً هنا،

فالصهيونية، كما نحاول أن نبين فى هذه الدراسة وغيرها من الدراسات، ذات جذور غربية ثم أضيفت لها ديباجات يهودية. فالبعد اليهودى فى معظم الأحيان بعد زخرفى تبريرى، أضيف من أجل مقدرته التعبوية. وقد أدي هذا الخلل التصنيفى إلي خطأ الافتراضات التى تبدأ بها كثير من البحوث فى العالم العربى، وهذا يحدد بطبيعة الحال المجال الذى ترصده هذه البحوث وطريقة تصنيف المعلومات والنتائج التى يصل إليها الباحث، فهى فى معظم الأحيان ليس لها قيمة تفسيرية أو تنبوئية عالية.

ولعلاج هذا الخلل كتبنا هذه الدراسة التى تتناول هذه الإشكالية، والتى تحاول أن توضح العناصر الغربية الأساسية (المادية والمعنوية) التى دخلت فى تكوين الرؤية الصهيونية للواقع، وأن نبين أن الصهيونية ليست مجرد انحراف عن الحضارة الغربية الحديثة، كما يحلو للبعض القول، وإنما هى إفراز عضوى لهذه الحضارة ولما نسميه بالحداثة الداروينية، أى الحداثة التى ترمى إلي تحويل العالم إلي مادة استعمالية توظف لصالح الأقوي (فى مقابل الحداثة الإنسانية التى ترمى إلي تحقيق التوازن بين الذات والطبيعة والتى تطالب بتكاتف كل أبناء الجنس البشرى لإعمار الأرض لصالح البشرية جمعاء بما فى ذلك

الأجيال القادمة) .

ويوضح الفصل الأول (الأصول الغربية للرؤية الصهيونية) أن الصهيونية ظاهرة استعمارية غربية، تعود جذورها إلي الثورة الرأسمالية فى الغرب. ويستعرض هذا الفصل بعض الظواهر الاجتماعية والأنساق الفكرية التى صاحبت هذه الثورة فأثرت فيها وتأثرت بها، مثل الاستعمار والفكر العنصرى. ويتناول الفصل الثانى (الصهيونية والرومانسية والنيتشوية) علاقة الرؤية الصهيونية بالرؤية الرومانسية والنيتشوية للواقع. أما الفصل الثالث (الفكر الاسترجاعى) فيبين أن الفكرة الصهيونية المحورية، أى العودة إلي فلسطين، ليست فكرة يهودية كما يظن الكثيرون، وإنما فكرة نبتت فى الأوساط البروتستانتية المتطرفة ثم الأوساط الاستعمارية المعادية لليهود، وأن الفكر الصهيونى قد تبلورت أطروحاته الأساسية فى كتابات صهاينة غير يهود قبل أن يتبناه بعض الكتَّاب من أعضاء الجماعات اليهودية. ويتناول الفصل الرابع (الإدراك الغربى لأعضاء الجماعات اليهودية) بعض جوانب الإدراك الغربى لأعضاء الجماعات اليهودية، وبوجه خاص فكرة نفع اليهود، لأن هذا الإدراك الغربى لليهود قد تبدي بشكل واضح فى الإدراك الصهيونى لليهود. ويبين الفصل الخامس (الصهيونية

بين الجذور الغربية والديباجات اليهودية) كيف تداخلت كل العناصر السابقة مع عناصر من العقيدة اليهودية لتنتج فى نهاية الأمر الرؤية الصهيونية للواقع. ونقوم فى الفصل السادس (الجذور الغربية للاعتذاريات الصهيونية ونظرية الحقوق) برصد نقاط التشابه بين الاعتذاريات الاستعمارية الغربية العامة والاعتذاريات الصهيونية.

ولتوضيح المقدرة التفسيرية لأطروحتنا الخاصة بالجذور الغربية للظاهرة الصهيونية عرضنا فى الفصل السابع (تيودور هرتزل بين الفكر الاستعماري والعباءة الليبرالية)، والفصل الثامن (الصهيونية الاشتراكية)، والفصل التاسع (ديفيد بن جوريون: الزعيم والرؤي) لفكر بعض أهم المفكرين الصهاينة لنبين أنهم قد يلجأون إلي ديباجات ليبرالية أو اشتراكية أو يهودية، ولكن فكرهم يظل فى نهاية الأمر فكراً غربياً استعمارياً، يضرب بجذوره فى الفكر الغربى فى القرن التاسع عشر. وفى الفصل العاشر (الجيبان الاستيطانيان فى إسرائيل وجنوب أفريقيا) ننتقل من عالم الفكر إلي عالم الممارسة، فنعقد مقارنة بين هذين الجيبين الاستيطانيين موضحين مدي عمق مواطن التشابه بينهما، نظراً لاشتراكهما فى الجذور الفكرية والفعلية.

وهذه الدراسة هى مجموعة من الدراسات كُتب بعضها خصيصاً لهذه الدراسة ونشر بعضها من قبل، وقد وجدنا أنه من المفيد جمعها فى كتاب واحد بعد تحديثها وإعادة صياغتها لتوضيح أطروحة هذا الكتاب، وهو أمر أصبح ملحاً بعد الغزو الأمريكى للعراق، وبعد أن تزايد الحديث عن اللوبى الصهيونى، وكأن الولايات المتحدة حينما غزت العراق لم تقم بغزوه انطلاقاً من رؤية استعمارية غربية تضرب بجذورها فى التشكيل الحضارى الغربى الحديث وترمى إلي نهب العالم وتوظيفه لصالح طغمة حاكمة فى واشنطن، وكأنها فعلت ذلك من أجل اليهود وبسبب الضغط الصهيونى وانصياعاً إلي ما جاء فى التوراة والتلمود.

وقد قام الأستاذ على سليمان (بمجلس الشوري)، والدكتور محمد هشام (المدرس بجامعة حلوان)، والدكتورة ماجدة أنور (المدرسة بجامعة المنوفية) بمراجعة هذه الدراسة واقتراح إدخال بعض التعديلات. كما قام الأستاذ سيد طه (وزارة الرى) بكتابتها علي الحاسوب عدة مرات إلي أن أخذت شكلها الحالى، فلهم منى الشكر وعند الله الجزاء.

والله من وراء القصد

عبد الوهاب محمد المسيرى

القاهرة - دمنهور

سبتمبر ٢٠٠٣

الفصل الأول
الأصول الغربية للرؤية الصهيونية

يميل بعض الباحثين إلى تصنيف الصهيونية باعتبارها حركة يهودية وإلى اعتبار أن جذور الرؤية الصهيونية للعالم يهودية، وذلك استناداً إلى الادعاءات والتصريحات الصهيونية والغربية. ويذهب بعض دعاة التغريب إلى أن الصهيونية، شأنها شأن النازية والعنصرية والداروينية... إلخ، انحراف عن الحضارة الغربية الإنسانية الديمقراطية... إلخ. ولكننا، لو دققنا النظر ووصفنا الحركة الصهيونية من خلال سياقها التاريخي وإطارها الثقافي، لأدركنا أنها تعبير مباشر ومتبلور عن النموذج الحضاري الغربي الحديث، و لاختلف بالتالي تصنيفنا وطرق تصدينا لها. وسنتناول في هذا الفصل، والذي يليه بعض المكونات الأساسية الاقتصادية والسياسية والثقافية الغربية في الفكر الصهيوني.

الثورة الرأسمالية والمسألة اليهودية

ظل أعضاء الجماعات اليهودية في وضع مستقر، يقومون بوظائفهم المختلفة، إلى أن ظهرت الرأسمالية الغربية. ويمكننا، بشيء من التبسيط، القول بأنه، منذ نهاية القرن

الرابع عشر تقريباً، بدأت تغييرات بنيوية عميقة تدخل على المجتمعات الغربية، فبدأ النظام الإقطاعي ببنائه الهرمي الثابت يهتز، وأخذت العلاقات بين الطبقات تختل، وقامت الثورات والحركات الفكرية والاقتصادية المختلفة، ابتداءً بعصر النهضة والإصلاح الديني، مروراً بعصر الاكتشافات والرأسمالية المركنتالية وعصر الملكيات المطلقة وحركة التنوير، وانتهاءً بالثورة العلمية والصناعية والتكنولوجية والثورة الفرنسية، ثم الحركة الرومانتيكية والانقلاب الدستوري في إنجلترا وبقية أوربا. واستمرت العملية في أوربا عدة قرون طويلة (١٥٠٠ – ١٨٥٠) وربما إلى الوقت الحالي. وإذا بدأ المجتمع الإقطاعي المستقر مع بداية هذه الفترة، فإن المجتمع الرأسمالي المنتصر بدأ هو الآخر مستقراً مع نهاية هذه الفترة.

ويشير المؤرخ كنيث نيل كامرون ومؤرخون آخرون إلى ما يسمونه "الثورة الرأسمالية"(١)، وهو اصطلاح ليس له مدلول اقتصادي وحسب بل مدلول حضاري كذلك، ولا يمكن فهم أية ظاهرة غربية في القرون الخمسة الأخيرة إلا بفهم طبيعة هذه التحولات التي طرأت على المجتمع الغربي على المستويين

المادي والحضاري.

والثورة الرأسمالية هي، في نهاية الأمر، ثورة في طريقة الإنتاج والتوزيع، وفي بناء المجتمع، وفي علاقة الحاكم بالمحكوم، فجوهر الاقتصاد الإقطاعي هو تقسيم الأراضي الداخلة في وحدات اقتصادية كبيرة إلى أجزاء صغيرة يقوم الفلاحون بزراعتها لحساب مالك الوحدة الكبرى، ويحصلون على حاجاتهم المعيشية في حد الكفاف(٢). والمجتمع الإقطاعي مقسَّم تقسيماً هرمياً صارماً يعرف كل شخص فيه مكانه ومكانته، اللذين عادةً ما يصل إليهما عن طريق الميراث وليس عن طريق الجد والعمل. وقد حُددت حقوق وواجبات كل أعضاء الطبقات تحديداً واضحاً، فالنبيل كان يعرف ما ينبغي عليه القيام به (الحماية الإقطاعية والفلاحية، وجباية الضرائب من الفلاحين، وربما الاشتراك في الحروب الصليبية). وكذلك كان الفلاحون ورقيق الأرض يعرفون واجباتهم وحقوقهم، وفي الأطراف كان التجار والصناع وكل الشخصيات الهامشية الأخرى.

ولعل أهم العوامل التي ساهمت في استقرار المجتمع الإقطاعي الأوربي هو غياب "الإنتاج المخصص للتبادل"(٣) إذ

أن انهيار الإمبراطورية الرومانية أدى بدوره إلى انهيار نظام التجارة (العالمي) الذي أنشأته، وظهر ما يسمى "الاقتصاد الطبيعي"، وهو الاقتصاد الموجه أساساً نحو إشباع حاجات المجتمع ولا يتم فيه التبادل إلا عبر فائض السلع، فالتبادل التجاري في ظل الاقتصاد الطبيعي لم يكن عملية جوهرية وأساسية للنظام وإنما عملية هامشية عرضية، أي أن إنتاج المجتمع الإقطاعي كان إنتاجاً أساسه القيمة الاستعمالية وليس القيمة التبادلية(٤). وقد وصفت الدكتورة بديعة أمين هذا النمط الإنتاجي كما يلي:

"ظلت القارة الأوربية كياناً استهلاكياً بصورة أساسية يصدر العبيد والنساء والصبيان والفراء والسيوف ويستورد الأقمشة والحبوب والتوابل وغير ذلك من المنتجات التي تستهلكها بالدرجة الأولى طبقة الإقطاعيين والنبلاء. ومن هنا، فإنه لم يكن هناك ما يستدعي، وبتعبير أكثر صواباً، ما يمكن أن يؤدي إلى نشوء طبقة تجارية محلية تولد ولادة طبيعية"(٥).

وكان المجتمع الغربي في تلك الحقبة التاريخية التي تمتد من القرن الخامس الميلادي حتى القرن الخامس عشر مقسماً

ليس فقط إلى دول وإمارات مستقلة تفتقد إلى سلطة مركزية قوية، وإنما أيضاً كانت كل دولة وكل إمارة مكوّنة من جماعات متماسكة منفصلة لكل منها قوانينها؛ فكان النبلاء والأقنان الذين يعيشون في صميم النظام الإقطاعي يشتغلون بالقتال والزراعة، وكان التجار وأعضاء النقابات الحرفية أعضاء في البلديات، وكان القساوسة وممثلو البيروقراطية الدينية تابعين للكنيسة. وقد تمتعت كل جماعة بدرجة من الاستقلال عن الجماعات الأخرى. أما أعضاء الجماعات اليهودية، فلم يكونوا مواطنين في المدينة ولا فلاحين في الضياع الإقطاعية، ولم يكونوا من الفرسان المحاربين، كما أنهم لم يكونوا بطبيعة الحال منتمين إلى الكنيسة الكاثوليكية. وعلى أي حال، فإن الانتماء للمجتمع الإقطاعي المسيحي كان يتطلب يمين الولاء المسيحي، الأمر الذي لم يكن متاحاً لليهود إلا إذا تنصروا.

وقد حلَّت هذه المشكلة القانونية بالعودة إلى القانون أو العرف الألماني، وتم تصنيف اليهود باعتبارهم "غرباء". وقد كان الغريب في العرف الألماني تابعاً للملك تبعية مباشرة. ومن ثم، فقد أصبح أعضاء الجماعة مسئولين مسئولية

مباشرة أمام الملك أو الإمبراطور، يتبعونه موضوعين تحت حمايته، بل وكانوا يُعَدُّون ملكية خاصة له بالمعنى الحرفي (أقنان بلاط)، الأمر الذي حولهم إلى ما يشبه أدوات إنتاج. وكان الملك يفرض عليهم ضرائب كانت تصب في خزانته كما أنه كان يبيعهم المواثيق والمزايا ويحقق من ذلك أرباحاً. ولكونهم تحت حماية الإمبراطور مباشرة، أصبح اليهود من الناحية الأساسية جماعة وظيفية مالية تابعة للطبقة الحاكمة، يتمتع أعضاؤها بحقوق تفوق في كثير من الأحيان حقوق عامة الشعب ولا تختلف أحياناً عن حقوق النبلاء ورجال الدين. ومع هذا، كان عضو الجماعة اليهودية لا حول له ولا قوة، إذ أنه، رغم تبعيته للملك والنخبة الحاكمة، كان يعيش بين قوىً شعبية لا تضمر له حباً ولا تشعر نحوه بأي عطف، ويحيا في عزلة وغربة عنها، الأمر الذي زاد التصاقه بالملك وبالنخبة وزاد اعتماده عليهم. وبذلك، أصبحت الجماعة اليهودية، في كل مجتمع وسيط، جماعة وظيفية وسيطة تضطلع بوظائف تتطلب الموضوعية والحياد، وأصبح وجودهم مرتبطاً بمدى نفعهم كأداة.

وقد ساعد على ظهور هذا التميز الوظيفي عدة ظروف

تاريخية نوجز هنا بعضاً منها:

أ) بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية وانهيار النظام التجاري الذي أنشأته، انقسم العالم إلى قسمين: العالم الإسلامي والعالم المسيحي. وقد تسبب هذا في صعوبة التبادل التجاري بين القسمين بسبب اختلاف الشرائع. ولذا، أصبح اليهود حلقة الوصل الوحيدة بينهما. وساعد على ذلك اختفاء الأقليات التجارية الأخرى مثل الفينيقيين وغيرهم.

ب) وكان اليهود أقلية دينية في المجتمع الإقطاعي المسيحي، ويبدو أن المجتمعات الزراعية عادةً ما كانت توكل مهمة التاجر إلى أقلية تقف على حواف المجتمع وليس في داخله (ومن هنا المقولة الماركسية الشهيرة من أن اليهود يعيشون في مسام المجتمع الإقطاعي). ويبدوا أيضاً أن هذا الأمر كان أكثر إلحاحاً في المجتمع الإقطاعي الأوربي الذي كان يستمد شرعيته (وبعض قوانينه وجانباً من رؤيته) من الدين المسيحي، وأن الإدلاء بيمين الولاء المسيحي كان أساسياً للانتماء لنخبته العسكرية الحاكمة.

جـ) كما أن شبكة الاتصالات اليهودية الواسعة، التي كانت تغطي كل البحر الأبيض المتوسط وأجزاء أخرى كثيرة

من العَالم القديم، كانت تشكل ما يشبه النظام الائتماني العالمي، الأمر الذي يسر على أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب الاشتغال بالتجارة الدولية والمحلية، أي أن اليهودي كان له مكانه الواضح والمحدد في المجتمع الإقطاعي، وهو دور التاجر، وإن كانت السلع التي يتاجر بها ليست من السلع الأساسية وإنما السلع الترفية والسلع الفائضة عن الحاجة.

ولعل المزية الكبرى التي حصل عليها أعضاء الجماعات اليهودية من وضعهم كجماعة وظيفية هي حرية الحركة، إذ أصبحوا العنصر البشري الوحيد المتحرك في المجتمع. ذلك أن الأقنان والفلاحين كانوا مرتبطين بالأرض رغم أنفهم، وكان النبلاء لا كيان لهم خارج إقطاعياتهم، وكان رجال الكنيسة يرتبط كل واحد منهم بكنيسته أو ديره، كما أن التجار المسيحيون وقفت في طريقهم حواجز كثيرة أعاقت حركتهم مثل ضرائب المرور التي كان اليهود مُعْفَيْنَ منها. ولكل هذا، تحوَّل أعضاء الجماعات اليهودية إلى عنصر استيطاني تجاري متحرك وتَرسَّخ المفهوم تماماً في الوجدان الغربي.

ومع حلول القرن الثالث عشر الميلادي، أصبح أعضاء

الجماعات اليهودية في المجتمعات الغربية في العصور الوسطى جماعات وظيفية وسيطة تشكل جسماً غريباً بمعنى الكلمة وتعيش على هامش المجتمع أو في مسامه وتؤمن بدين معاد للديانة الرسمية، يرتدون أزياء خاصة بهم، ويتسمون بأسماء يهودية، ويتحدثون برطَانَات غريبة أو يتحدثون أحياناً بلغة غير لغة أهل البلاد، مثل الفرنسية في إنجلترا والألمانية (ثم اليديشية) في بولندا، ويعملون في وظائف هامشية مثل التجارة والربا. وقد أخذت عزلتهم تتزايد حتى تبلورت تماماً داخل الجيتو خلال القرن الخامس عشر الميلادي.

واستمرت عملية تحول المجتمعات الغربية من النمط الإقطاعي في الإنتاج إلى النمط الرأسمالي حتى القرن الخامس عشر واكتملت مع حلول القرن التاسع عشر (وإن كانت لا تزال هناك جيوب إقطاعية في كل أوربا). ويمكن تفسير هذه العملية بمركب متداخل من الأسباب الاقتصادية والسياسية، من بينها ظهور المدن وازدياد حجم التجارة الدولية والصناعات المحلية. وقد شجع هذا كثيراً من الأقنان على الهرب من القرية إلى المدينة.

وأدى ازدياد حجم التجارة إلى زيادة ثمن الحاصلات

الزراعية، الأمر الذي حفز الكثير من كبار وصغار الملاك الإقطاعيين على إصلاح الأراضي البور للحصول على غلتها. واضطر كثير من الإقطاعيين إلى منح الأقنان حريتهم نظير أن يقوموا بالعمل المطلوب منهم. وتزامنت هذه العملية مع الموت الأسود (مرض الطاعون) الذي اجتاح أوربا وأهلك ثُلث سكانها مع نهاية العصور الوسطى. وبالتالي، فقد ازدادت ندرة الأيدي العاملة، وازدادت المدن قوة وازدادت القرية ضعفاً مع زيادة عدد الأقنان الأحرار.

وساهمت عدة عوامل سياسية أخرى في عملية إضعاف النظام الإقطاعي، من بينها حروب الفرنجة التي قضت على الكثير من النبلاء الإقطاعيين، وحرب المائة عام التي أدت إلى ثورات الفلاحين وإلى ظهور حالة من الفوضى العامة. ولعل أهم الأسباب السياسية هو ظهور الملكيات القومية القوية (خاصةً في إنجلترا وفرنسا) التي عملت جاهدة على أن تكون لها جيوش نظامية مستقلة عن النظام الإقطاعي (تتكون من جنود ذوي أصول غير أرستقراطية)، الأمر الذي أدى إلى تقوية قبضة الملك ومكنه من أن يكيل الضربات للأمراء والإقطاعيين وأن يصبح "ملكاً" بمعنى الكلمة بعد أن كان

مجرد كبير للأمراء. وكثيراً ما تحالف هؤلاء الملوك مع الجماعات الهامشية في المجتمع مثل التجار وسكان المدن لضرب الإقطاع والإقطاعيين.

وما يهمنا في هذه البانوراما التاريخية هو أن نبين أن وضع اليهود الذي كان مستقراً داخل المجتمع الإقطاعي الثابت قد اهتز، وأنه لم تعد الأمور محددة المعالم كما كانت من قبل. فبعد أن كان أعضاء الجماعات اليهودية يشتغلون بالتجارة الدولية، ظهرت اتحادات من التجار الدوليين المسيحيين، مثل العصبة الهانسية، وهو اتحاد تجاري دفاعي تشكل بين المدن الساحلية في شمال ألمانيا، ومثل اتحاد لندن(٦). كما ظهرت أساطيل تجارية قوية تابعة لجنوة والبندقية. وقد تمتعت هذه الاتحادات والأساطيل (المسيحية) بدعم الدولة، مما أضعف من قبضة التجار اليهود على التجارة الدولية واضطرهم إلى الاشتغال بالتجارة الداخلية والإقراض بالربا. ولكن حركة التاريخ كانت تأخذ مجراها، فظهرت طبقات التجار المحليين والمصارف المحلية التي زاحمت التاجر والمرابي اليهودي ثم احتلت أماكنهما، وبدأ أعضاء الجماعات اليهودية يفقدون وظيفتهم الأساسية في

المجتمع الإقطاعي. وبدلاً من أن يلعبوا دوراً مثمراً، إن لم يكن منتجاً، وجدوا أنفسهم لا على هامش المجتمع وحسب وإنما عبئاً حقيقياً عليه لا دور لهم فيه.

وهذا الوضع الناجم عن تطور المجتمع الغربي من الإقطاع إلى الرأسمالية هو ما يمكن تسميته بالمسألة اليهودية. فالمسألة اليهودية ليست نتيجة اضطهاد الأغيار (غير اليهود) لليهود، وليست مؤامرة حيكت خصيصاً ضد اليهود، وإنما هي ظاهرة اجتماعية اقتصادية مفهومة تشبه في كثير من الوجوه المسألة اليونانية أو المسألة الإيطالية في مصر أو المسألة العربية في أفريقيا (إن صح التعبير). ففي هذه المجتمعات، قام اليونانيون والإيطاليون والعرب بدور الجماعة الوظيفية، ووقعوا ضحية للتطور التاريخي الذي طرأ على مجتمعاتهم وأصبحوا جماعات وظيفية بلا وظيفة. وقد حلت المسألة اليونانية في مصر، على سبيل المثال، برحيل كثير من اليونانيين إلى اليونان أو إلى أي بلاد أخرى، وتبقى من تبقى منهم بعد اندماجهم في المجتمع المصري وتقبُّل وضعهم دون تميز حضاري أو مهني. وقد تم الشيء نفسه بالنسبة للجماعات اليهودية في كل من إنجلترا وفرنسا، إذ

طُردت الغالبية العظمى منهم ويقي عدد قليل اندمج مع بقية السكان، وكان اليهود المطرودون يحلون مشكلتهم عن طريق التقهقر إلى الوراء، أي بالهجرة إلى مجتمعات لا يزال النظام الإقطاعي فيها ثابتاً مستقراً. ولعل هذا يفسر انسحابهم إلى وسط أوربا ثم إلى شرقها (خاصةً بولندا). بل إنه من المعروف أن اليهود اتجهوا إلى بولندا بناءً على دعوة من حكامها وتشجيع منهم في القرن الثالث عشر(٧)، وذلك لتشجيع التجارة في هذه المملكة الإقطاعية.

ولكن للتاريخ منطقه المستقل إلى حدٍّ كبير عن نوايا الأفراد ومقاصدهم، ولهذا فإن الدورة الاقتصادية التي شاهدنا حدوثها من قبل في فرنسا وإنجلترا أخذت مجراها في بولندا وظهرت، كما هو طبيعي ومتوقع، طبقة من التجار المحليين والمصارف المحلية التي حلت محل التجار والمرابين اليهود. ولعل التجار المسيحيين المحليين قد تمكنوا من الحلول محل التجار اليهود بسهولة، لأن انتماءهم الحضاري لمجتمعاتهم قديم ولا شبهة فيه.

لكن الأهم من كل هذا هو نوعية التجارة التي كان التاجر اليهودي يمارسها وتلك التي كان يمارسها التاجر المسيحي

المحلي، فالتجارة اليهودية تجارة بدائية (تعتمد على رأس المال التجاري الربوي) وهي ضرب من التجارة ترعرع في المجتمع الإقطاعي "حيث لا يوظف التاجر اليهودي أمواله في الإنتاج... ولا يبتاع مواد أولية، ولا ينفق على صناعة الأقمشة، فرأسماله التجاري ليس إلا وسيطاً بين منتجات لا يسيطر عليها ولا يخلق ظروف إنتاجها"(٨). أما الرأسمالي الجديد فإنه يقف في وسط العملية الإنتاجية ذاتها، يأخذ المخاطر ويوظف كل أمواله في شراء المواد الخام وابتياع العمل اللازم لتحويلها إلى سلع. والسلع التي يتم إنتاجها ليست مجرد سلع ترفية أو سلع استهلاكية، بل هي سلع تنتج بغرض بيعها داخل نظام اقتصادي مبني على البيع والشراء. وإذا كان التاجر اليهودي يقف على هامش المجتمع الأوربي، فإن التاجر الجديد قد وُلِد في رحم هذا المجتمع (ضمن الاقتصاد الرأسمالي الجديد). وكلما ازداد القطاع الرأسمالي قوة، ازداد هو قوة إلى أن حل تماماً محل التجارة البدائية، وتحول اليهود إلى جماعة وظيفية بلا وظيفة، وطرحت المسألة اليهودية نفسها على أوربا الشرقية ثم الغربية ثم على العالم الغربي بأسره.

الاستعمار

ومن المفارقات التاريخية أن الثورة الرأسمالية التي أدت إلى ظهور المسألة اليهودية هي التي أدت أيضاً إلى ظهور الحل الصهيوني. فقد أدت هذه الثورة (والثورة الصناعية التي تُعَدُّ أحد أهم تبدياتها) إلى السيطرة المتزايدة من قِبَل الإنسان على الموارد الطبيعية، وأصبح من الممكن للإنسان أن ينتقل من مكان إلى مكان في يسر وسهولة حتى تحولت الدنيا بأسرها إلى مجرد "قرية عالمية". وأصبح من الممكن للمرء أن ينتقل من لندن إلى بومباي في ساعات بعد أن كانت هذه الرحلة تستغرق من قبل شهوراً أو سنين، بل وأصبح من الممكن للإنسان أن يقطن في أي مكان يختاره (حاراً كان أم بارداً) إذ أصبح لديه من الآلات ما يمكنه من السيطرة على بيئته المباشرة، فيبني البيوت ويكيفها ويحتفظ بالأطعمة لمدة طويلة. وكما لاحظنا من قبل، غيرت الثورة الرأسمالية وجه الإنتاج الاقتصادي من مجرد إنتاج استهلاكي إلى إنتاج سلعي، أي أن الإنتاج من أجل التسويق أصبح عنصراً أساسياً، وتحرك السوق وعالم التجارة من الهامش إلى المركز. وقد فجرت هذه العملية بعض الطاقات الخلاقة في

الإنسان، فقامت الثورة الصناعية وتوصلت أوربا منذ تلك الفترة إلى مجموعة مذهلة من الاختراعات، خاصةً في مجال الطاقة، إذ تمكن الإنسان من تسخير الطاقة الطبيعية في خدمته في الأغراض الصناعية بحيث أصبحت إنتاجية الفرد الواحد في يوم تعادل إنتاجية قرية بأسرها في شهر. وقد ولَّد هذا النمط الإنتاجي الجديد رغبة استهلاكية شرهة في الأسواق المحلية ثم المجاورة ثم العالمية، مما أدى إلى ظهور التشكيل الإمبريالي الغربي بأشكاله المختلفة والذي وصل إلى قمته حين قامت الاحتكارات الدولية بتقسيم العالم، بكل ثرواته وأسواقه، فيما بينها(٩)، ثم جيَّشت الجيوش الهائلة وبنت البحريات الضخمة لتسوية أي خلافات قد تنشأ أثناء عملية التقسيم، ولضمان الأمن في المستعمرات المفتوحة. وقد تمت هذه العملية تقريباً قبل الحرب العالمية الأولى (ويمكن رؤية هذه الحرب كنتيجة لمحاولة الدول الرأسمالية الإمبريالية المختلفة إعادة تقسيم غنائمها الآسيوية والأفريقية).

ولا يمكن رؤية الصهيونية خارج هذا السياق الاستعماري الإمبريالي. فحلم اليهود بالعودة إلى أرض الميعاد قديم قدم اليهودية ذاتها. كما أن الفلسطينيين (العرب) كانوا لا يبدون

أية مقاومة ضد اليهود الذين كانوا يحضرون لفلسطين للصلاة أو حتى للاستيطان لأهداف دينية، بل إنهم كانوا يرحبون بهم. وعلى الرغم من هذا، فإن عدد اليهود في فلسطين لم يزد "عام ١٨١٤ عن عشرة آلاف يهودي فقط"، وفي عام ١٩١٤ لم يكن عدد اليهود يزيد عن "٣٥,٠٠٠ يهودي من جملة ١٦ مليون يهودي في العالم يعبرون في صلواتهم ثلاث مرات عن رغبتهم في العودة إلى أورشليم"(١٠)، لكن الحلم الديني في العودة ظل ذا فعالية فردية ولم ينجح في نقل اليهود (والمسألة اليهودية) إلى الشرق.

بل إن العودة الجماعية لم تكن مطروحة أساساً على المستوى الديني. فالدين اليهودي، في إحدى صوره، يؤمن بأنه "في الوقت الذي يحدده الرب وبطريقته، وعندما يصبح الإنسان مؤهلاً للتحرر المطلق، فسوف يعاد اليهودي إلى فلسطين"(١١). ولكن حلم العودة لن يتم على أيدي الأفراد وإنما على يد الماشيح (أي المسيح - المخلِّص اليهودي). بل إن التلمود يقرر، في بعض نصوصه، أن أي شخص يهودي يعود إلى فلسطين بغرض الاستيطان وليس بغرض التعبد

يخالف بذلك الوصايا الربانية(١٢) ويرتكب جريمة الدحيكات هاكتس، أي التعجيل بالنهاية (بدلاً من انتظار إرادة الإله).

ولكن الاستعمار الغربي وجد أن الحل الوحيد الممكن لمسألة الغرب اليهودية هي تصديرهم ("عودتهم" في المصطلح الديني) إلى آسيا وأفريقيا. وهذا متسق تماماً مع الرؤية الغربية الإمبريالية للكون التي حولت العالم إلى مادة استعمالية يوظفها القوي لصالحه. وكان العالم الغربي يدرك تماماً أنه يملك القوة التكنولوجية اللازمة لسحق كل من يقف في طريقه، فقام بإبادة شعوب واستعباد شعوب، وحل مشاكله الاقتصادية والاجتماعية عن طريق تصديرها إلى الشرق. فمشكلة الحصول على المواد الخام اللازمة للإنتاج، ومشكلة الإنتاج السلعي، كانت تحل عن طريق استعمار الأراضي وتحويلها إلى مناجم ومزارع وأسواق. ومن أهم المشاكل التي نجمت عن الثورة الرأسمالية مشكلة الانفجار السكاني، الأمر الذي زاد من حدة أزمة البطالة، وأدى إلى ظهور جماعات المتعطلين الذين كان يطلق عليهم اصطلاح "الفائض السكاني". ولكن الحل الاستعماري كان دائماً جاهزاً، إذ قامت أوربا بتصدير فائضها السكاني إلى الأمريكتين ثم إلى

آسيا وأفريقيا وأخيراً إلى أستراليا ونيوزيلندا، واستقر الأوربيون في جيوب استعمارية استيطانية في الجزائر وجنوب أفريقيا والهند.

والصهيونية هي الحل الاستعماري للمسألة اليهودية. فبعد تفاقمها، طرحت للمسألة اليهودية عدة حلول هي في جوهرها حلول ترمي إلى "تحديث" اليهود واليهودية انطلاقاً من أن أزمة اليهود واليهودية قد نجمت عن ارتباطهم اقتصادياً وحضارياً بالمجتمع الإقطاعي السائد وعن كونهم جماعات وظيفية بلا وظيفة، وبالتالي كان عليهم أن يعيدوا صياغة أنفسهم حتى يتكيفوا مع المجتمع التجاري الصناعي الجديد الذي ظهر في أوربا (في غربها في بداية الأمر، ثم في شرقها مع حلول القرن التاسع عشر) ويكتسبوا وظائف جديدة تسهل عليهم عملية الانخراط في المجتمع الجديد (وبطبيعة الحال، كان هناك الرافضون تماماً لأي شكل من أشكال التحديث مثل جماعات المتصوفين الذين يطلق عليهم "الحسيديون").

والصهيونية هي الأخرى كانت إحدى الاستجابات اليهودية المختلفة لأزمة اليهود واليهودية في المجتمع الأوربي الحديث، وهي الأخرى كانت تهدف إلى تحديث اليهود واليهودية بشكل

أو بآخر. وقد وجدوا أن الحل الاستعماري لمشاكل أوربا، بما في ذلك المسألة اليهودية، هو الحل الأمثل، ولذا أيّدوا تصدير المسألة اليهودية مع ما يُصدَّر من مشاكل وسلع بائرة إلى آسيا أو أفريقيا أو أي مكان آخر بخلاف أوربا. فدعوا إلى نقل الفائض البشري اليهودي من أوربا إلى خارجها، تماماً كما يدعون إلى نقل]ترانسفير [العرب من فلسطين إلى خارجها، أي أن الإدراك الصهيوني للذات وللآخر يضرب بجذوره في الرؤية الاستعمارية الغربية، خاصةً وأن الفائض البشري اليهودي كان من المفروض فيه أن يشكل قاعدة للاستعمار الغربي. وبالتالي، ينجح اليهود في الاندماج في الحضارة الغربية من خلال التشكيل الإمبريالي الغربي، بعد أن فشلوا في تحقيقه من خلال التشكيل الحضاري والاجتماعي الغربي.

وقد لاحظ جمال حمدان الحقيقة الهامة التالية: "أن الاستعمار كله ما تم إلا على يد أوربا وما تم إلا خارجها، ولم يحدث في التاريخ الحديث أن استعمر جزء من أوربا باستثناء نقاط من الاستعمار الاستراتيجي في جبل طارق ومالطة وقبرص... لقد كان الاستعمار - بوضوح - صناعة أوربية

مسجلة ولكنها للتصدير إلى خارج أوربا فقط وغير قابلة للاستهلاك المحلي بحال". ولذا، لم يفكر أحد قط في تصدير المسألة اليهودية إلى لندن أو باريس، ولم يفكر أحد قط أن تستقطع منطقة من ألمانيا، حتى بعد مذبحة الإبادة النازية، لإقامة الوطن القومي اليهودي فيها، وإنما كان التفكير في مصر وكينيا وقبرص والكونجو وموزمبيق والأرجنتين والعراق وليبيا(١٢). وفي نهاية الأمر، كانت فلسطين الضحية الفعلية نظراً لبعض العوامل الخاصة بالاستعمار الصهيوني.

وكانت الصهيونية واعية تماماً بنفسها كحل استعماري للمسألة اليهودية. ولعل المنشور الذي صدر عام ١٩٢١ عن "المنظمة الصهيونية في بريطانيا العظمى" بعنوان "الصهيونية: رد على النقد الجديد"، لعل هذا المنشور يلخص هذا الجانب من الحركة الصهيونية. يبدأ المنشور بتأييد الحقيقة البديهية التي أثبتتها التطورات اللاحقة وهي أن "الصهيونية لا تتفق ومبدأ تقرير المصير" لأن هذا المبدأ يعني ببساطة تقبُّل "التركيب العرقي الحالي في كل مقاطعة وبلدة". ثم يسأل المنشور: "هل تم الاعتراف في أي وقت مضى من تاريخ المدنية كله بأن استعمار أقليم متخلف لا يمكن أن يتم

إلا بموافقة غالبية السكان الحقيقيين هناك؟ لو كانت الحال كذلك لندر أن يُستعمر أي بلد في العالم؟" ثم يدافع المنشور عن الفكرة الأساسية الكامنة وراء الاستعمار، فكرة تصدير المشاكل، فيقول: "إذا نفذ مبدأ تقرير المصير حتى نهايته المنطقية المجردة، وتم استفتاء السكان المحليين، لأصبح كل توسع مستحيلاً، ولسارت الجماهير الأوربية تطوف طليقة وتجول على هذا الطرف من الأطلسي بينما حفنة من الهنود الحمر لا تزال تطوف طليقة في مساحات أمريكا التي لا حدود لها"(١٤). (شبَّه بن جوريون المعارك العنيفة التي خاضها المستوطنون الصهاينة ضد الفلسطينيين بتلك التي شنها المستوطنون البيض ضد الطبيعة الوحشية وضد الهنود الأكثر وحشية)(١٥).

وقد تحدث المفكر الصهيوني الروسي ليو بنسكر عن حله للمسألة اليهودية بالمصطلح الاستعماري نفسه إذ يقول: "يتوجب علينا أن نرسل اليهود غير المندمجين والفائضين]غير المنتجين في المصطلح الصهيوني [إلى مكان آخر"(١٦)، فهدف الحركة الصهيونية "هو إيجاد وطن آمن يعيش فيه بأمان هؤلاء اليهود الفائضون الذين يعيشون الآن كطبقة

بروليتارية عالة على المواطنين الأصليين"(١٧). ثم يضيف: "لو تمكنا مثلاً من توزيع اليهود على كل أنحاء العالم لأمكن، ربما بهذا التوزيع، حل المشكلة اليهودية". ولكنه كان يعرف جيداً أن "معظم البلاد المتحضرة]أي الأوربية [سوف لا تقبل بهجرة اليهود الجماعية إليها"، ولذا يجب الحصول على "بلد خاص لنا في الولايات المتحدة أو أي ولاية تركية"(١٨). وقد وصف أوسكار رابينوفيتش، في كتاب هرتزل السنوي، المشروع الصهيوني بأنه يهدف إلى حل المسألة اليهودية عن طريق تحويل "تيار المهاجرين اليهود من إنجلترا إلى أفريقيا وآسيا"، وبأنه يهدف إلى تدعيم بريطانيا عن طريق "إنشاء مركز يهودي للحكم" يطل على الطريق البريطاني الحيوي (لندن – سنغافورة – ملبورن). وقد وصف هرتزل الفكرة الصهيونية عن حق بأنها "فكرة استعمارية"، ولذا فقد أرسل بمشروعه لسير سيسيل رودس "ليضع ختم شرعيته" على هذا المشروع(١٩). أما ناحوم سوكولوف، المؤرخ والزعيم الصهيوني، فقد قرر حسم التناقض بين الصهيونية كحركة بعث روحي والصهيونية كحركة استعمارية بأن قرر: علينا أن نكون صهاينة "في استعمارنا وروحنا وديننا"(٢٠).

وإذا كانت الصهيونية فكرة استعمارية، فإن كل مؤسساتها وممارساتها لابد وأن تتصف بهذه الصفة الجوهرية. وقد كتب هرتزل مثلاً في كتاب دولة اليهود عن الشركة اليهودية التي ستقوم بتنفيذ كل من الخطة العملية والمخططات السياسية التي ستعدها الجمعية اليهودية (أي المنظمة الصهيونية) (٢١). وهذا التصور يشبه إلى حدٍ كبير نسق الاستيطان الكولونيالي في الجزائر وروديسيا. ولذلك، حينما تأسست هذه الشركة بالفعل، أطلق عليها اسم "الشركة اليهودية الاستعمارية (الكولونيالية)" (٢٢) (وبالطريقة نفسها كانوا يتحدثون عن "البنك الكولونيالي"، وعن "الصندوق اليهودي الكولونيالي")(٢٣).

والدولة الصهيونية، حسب التصور الصهيوني، هي تعبير عن جوهرها الاستعماري المتأصل، فهي ستكون "إمبراطورية بريطانية مصغرة" (إنجلترا الصغرى، على حد قول هرتزل) وستستند دعائم صهيون الجديدة إلى الغزو الاستعماري وستمتد من جبال كليمنجارو في كينيا إلى فلسطين(٢٤). وتتفق رؤية موسى هس، في كتابه روما والقدس مع رؤية هرتزل، وإن اختلفت عنها في بعض التفاصيل، ففكرة هس

الصهيونية هي أيضاً فكرة استعمارية، وهي أيضاً تهدف إلى حل المسألة اليهودية عن طريق تصديرها. فهو يقول: إننا عندما نتكلم عن إقامة مستعمرات في الشرق لا نعني أن يهاجر يهود الغرب كلهم إلى فلسطين ("فالدولة اليهودية لا تهدف إلى استيعابهم كلهم")، وإنما نهدف إلى استيعاب الفائض (أولئك الذين فشلوا في "أن يشقوا طريقهم إلى الحضارة الغربية بجهد بالغ ويحققوا لأنفسهم مركزاً اجتماعياً") أما الذين نجحوا في هذه العملية ("فلن يتخلوا عن أي نجاح حققوه، لأن تضحية ذات نتيجة محددة كهذه هي ضد طبيعة الإنسان")(٢٥). ولكن هس، رغم هذا الاتفاق في نقطة الانطلاق، يعرف جيداً حدود الرؤية والممارسة، ولذلك فهو لا يتحدث قط عن إمبراطورية صهيونية استعمارية، وإنما يتحدث عن مستعمرة أو مستعمرات وحسب "ننشئها في بلد أجدادنا بمساعدة فرنسا، صديقتنا الحبيبة، المخلِّص الذي سيعيد لشعبنا مكانته في التاريخ العالمي"(٢٦).

والصورة هنا هي صورة فائض يهودي يبحث عن مخرج من مسألته اليهودية يقدم نفسه لقوة استعمارية تقوم بنقله إلى الشرق، ليستوطن هناك و"ليحل" محل أحد الشعوب

الشرقية – نظير أن يصبح الجيب الصهيوني الجديد الدخيل "عميلاً" للقوة العظمى التي تقوم بحمايته، وهذا هو النمط الأساسي الذي يتواتر في الكتابات الصهيونية. ويمكننا القول إن الاستعمار الصهيوني هو إفراز للتشكيل الاستعماري الغربي، ولكن إفرازات هذا التشكيل متنوعة، فهو استعمار إحلالي ليس له دينامية مستقلة عن الدولة العظمى التي تتبناه. ولعل هاتين السمتين، إحلاليته وعمالته؛ هما السمتان الأساسيتان للاستعمار الاستيطاني الصهيوني.

ويمكن بشيء من التبسيط تخيل أنواع الاستعمار المختلفة على هيئة هرم، لا تنفصل قمته عن قاعدته، وإن كانت تختلف عنه، ولعل المعيار الكامن في تدرج هذا الهرم هو درجة التشوه التي تلحق بجماعة المقهورين نتيجة للغزو الاستعماري. إذا قبلنا هذه الصورة المجازية، مع علمنا التام بأنها صورة تصنيفية وحسب وليست مقولة إمبريقية، فإننا سنجد عند قاعدة الهرم ما يسمى بالاستعمار الجديد، وهو أن تتحكم القوة العظمى الاستعمارية في مصير الشعب وثرواته عن طريق حكومات عميلة وعن طريق منظمات دولية خاضعة لهيمنة القوى العظمى (كما هو الحال الآن في معظم دول

العالم الثالث). ومثل هذا النوع من الاستعمار يمارس سلطاته بشكل غير مباشر، ولذلك فالتشوهات الحضارية والاجتماعية التي يلحقها بمجتمع المقهورين قد لا تكون في عِظَم التشوهات التي قد تسببها أنواع الاستعمار الأخرى. يقع فوق هذا، في هرمنا الافتراضي، الاستعمار التقليدي، حيث ترسل الدولة الغازية بجيوشها وتحتل بلداً ما لتحويل سكانه إلى مصدر للعمالة الرخيصة وللاستيلاء على موارده الطبيعية ولتحويله إلى سوق للسلع الفائضة وللاستفادة من وضعه الاستراتيجي (كما كان حال مصر إبان فترة الاحتلال الإنجليزي). ومثل هذا النوع من الاستعمار يلحق كثيراً من التشوهات بالمجتمع المستعمَر، إذ يفرض ثقافته ويقضي على فرص هذا المجتمع في أن يطور نفسه بشكل طبيعي ويمنع سكانه من أن يسيطروا على مصيرهم. ولكن مع هذا لا يمكن أن تُقاس هذه التشوهات بتلك التي يلحقها الاستعمار الاستيطاني (وهو الضرب الثالث من الاستعمار) بالمجتمع المستعمَر، إذ أن الاحتلال هنا يأخذ شكل جماعة استيطانية، بكل مؤسساتها الاجتماعية والاقتصادية والحضارية (من أسر وحكومات ونسق قيمي وجيش ولغة)، تُلقي بظلالها الكثيفة

على السكان الأصليين، الذين يتحولون إلى عبيد يهاجرون يومياً من قراهم ومخيماتهم إلى المدينة الاستيطانية أو إلى المناجم ليعملوا نظير أجور هي دائماً أقل من حد الكفاف، بينما تعمل الزوجات في أماكن أخرى، ولا توجد أي مؤسسات حضارية تقليدية أو حديثة لترعى النشء الجديد مما ينتج عنه تشوه كامل لبناء المجتمع الأصلي. وفي قمة الهرم يقع الاستعمار الاستيطاني الإحلالي، وحسب معلوماتي لا يوجد في الوقت الراهن سوى الاستعمار الصهيوني الذي ينتمي إلى هذا النوع، وهو يشبه في كثير من النواحي استعمار الرجل الأبيض للولايات المتحدة. فالرجل الأبيض هناك لم يهدف إلى استغلال الأرض ومن عليها من سكان، وإنما كان يهدف إلى استغلال الأرض دون سكانها، ولذا كان لابد من إبادة السكان الأصليين. وهذا ما حدث في فلسطين، إذ لم يقم الصهاينة باستعمار الفلسطينيين وتحويلهم إلى عبيد مؤاجرين، وإنما قامت الصهيونية بالاستيلاء على الأساس المادي الذي يستند إليه المجتمع الفلسطيني ذاته، وأحلت المستوطنين الصهاينة محل الفلسطينيين، الذين طُردوا من ديارهم (ربما لأن الإبادة لم تكن مطروحة بسبب

الصعوبات العملية، وإن كنا نعرف حالات حاول المستعمر الصهيوني فيها إبادة أعداد من الفلسطينيين ونجح في ذلك إلى حدٍ ما، فالهدف من مثل هذه المذابح ليس بأية حال طرد الفلسطينيين وإنما الإجهاز عليهم). وبهذا يكون الاستعمار الاستيطاني الإحلالي أكثر أنواع الاستعمار شراسة وضراوة.

ولابد وأن نبين أن إحلالية الاستعمار الصهيوني هي نتيجة حتمية "لصهيونيته" (و"يهوديته" المزعومة)، بل إننا يمكن أن نعتبر أن الإحلالية والصهيونية هما مترادفان يعبران عن الشيء نفسه. فالصهيونية كانت تهدف لإنشاء دولة يهودية خالصة، ووجود أي عنصر غير يهودي داخل هذه الدولة سيؤدي إلى إفشال المشروع الصهيوني من أساسه، أي أن البرنامج الصهيوني، لأنه صهيوني، كان يقتضي ويتطلب إحلال اليهود محل العرب، وليس مجرد استغلال هؤلاء العرب. ولذا بينما كان الفلاح الإفريقي المطرود يستوعب في النظام الاقتصادي الجديد كبروليتاري، كان الفلسطيني يتحول إلى لاجئ - أي إنسان منفصل عن أي نمط إنتاجي أو علاقات إنتاجية (ولعله من أكبر إنجازات منظمة التحرير

الفلسطينية أنها احتفظت لهؤلاء اللاجئين - على الرغم من وضعهم الفريد - بهويتهم القومية وبإحساسهم بالانتماء لوطنهم الفلسطيني ولأمتهم العربية).

وكان غالبية الصهاينة مدركين للطبيعة الاستعمارية الاستيطانية الإحلالية للمشروع الصهيوني، ولعل شعار "شعب بلا أرض لأرض بلا شعب" هو إفصاح عن هذا الاتجاه الإحلالي. والنزعة الإحلالية واضحة في كتابات هرتزل من البداية حينما يتحدث عن استخدام "المواطنين الأصليين" في قتل الثعابين الكبيرة والحيوانات المفترسة الأخرى، ثم إعطائهم وظائف في دول أخرى يقيمون فيها بصفة مؤقتة إلى أن يتم اختفاؤهم بشكل كامل(٢٧). وكان إسرائيل زانجويل يرى (عام ١٩١٩) أنه يجب أن يتم تدريجياً نقل العرب الفلسطينيين وتوطينهم في ما أطلق عليه المملكة العربية الجديدة الواسعة، حتى يتسنى تحويل فلسطين إلى "وطن قومي يهودي"(٢٨). وقد كتب وايزمان في أغسطس عام ١٩٤٧ يقول: إن نجاح مشروع تقسيم فلسطين يتوقف على "ما إذا كانت الحكومة ترغب بالفعل أو لا ترغب في تنفيذ هذه التوصية الخاصة بنقل العرب(٢٩). وقد ذكر جوزيف وايتز،

ممثل الوكالة اليهودية المسئول عن الاستيطان في جريدة دافار (٢٩ سبتمبر ١٩٦٧)، أنه هو وغيره من الزعماء الصهاينة توصلوا في عام ١٩٤٠ إلى نتيجة مفادها أنه ليس هناك "مكان يتسع لكلا الشعبين]العربي واليهودي [معاً في هذا البلد"، وأنه لتحقيق الأهداف الصهيونية لابد وأن تُقام دولة عند نهر الأردن ليس فيها عرب، ولذا كان من الضروري - حسب قوله- "نقل العرب من هنا ومن الدول المجاورة... نقلهم جميعاً، وبعد انتهاء عملية النقل هذه سيكون في مقدور الدولة (الصهيونية) استيعاب الملايين من إخواننا(٣٠). وقد وافق جميع الزعماء الصهيونيين، باختلاف اتجاهاتهم السياسية، على إحلالية الاستعمار الصهيوني، سواء كان سوكولوف الصهيوني السياسي اليميني(٣١)، أو بوروخوف، زعيم "اليسار" الصهيوني(٣٢).

وكان كارل كاوتسكي، المفكر الثوري اليهودي، من أوائل المفكرين الذين أدركوا الطبيعة الإحلالية للاستعمار الصهيوني في دراسته الشهيرة هل يشكل اليهود جنساً؟ إذ تكهن بأن المستوطنين اليهود سيعانون الكثير خلال النضال العربي من أجل الاستقلال، لأن الاستعمار الصهيوني يدل على نية

اليهود على البقاء في فلسطين ليس بهدف استغلال السكان الأصليين وحسب، بل لطردهم نهائياً أيضاً(٣٣). ولا ندري هل كان بن جوريون واعياً بالأساس النظري الذي تنطلق منه الممارسات الصهيونية، ولكننا لا نعرف أنه أدرك الخاصية الإحلالية للاستعمار الصهيوني بعد إنشاء الدولة الصهيونية على الأقل، إذ اقترح على ديجول أن يتبنى الشكل الإحلالي من الاستعمار الاستيطاني حلاً للمشكلة الجزائرية، فتقوم فرنسا بإخلاء المنطقة الساحلية من الجزائر من سكانها العرب على أن يتم توطين الأوربيين وحدهم فيها، ثم تعلن المنطقة دولة مستقلة أوربية بيضاء خالصة لسكانها حتى تقرير المصير، تماماً مثل الدولة اليهودية الخالصة (ولكن رد ديجول كان يتسم بالذكاء التاريخي إذ رفض أن يخلق "إسرائيل أخرى"، على حد قوله).

هذه هي الخاصية الأولى للاستعمار الصهيوني، أما الخاصية الثانية فهي عمالة الاستعمار الصهيوني. فالمشروع الصهيوني ابتداءً لم يكن من الممكن تنفيذه من الناحية التكنولوجية البحتة إلا بعد الثورة الرأسمالية التي ربطت أجزاء العالم وحولته إلى سوق واحد تقريباً، متماسكة أجزاؤه،

وهي الثورة التي جعلت عملية نقل الملايين من قارة إلى أخرى وتوطينهم أمراً ممكناً. ومن الناحية العسكرية السياسية، لم يكن من الممكن أن تتم هذه العملية إلا بحماية قوة عظمى تضمن للمستوطنين الأوربيين (الصهاينة في هذه الحالة) قطعة أرض تقتطعها من آسيا وأفريقيا ثم تقوم بإمدادهم بالسلاح وبالعون العسكري اللازمين لصد هجمات السكان الأصليين.

ولعل عمالة الاستعمار الصهيوني تظهر أكثر ما تظهر في بحثه الدائب، في المراحل الأولى عن قوة إمبريالية ترعاه، فقد تفاوض هرتزل مع العثمانيين ثم مع الألمان والروس ومع الفرنسيين، وأخيراً مع الإنجليز الذين أدركوا الإمكانيات الاستعمارية الكامنة في المشروع الصهيوني، وقد كللت هذه المساعي بالنجاح، بعد موت هرتزل، بصدور وعد بلفور، وقد أصبحت لندن بعد ذلك هي مقر القيادة الصهيونية، ولكن مع انتقال مركز الإمبريالية العالمية من العاصمة الإنجليزية إلى واشنطن، انتقلت القيادة الصهيونية هي الأخرى إلى هناك لتضمن أن تكون على مقربة من القوة الأساسية التي ترعاها.

لم تكن عمالة الاستعمار الصهيوني بأمر خافٍ على

الزعماء الصهاينة. فقد كان هرتزل يرى أن الدولة الصهيونية ستكون بالدرجة الأولى "مستعمرة كبيرة" تدعم النفوذ البريطاني (٣٤). بل إنها ستكون بمثابة "مستعمرة جديدة غنية" (٣٥) تضاف إلى الإمبراطورية العتيدة. وقد شارك نورداو في هذا التصور أيضاً، فالدولة الصهيونية ستكون تحت وصاية بريطانيا العظمى، أما "اليهود (وهو يعني في الواقع الصهاينة) فسيكونون بمثابة حراس على طول الطريق ابتداءً من الشرقين الأدنى والأوسط حتى حدود الهند" (٣٦).

ويفهم من كلمات نورداو أن الدولة الاستيطانية والمستوطنين سيقومون على خدمة الإمبراطورية. ولكن يبدو أن المخطط الصهيوني لم يكن يهدف لهذا وحسب، وإنما كان يهدف أيضاً إلى تحويل كل يهود العالم إلى "عملاء" أو "تابعين سريين" (على حد قول هرتزل في مذكراته)(٣٧).

كما أن إحلالية الاستعمار الاستيطاني تكمن في صهيونيته، كذلك نجد أن عمالته لصيقة بشكل عضوي بصهيونيته أيضاً. وهذا ما نبه إليه جابوتنسكي، إذ قال إن فلسطين العربية ستنضم إلى بقية العالم العربي، أما الدولة الصهيونية التي لا تنتمي إلى المنطقة فستضطر أن تلجأ

لبريطانيا لحمايتها وبالتالي ستكون معتمدة عليها اعتماداً كاملاً بما يضمن استمرار التعاون بين الاستعمار الصهيوني العميل والاستعمار البريطاني(٣٨).

وقد أشرنا من قبل إلى أن الاعتماد على قوة استعمارية كبرى كان أمراً أساسياً لتحويل الرؤية الصهيونية الاستعمارية إلى حقيقة، وذلك لحماية المستوطنين من السكان الأصليين. ولكن يبدو أنه في حالة الصهيونية كان من الضروري الحصول على العون الإمبريالي لفرض الرؤية الصهيونية على اليهود أنفسهم الذين أبدوا معارضة قوية في بادئ الأمر ضد الحركة الصهيونية، وهذا ما اعترف به وايزمان حينما صرح أن وعد بلفور "كان مبنياً على الهواء" فالصهاينة "كانوا يقفون وحدهم على جزيرة صغيرة - مجموعة صغيرة من اليهود لها ماضٍ أجنبي"(٣٩). وكحل لهذه المشكلة - مشكلة الحركة الاستعمارية الاستيطانية التي لا تملك جماهير لنقلها إلى فلسطين - اقترح وايزمان استراتيجية الهجوم على اليهود من أعلى، أي أن تقوم الحركة الصهيونية بكسب ود القوة الإمبريالية. وبالتالي فإنها تكتسب شرعية أمام الجماهير اليهودية مما يضطر اليهود المناهضين

للصهيونية إلى الموافقة على المشروع الصهيوني وعلى الانخراط في صفوف الحركة الصهيونية في الوقت المناسب(٤٠). ولعل هذا هو السبب أن وايزمان أصر على أن يدرس المشروع الصهيوني لا في ضوء العهد القديم أو الجديد، وإنما "في ضوء المصالح الإمبريالية"(٤١). ويبدو أن هذا هو ما تم بالفعل، ولذلك تحمس حكام الإمبراطورية وصدر وعد بلفور، وهو الوعد الذي يمنح الصهاينة "حقوق" المستعمرين "وواجباتهم". ويمنح الحركة الصهيونية الشرعية الاستعمارية التي كانت تسعى لها.

الدولة المطلقة

ومن الأفكار المحورية في التشكيل الحضاري الغربي الحديث فكرة "الدولة المطلقة". و"الدولة المطلقة" غير الحاكم المطلق. فالحاكم المطلق هو الديكتاتور أما الدولة المطلقة فهي الدولة التي تعتبر نفسها المرجعية النهائية، والتي لا تحتاج لأية شرعية، وبالتالي فإن مصلحة هذه الدولة هي القيمة المطلقة التي تتفرع عنها كل القيم الأخرى. ويلاحظ أن أهمية الدولة تزايدت تدريجياً في المجتمعات الغربية الحديثة. حتى أصبحت الركيزة الأساسية للمجتمع ومصدر تماسكه الوحيد

(بدلاً من القيم الدينية). ثم أصبحت الدولة هي المطلق موضع التقديس الذي يحل محل الكنيسة والإله، وأصبحت مصلحة الدولة العليا الإطار المرجعي للمنظومة القيمية. ومع ظهور القومية العضوية، أصبحت الدولة الإطار الذي يعبِّر الشعب العضوي من خلاله عن ذاته ويحقق تماسكه العضوي. ثم يصل هذا التيار إلى ذروته مع الفكر الهيجلي إذ أصبحت الدولة الأداة التي تتوسل بها "الفكرة المطلقة" لتحقيق ذاتها، بل أصبحت تجسد الفكرة المطلقة في التاريخ.

والفكر الصهيوني لا يختلف عن الفكر الغربي إلا في التفاصيل، فالدولة اليهودية هي الإطار الذي سيعبِّر الشعب العضوي المنبوذ (أي المادة البشرية التي سيتم نقلها) عن هويته من خلاله. وتكتسب الدولة في الفكر الصهيوني دلالة أخرى هي فكرة الدولة الراعية الغربية. فقد أدرك الصهاينة من اليهود في مرحلة هرتزل أنه لن يتأتى لهم تحقيق مشروعهم القومي إلا من داخل مشروع استعماري غربي. ومن هنا كان البحث عن دولة غربية عظمى تقوم بعملية نقل اليهود وتوطينهم وتأمين موطئ قدم لهم والدفاع عنهم ضد السكان الأصليين داخل إطار دولة عميلة تدين للغرب بالولاء.

وقد أصبحت الدولة بعد مرحلة هرتزل وبلفور جزءاً من الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة. وكما هو الحال عادةً، نجد أن الإجماع الصهيوني لا ينصرف إلا إلى هذه الصيغة الأساسية الشاملة، أما ما عدا ذلك فهو موضع خلاف وصراع (دون قتال) بسبب الطبيعة المراوغة للخطاب الصهيوني. وقد اكتسبت الدولة اليهودية أبعاداً دينية مطلقة وأصبحت هي آلية تَحقُّق الحلم المشيحاني بل مركز الحلول. وبعد إعلان الدولة الصهيونية، بدأ كثير من اليهود ينظرون إليها باعتبارها الكنيس المركزي وإلى رئيس وزرائها باعتباره الحاخام الأعظم. ومع انتشار لاهوت موت الإله بين اليهود، أصبحت الدولة حرفياً هي تَجسُّد المطلق في العالم المادي، الآن وهنا، فهي على حد قول أحد المفكرين اليهود "العجل الذهبي".

العنصرية (ومعاداة اليهود)

بينا من قبل أن الثورة الرأسمالية عبرت عن نفسها من خلال الأنواع المختلفة من الاستعمار، وأن العملية الاستعمارية ساندت مجموعة من الاعتذاريات والتبريرات تتسم بالعنصرية، إذ تفترض هذه الاعتذاريات أن "عدم

المساواة بين الأجناس... حقيقة تاريخية واضحة" (على حد قول بلفور)(٤٢)، فهناك أجناس متفوقة لها كافة الحقوق وأجناس متخلفة ليس لها حقوق على الإطلاق أو لها على الأكثر حقوق محددة.

والنظرية العنصرية الغربية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالثورة الرأسمالية. وقد أشار مؤلف مدخل "العلاقات بين الأجناس" في دائرة المعارف الدولية للعلوم الاجتماعية إلى أنه يمكن القول بأن "علاقات الأجناس قد بدأت بالتوسع الذي حققته القوى الأوربية الكبرى فيما وراء البحار ابتداءً من القرن الخامس عشر فصاعداً"(٤٣) (وهذا هو الوقت الذي بدأ فيه ظهور الأفكار الاسترجاعية المسيحية). ولكن هذا الاحتكاك الأولي بين الأجناس لم يتم في إطار التفوق التكنولوجي الأوربي، فالمغول في الهند والعثمانيون في البحر الأبيض المتوسط كانوا لا يزالون في قوة أي دولة أوربية أخرى، وكان في مقدورهم صد أي هجمات أوربية. وكان في مقدور الصينيين واليابانيين حتى القرن التاسع عشر أن يفرضوا شروطهم على الأوربيين الذين يودون دخول بلادهم والاتجار معهم. بل إن أفريقيا ذاتها كان بها دول قادرة على صد

الهجمات العسكرية الغربية. والاستثناء الوحيد لهذه القاعدة كان الأمريكتين لأن سكانها الأصليين كانوا قد انقطعوا عن التطورات التكنولوجية التي حدثت في القارات الأخرى، ولذا كـان من السـهل على الإنسـان الأبيض المسلح أن ينشئ إمبراطوريات غربية هناك، وأن تظهر بالتالي أولى النظريات العنصرية في إسبانيا في القرن السادس عشر(٤٤).

وفي منتصف القرن الثامن عشر، تغير الوضع وحققت أوربا تقدماً تكنولوجياً جعل جيوشها قادرة على كسب معظم المعارك العسكرية التي قد تدخلها، وهنا بدأ الأوربيون يدركون "تفوقهم". وبينما كانت أحاسيس التفوق في الماضي تستند إلى ادعاءات الإنسان (الدينية أو الفكرية) عن نفسه (وهي ادعاءات فكرية ذاتية واهية)، بدأت أوربا بعد الثورة الصناعية ترى تفوقها مستنداً إلى الآلات والمدافع. وقد ظل هذا الإحساس في تزايد حتى بداية القرن العشرين حين أصبح حقيقة علمية" تساندها نظريات مثل نظرية داروين وأبحاث علمية" أخرى ربطت بين الانتماء العرقي والحضارة(٤٥). وقد بين كاتب مدخل "العنصرية" في دائرة المعارف البريطانية الجديدة أنه ليس من المصادفة أن العنصرية ازدهرت في وقت

حدوث الموجة الثانية الكبيرة من التوسع الاستعماري الأوربي والزحف على أفريقيا، وهي أيضاً فترة ظهور الصهيونية وبداية الاستيطان الصهيوني في فلسطين(٤٦).

وقد بين المفكر النازي ألفريد روزنبرج، أثناء محاكمته في نورنبرج، أن العنصرية جزء أصيل من الحضارة الغربية الحديثة، وأكد لقضاته العلاقة العضوية بين العنصرية والاستعمار. فأشار إلى أنه عثر على لفظة "سوبرمان" في كتاب عن حياة اللورد كتشنر، وهو الرجل "الذي قهر العالم"، كما أكد أنه صادف عبارة " العنصر السيد" في مؤلفات عالم الأجناس الأمريكي ماديسون جرانت والعلامة الفرنسي لابوج. وأضاف قائلاً إن هذا النوع من الأنثروبولوجيا العنصرية ليس سوى "اكتشاف بيولوجي جاء في ختام الأبحاث التي دامت ٤٠٠ عام"(٤٧). وقد كان روزنبرج محقاً فيما قاله، "فالعلم" الغربي في القرن التاسع عشر شغل نفسه بنظرية الأجناس، وظهرت أسماء مثل و.ف. إدواردز وروبرت سوكس والمفكر الإنجليزي توماس آرنولد (والد الشاعر والمفكر المشهور ماثيو آرنولد). وقد أثرت أفكار نوكس في داروين صاحب نظرية التطور، التي كان من اليسير على دعاة

العنصرية أن يتبنوا منظورها اللاأخلاقي (كما فعل نيتشه)، وأن ينقلوا مفاهيمها من عالم الحيوان إلى عالم الإنسان لتبرير الغزو والإبادة(٤٨).

ويمكن تلخيص الأفكار الأساسية للفكر العنصري الغربي فيما يلي:

١- الحضارات غير الغربية أدنى بكثير من الحضارة الغربية.

٢- الشعوب غير الغربية تختلف عرقياً عن الشعوب الغربية، وهذا الاختلاف وراثي.

٣- ولأن الحضارة والعرق هما الشيء نفسه، فإن التخلف الحضاري أمر وراثي وبالتالي حتمي(٤٩).

وقد ظهرت نظريات سياسية عديدة في درجة عنصريتها، فمنها من يرى "المتخلفين" على أنهم أقرب إلى الحيوان منهم إلى البشر، وبالتالي يجب إبادتهم، ومنهم من اتخذ موقفاً أكثر "رقة" ونظر للمتخلفين باعتبارهم يحتاجون إلى رعاية خاصة ولابد أن يؤخذ بأيديهم وأن يوضعوا تحت الوصاية وكأنهم أطفال(٥٠). وهناك من بلغ به الحد إلى إلغاء وجودهم تماماً، بحيث أصبحت بلادهم "أرضاً بلا شعب" أو "مناطق

جغرافية لا تاريخ لها".

ويغض النظر عن مدى قسوة أو رقة النظرية، نجد أن الافتراض الأساسي هو افتراض تخلف بعض الأجناس وتفوق البعض الآخر، ولذا كانَ من الممكن على المفكر الصهيوني ماكس نوردو أن يقترح توطين العمال الأوربيين العاطلين في آسيا وأفريقيا، وهم من الجنس المتفوق الأبيض، ليحتلوا مكان "الأجناس الأدنى" التي لا تستطيع البقاء خلال معركة التطور(٥١). وقد صرح بذلك قبل أن يتبنى الصهيونية حلاً للمسألة اليهودية.

كانت العنصرية إذن من أهم الأطر الإدراكية للحضارة والمجتمع الغربي في القرن التاسع عشر. وقد وُلد الإدراك الصهيوني للواقع داخل هذا الإطار وكان لابد وأن تتأثر به وتستفيد منه، فالرجل الأبيض المتفوق له حقوق متميزة، والصهيونية التي تبنت الحل الاستعماري كان لابد وأن تتبنى العنصرية أيضاً لأنهما وجهان للعملة نفسها. وبالفعل، نجد أن الصهيونية حاولت أن تنظر لليهود من الناحية الأساسية باعتبارهم جزءاً من الجنس الأبيض المتفوق(٥٢). وعلى الرغم من أن الترويج لنظرية اليهودي كعضو في الجنس الأبيض

المتفوق لم تبحث بشكل واعٍ أو على نطاق واسع، إلا أنها كانت الفكرة المتضمنة والكامنة في المساعي الصهيونية الأولى.

فهرتزل، على سبيل المثال - منطلقاً من افتراض أن المشروع الصهيوني هو واحد من مشاريع الرجل الأبيض الاستعمارية - كان يؤكد على ضرورة التنسيق بينها حتى لا تتعارض الحقوق المختلفة "للبيض" مع بعضها البعض. وقد كتب في مذكراته، قبل أن يجتمع بجوزيف تشامبرلين - وزير المستعمرات الإنجليزي -، أنه ينبغي عليه أن يبين له "بقعة في الممتلكات الإنجليزية ليس بها حتى الآن بيض" قبل مناقشة ذلك المخطط الصهيوني للاستيطان(٥٣). وافتراض إسرائيل زانجويل النقاء العِرْقي للمشروع الصهيوني، وحبذ الاستيطان الصهيوني في شرق أفريقيا كوسيلة لمضاعفة "عدد السكان البيض" التابعين لبريطانيا هناك(٥٤).

والحديث الذي لا ينتهي في الكتابات الصهيونية عن تقدم اليهود وتفوقهم على أهل البلاد الأصليين وعن حقوق اليهود، لا يمكن فهمه إلا في إطار النظريات العنصرية الاستعمارية الغربية. إن عودة اليهود لبلاد الأجداد لن تتم حسب رؤى

العهد القديم أو كتب الأبوكريفا أو غيرها من الكتب أو الأساطير، وإنما سيعود اليهود "بصفتهم ممثلين للحضارة الغربية"، وسيجلبون معهم العادات الغربية الراسخة مثل النظافة والنظام (والأسلحة الجديدة؟) "إلى هذا الركن الموبوء والبالي من الشرق" (المليء بالمواد الخام والعمالة الرخيصة)؟ إن الدولة الصهيونية، شأنها في هذا شأن المستعمرات الأخرى، مثل الجزائر والكونغو وجنوب أفريقيا التي ذبح فيها الملايين، ستشكل "جزءاً من جدار الدفاع عن أوربا في آسيا، ومعقلاً للحضارة ضد التخلف والهمجية"(٥٥).

ولكن من المفارقات التي واجهها الصهاينة أن العنصرية الغربية لم تكن موجهة ضد الأفريقيين والآسيويين وحسب، وإنما كانت موجهة أيضاً ضد اليهود. فالفكر العنصري الغربي يسري فيه تيار قوي معادٍ لليهود، بل إنه يمكن القول بأن الفكر الاسترجاعي المسيحي الغربي (وهو كما بيّنا إرهاص للفكر الاستعماري) الذي يدعو إلى توطين اليهود في فلسطين هو فكر معادٍ لليهود يطالب بالتخلص منهم. ونحن إذا ما نظرنا إلى كتابات المفكرين الاسترجاعيين لوجدنا أنهم من كبار المعادين لليهود. ولعل أهم المفكرين والساسة

الاستـرجـاعـيين على الإطلاق هو اللورد بلفـور. ولكننا إذا درسنا مواقفه وسلوكه السياسيين لاكتشفنا تلازم صداقته الظاهرية لليهود ومعاداته الحقيقية لهم. ففي عام ١٩٠٥ نجد أنه تبنى وناصر مشروع الاستيطان الصهيوني في شرق أفريقيا، ولكنه في الوقت نفسه أيَّد قانوناً يقيد عدد اليهود المسموح لهم بدخول إنجلترا كمهاجرين(٥٦). إن بلفور كان ينظر لليهود باعتبارهم "جماعة معادية أدى وجودها داخل الحضارة الغربية إلى بؤس وشقاء استمر دهراً من الزمن"، إذ أن تلك الحضارة لا تستطيع طردهم أو استيعابهم(٥٧). و"ولاء اليهود للدولة التي يعيشون فيها" - حسب تصور بلفور - "ضعيف إذا ما قورن بولائهم لدينهم ولعرْقهم"، وهذا يعود لطريقة وجودهم وعزلتهم(٥٨). إن موقف بلفور من اليهود موقف معادٍ لهم فهو يراهم شعباً لا جذور له ولا ولاء محدد له، ولذا يجب توطينهم خارج الحضارة الغربية.

إن مشروع توطين اليهود في فلسطين هو، في واقع الأمر، مشروع لطرد اليهود من الغرب، وتصديرهم يأتي ضمن ما صدَّرت أوربا من نفايات إلى الشرق، أي أنه مشروع يتضمن كرهاً واحتقاراً عميقين لليهود. وسنكتشف أن الصهيونية التي

تبنت الحل الاستعماري للمسألة اليهودية تبنت أيضاً الرؤية العنصرية لليهود، فالصهيونية على سبيل المثال تنطلق من مقولة عنصرية غربية مفاداها أن معاداة اليهود أمر حتمي بل وطبيعي. فاليهود - حسب التصور المعادي لهم وحسب التصور الصهيوني - جسم غريب يعيش بين الشعوب الأخرى ويجب نبذه وطرده. وفي هذا، يقول المفكر الصهيوني حاييم كلاتزكين أنه يستطيع أن يفهم جيداً مشروعية "وعدالة" معاداة اليهود باعتبارها بالضرورة عملاً دفاعياً تقوم به الشعوب ضد شعب وقف في حلقها، وذلك باعتبار أن اليهود يشكلون أمة مستقلة. ثم يخلص كلاتزكين إلى أنه "إذا لم نسلم بعدالة معاداة اليهود، فإننا نشكك بهذا في عدالة قوميتنا ذاتها"(٥٩). وقد عبر أحد مشاهير المعادين لليهود، في دراسة له عن كتاب هرتزل دولة اليهود، عن رضاه العميق عن كون الصهاينة قد أظهروا فهماً عميقاً وربما علمياً لمعاداة اليهود، فهم لم يعودوا يرون في هذه الحركة ضرباً من الجنون أو التعصب وإنما ينظرون إليها باعتبارها "دفاعاً عن النفس"(٦٠).

والصهاينة يرون أن معاداة اليهود أمر طبيعي ومنطقي،

لأن اليهودي في الشتات شخص غريب وغير منتمٍ، ولابد من إعادة توطينه في وطنه القومي! ولتبرير هذا الموقف، كان على الصهاينة أن يبينوا تفوق النموذج القومي اليهودي، وأن يبينوا تدني وشذوذ النموذج التقليدي - أي نموذج يهود الدياسبورا الذين يجب تصفيتهم(٦١). وكي يبرر الصهاينة قولهم بشذوذ يهود الشتات، فإنهم أقاموا نقداً متكاملاً وتفصيلياً للشخصية اليهودية في المنفى "على أساس من الاتهامات" المأخوذة من كتابات المعادين لليهود في الغرب(٦٢). واليهودي في الكتابات الصهيونية مرابون و"شخصيات مريضة" يحيون مثل "الكلاب والنمل" يجمعون المال ويتبعون قيم السوق.

والافتراض الصهيوني فيما يتصل بيهود الشتات هو أن الصهيونية ستقوم بتطبيع اليهود، أي ستعيدهم للحالة الطبيعية. وقد عبر برينر عن هذا الموقف حين حث اليهود على أن "يعترفوا ويسلموا بوضاعتهم منذ فجر التاريخ حتى الوقت الحاضر"، ثم مضى يدعوهم إلى البدء من جديد(٦٣).

ويتحول النقد الصهيوني ليهود الشتات أحياناً إلى تصوير كاريكاتيري. فكلاتزكين مثلاً وصف اليهود بأنهم "شعب قلق

وبلا جذور يعيش حياة زائفة وفاسدة". واليهودي - عند بنسكر وبنص كلماته - "ضيف في كل مكان" و"ليس في وطنه في أي مكان" و"ينتقل كشبح من بلد لآخر، كجسم غريب" فهو نصف ميت سيطر عليه مرض الترحال(٦٤). ونجد نغمة واضحة معادية لليهود تميز كتابات الكاتب الصهيوني إسرائيل سنجر، فاليهود بالنسبة له "شعب منحط قانط يحيا في القذارة". وهم "مجموعة من آسيا، تحيا وسط أوربا"، وهم - ككيان مستقل - يمثلون "حدبة واحدة كبيرة"(٦٥).

وفي مقال بعنوان "دمار الروح"(٦٦)، جمع كاوفمان مجموعة من أوصاف اليهود في الكتابات الصهيونية، على الوجه التالي:

فريشمان: حياة اليهود حياة كلاب تثير الاشمئزاز.

برديشفسكي: ليسوا أمة، ليسوا شعباً، وليسوا آدميين.

برينز: غجر وكلاب قذرة - كلاب جريحة لا إنسانية.

أ.د. جوردون: طفيليات - أناس لا فائدة منهم أساساً.

شوادرون: عبيد وبغايا... أحط أنواع القذارة.. ديدان وطفيليات بخسة بلا جذور.

إن العنصرية الصهيونية ضد اليهود هي ولا شك شكل من أشكال معاداة اليهود التي هي تعبير عن العنصرية الغربية المتأصلة، والتي كانت تعد مكوناً أساسياً للفكر الغربي السياسي في ذلك الوقت. أما العنصرية الصهيونية ضد العرب فهو ما سنتناوله بالتفصيل في فصل مستقل.

السياق اليهودى الغربى للظاهرة الصهيونية

في محاولتنا لدراسة جذور الإدراك الصهيوني للواقع، حاولنا حتى الآن أن نضعه في سياقه الأساسي وهو التاريخ الأوربي بكل أبنيته الفكرية والحضارية والاقتصادية. ولكننا، مع ذلك، يجب ألا نهمل الخصوصية اليهودية الغربية للإدراك الصهيوني للواقع، فالصهيونية كانت بلا شك مشروعاً استعمارياً استيطانياً إحلالياً عنصرياً لا يختلف عن المشاريع الاستعمارية الاستيطانية الأخرى، ولكنها كانت أيضاً لها خصوصيتها اليهودية الغربية. ودراستنا للعناصر اليهودية في خلفية الصهيونية التاريخية لا تعني بأية حال أنها ظاهرة فريدة لا تنتمي إلى أي نمط، وإنما تعني أنها ظاهرة لها خصوصيتها برغم انتمائها إلى نمط تاريخي معروف. وفي تصورنا أن كل الظواهر تتسم بفرادتها الخاصة، فقد تدخل

فيها عناصر لا تدخل في الظواهر المماثلة، وتختلف الطريقة التي تترابط بها عناصر ظاهرة ما عنها في الظواهر الأخرى، كما تختلف علاقة الجزء بالكل من ظاهرة لأخرى. والوضع نفسه ينطبق على الظاهرة الصهيونية، فعلاقة الصهيونية بالثورة الرأسمالية (والإمبريالية) تختلف عن علاقة النازية بها، وذلك على الرغم من أن الصهيونية والنازية ظاهرتان متماثلتان، وتنتميان للتشكيل الحضاري الاقتصادي نفسه. ولذا، فإن اعتذاريات الصهيونية تختلف عن اعتذاريات النازية، كما يختلف مجالهما وأساليبهما وتوجهاتهما.

وقد بينا من قبل أن الثورة الرأسمالية هي التي تسببت بشكل أساسي في ظهور المسألة اليهودية، ويمكن أن نضيف هنا أن الثورة الرأسمالية عبرت عن نفسها في أشكال مختلفة تختلف باختلاف الظروف الحضارية أو الاقتصادية أو الدينية للظاهرة التي تتأثر بها الثورة. فالثورة الرأسمالية، على سبيل المثال، تركت أثراً عميقاً على طبقة النبلاء المسيحيين وعلى التفكير الديني المسيحي وعلى الفلاحين المسيحيين وعلى أعضاء الجماعات اليهودية. وهددت الثورة الرأسمالية مواقع النبلاء المسيحيين، فقاوموها كما حدث في فرنسا مثلاً، أو

هادنوها كما حدث في إنجلترا. أما بالنسبة للدين المسيحي، فإنه يمكن رؤية الإصلاح الديني وظهور البروتستانتية كتعبير عن هذه الثورة الرأسمالية. أما بالنسبة للفلاحين، فقد هاجرت أعداد كبيرة منهم إلى المدينة حيث تحولوا إلى بروليتاريا، وعبرت الثورة الرأسمالية عن نفسها بالنسبة لأعضاء الجماعات اليهودية في شكل المسألة اليهودية والتي قلنا إنها مشكلة انتقال اليهود واليهودية من مسام المجتمع الإقطاعي وهامشه إلى صلب المجتمع الرأسمالي الجديد، وهي أيضاً المشكلة التي كانوا يسمونها Productivization of the Jews أي تحويل اليهود إلى قطاع إنتاجي، أي جعل اليهود يكتسبون المهارات اللازمة حتى يتكيفوا مع المجتمع الجديد ويساهموا فيه إنتاجياً بدلاً من أن يصبحوا عبئاً عليه. والمشكلة، كما أسلفنا، كانت إذن مشكلة "تحديث" اليهود واليهودية(٦٧).

والواقع أن الثورة الرأسمالية هي التي أدت إلى هذا الوضع، ولكنها في الحقيقة لم تكن وحدها المسئولة عن ظهور المسألة اليهودية وإنما كان لتميز اليهود الوظيفي والاقتصادي دور فعال أيضاً. فالإقطاعي المسيحي كان أمامه بديل أو

بدائل عديدة من بينها محاربة الاقتصاد الجديد أو الانضمام له، والفلاح المسيحي كذلك كان أمامه بدائل قد تكون أقل جاذبية من البدائل المتاحة أمام الإقطاعي وكان مجال الحركة مفتوحاً أمامه. أما اليهودي فكان مسلوب الإرادة ولا تسنح له بدائل تاريخية جديدة. ولعل هذا ما يفسر الإحساس بالبؤس الذي عانت منه الجماهير اليهودية مع بداية القرن السادس عشر، وانتشار الحركات الماشيحانية بينها، وهي حركات صوفية تبشر بوصول الماشيح (المسيح المخلِّص) الذي سيأخذ شعبه المختار ليعود به إلى أرض الميعاد. ويمكن ترجمة هذا "المصطلح" الصوفي إلى مصطلح أكثر نثرية بالقول بأن الماشيَح سيوجد بديلاً تاريخياً أمام الجماهير اليهودية التي وجدت نفسها في طريق مسدود. وبالفعل، طالبت الحركة الماشيحانية الفرانكية بإعطاء أرض لليهود حتى يتمكنوا من الاشتغال بالزراعة وترك التجارة الإقطاعية الطفيلية. وهذا الشعار هو الذي تبنته الحركة الصهيونية في نهاية الأمر وإن كانت قد ضمته إلى نسقها الفكري الاستعماري، وأصبحت القضية هي العودة لفلسطين هروباً من طفيلية وهامشية الشتات، من شخصية التاجر والمرابي للعمل بالزراعة

والأعمال اليدوية المنتجة الأخرى.

عبَّر التميز(٦٨) الاقتصادي والوظيفي لأعضاء الجماعات اليهودية عن نفسه في ظاهرة الجيتو. وكان من الممكن نظرياً أن يتأقلم أعضاء الجماعات اليهودية بالتدريج في المجتمع الجديد، كما حدث للفئات الأخرى من المجتمع وكما حدث ليهود غرب أوربا (خاصةً في إنجلترا وفرنسا)، خاصةً وأن عملية التحديث استغرقت في أوربا عدة قرون (على عكس الوضع في العالم الثالث). ولكن مثل هذه العملية التدريجية لم تتم بالنسبة لليهود، خاصةً في شرق أوربا، إذ انعزلوا عن التيار الأساسي للحضارة الغربية داخل أسوار الجيتو(٦٩). ولم يكن هذا الانعزال في بداية الأمر شيئاً سيئاً، بل كان أمراً يطالب به اليهود أنفسهم، باعتبار أن الفصل بين الطبقات هو السمة الأساسية للمجتمع الإقطاعي، وباعتبار أن عزلتهم في الجيتو كان الهدف منها تيسير أدائهم لمهمتهم. ومع تآكل هذا المجتمع، تحول الجيتو من مكان يقطنه اليهود ويمارسون فيه استقلالهم الديني والوظيفي إلى مكان يُعزلون فيه. وقد تسبب انهيار الأساس الاقتصادي للجيتو في انهيار معنوي وأخلاقي كامل، كما زاد من حدة اضطهاد العالم

الخارجي للقاطنين فيه، وأصبح الجيتو هو المكان الذي يتم فيه عزل ومحاصرة اليهود بعد أن كان المكان الخاص المقصور عليهم.

ثم تحول الجيتو في كثير من الأحيان إلى مكان قذر للغاية، تتفشي فيه الأمراض وتتراكم فيه القانورات وتحيط به أسوار وحيطان عالية، وله بوابة واحدة أو بوابتان ويمنع اليهود من مغادرته. وقد تضاعف عدد اليهود في أواخر القرن الثامن عشر مما أدى إلى ازدحام الجيتوات. ومما زاد الطين بلة أن الأرض المصرح لليهود ببناء منازلهم عليها كانت محدودة، مما اضطرهم في غالب الأمر إلى التوسع الرأسي، فكانت منازل الجيتو متلاصقة، كما أنها كانت تتميز بارتفاعها الذي يفوق ارتفاع منازل المدينة. وقد تسبب ارتفاع المنازل وتلاصقها إلى حجب الشمس عن حارات الجيتو فأصبحت لذلك رطبة وغير صحية.

•

وقد ترك الانحطاط الاقتصادي والمعماري للجيتو أثراً عميقاً على وجدان القاطنين فيه، وعمق من انفصالهم عن العالم الخارجي، ولون إدراكهم للواقع. ففي الجيتو، كان اليهودي

يهرب من العالم الخارجي لعالم كان يتصور أن كل ما فيه يهودي خالص. فقد كان يمارس طقوسه اليهودية بكل حرفيتها وبدون حرج، ثم يمتنع عن العمل يوم السبت حتى يعجِّل بعودة الماشيح المنتظر ليقود شعبه لأرض الميعاد. وحينما كان اليهودي يحاول أن يدرس شيئاً فإنه كان يذهب إلى بيت هامدراش (المدرسة الملحقة بالمعبد اليهودي) أو إلى المدرسة التلمودية حيث كان لا يدرس إلا التوراة والتلمود والمدراش. وكان لا يقترب البتة من تاريخ الأغيار، فقد كان كل ما يعنيه هو تاريخ اليهود كما جاء في كتب اليهود المقدسة. لكل هذا، كان اليهودي يعيش نفسياً في مكان كان يتصور أنه "فلسطين" وإن كان يعيش جسده في أحد جيتوات شرق أوربا أو وسطها.

وحينما كان يهودي الجيتو يتعلم لغة جديدة، كان يتعلم لشون هاقودش أي اللسان المقدس أو اللغة العبرية، لأن مجرد النظر إلى أبجدية الأغيار كان يعد كفراً ما بعده كفر يستحق اليهودي عليه حرق عينيه. وكان مجرد التفكير في دراسة علوم الدنيا، مثل الهندسة، جهداً لا طائل من ورائه وكفراً تعاقب عليه الشريعة. بل إن الحديث اليومي بين غالبية

يهود العالم الغربي (أي يهود شرق أوربا) لم يكن يتم بلغة البلاد وإنما برطانة يهودية خاصة تسمى *اليديشية*. كما أن الطريقة التي كان اليهودي يطلق بها لحيته وسوالفه، وكذلك طريقة اغتساله وأنواع الطعام التي يتناولها، كانت كلها مختلفة عما يتناوله بنو وطنه من الأغيار. ولم يكن اليهودي يشعر بأي أمن خارج أسوار الجيتو، ففي الخارج كان يوجد عالم غريب ومعادٍ وشرير، أما في داخل الأسوار، فقد كان يجد الأمن والطمأنينة والثقة والإيمان العميق بأنه ينتمي إلى الأمة المقدسة والشعب المختار. وكان يتلقى التأكيدات المختلفة بأن الجيتو هو وجود مؤقت يحفظ الإله فيه الأمة وروحها إلى أن يحين الوقت الذي يشاء فيه إعادة شعبه إلى أرضه وحريته. وقد تسبب هذا في نوع من الانفصام في الرؤية، حتى أصبح العداء للأغيار من أهم آليات الضبط الاجتماعي داخل الجيتو. وقد قدم عصر النهضة، وكذلك عصر الإصلاح الديني ثم عصر التنوير في أوربا، واليهود داخل أسوار الجيتو (الاقتصادية والوجدانية والفعلية). وبقيام الثورة الفرنسية والثورات البورجوازية الأخرى في إنجلترا وأوربا، تهدمت أسوار الجيتو وطرح بديل الانعتاق (والتحديث) على

اليهود.

وقد واجه يهود شرق أوربا كثيراً من الصعاب في الانتقال إلى العصر الحديث نتيجة لتخلفهم الحضاري. ومن هنا ظهرت الصهيونية باعتبارها إحدى صيغ التحديث، ولكنها إحدى الصيغ السطحية للغاية، والتي ادعت أنها تحدِّث اليهود واليهودية ولكنها قامت في واقع الأمر بخلق أكبر جيتو في العالم: الدولة الصهيونية. والصهيونية في جوهرها رؤية جيتوية وإدراكها للواقع جيتوي، ويمكن أن نلخص بعض نقاط التشابه بين الصهيونية والرؤية الجيتوية والوضع الجيتوي كما يلي:

أ) كان سكان الجيتو ينظرون للعالم الخارجي نظرة شك عميقة تستند إلى الثنائية الحادة التي تسم رؤية الجماعات الوظيفية للعالم. والصهيونية تتبنى هذه النظرة، فهي تنطلق من ثنائية اليهود والأغيار والتي تتبدى في نظرية الأمن الإسرائيلية، كما تتبدى في كل الفكر الاستراتيجي الإسرائيلي الذي يصدر عن هذا الشك العميق في الأغيار (الذي يمثلهم العرب في الخريطة الإدراكية الصهيونية).

ب) ورثت إسرائيل دور الجيتو في منطقة الشرق الأوسط،

فالجيتو لم يكن منتجاً من الناحية الاقتصادية، وإنما كان يقدم دوراً وحسب، فقد كان المكان الذي تقيم فيه الجماعة الوظيفية اليهودية التي كانت تقوم بدور الوسيط. وإسرائيل تلعب الدور نفسه، فهي دولة وظيفية تلعب دور الوسيط بين الدول الإمبريالية والعالم العربي، ووظيفتها هي تأديب العرب لحساب العالم الغربي نظير أن يقوم الغرب بحمايتها.

جـ) لم يكن المرابي اليهودي يستغل الفلاحين وحسب وإنما كان يهدد الأساس المادي لوجودهم، إذ كان ينزع ملكية الفلاحين بعد دورة الإقراض الطويلة. وقد بينا من قبل أن الاستعمار الاستيطاني الصهيوني الإحلالي لا يختلف كثيراً عن ذلك، فقد استولى على الأساس الإنتاجي للشعب العربي في فلسطين.

د) إذا كان الجيتو يتواجد في هامش المجتمعات الغربية، فإن الدولة الصهيونية تصر على أن تكون في الشرق الأوسط "جغرافياً" دون أن تنتمي إليه "حضارياً"، ولذلك فهي توجد أيضاً على هامشه.

هـ) وثمة جوانب جيتوية أخرى عديدة في الدولة والرؤية الصهيونية، مثل اعتماد الدولة الصهيونية على دولة عظمى

لحمايتها وتمويلها، ومثل إيمان الصهاينة بأن كل شيء يُباع ويُشترى فيقترحون دفع التعويضات للفلسطينيين حتى ينسوا وطنهم، ويدفعون الحوافز والرشاوى لليهود السوفيت حتى يهاجروا إلى أرض الميعاد.

كل هذه العناصر تبين أن الصهيونية لم تحدِّث اليهود في الواقع وإنما نقلتهم إلى الشرق العربي ليحتفظوا بالمكونات الأساسية للجيتو وللرؤية الجيتوية في شكل دولة وظيفية حديثة أسست للدفاع عن مصالح الغرب في المنطقة نظير أن يقوم على حمايتها، فهي دولة لا تختلف في كثير من سماتها عن الجماعات الوظيفية اليهودية. وكما نعرف من دراستنا للتاريخ الغربي، فقدت هذه الجماعات وظيفتها، وأصبحت طفيلية وعالة على المجتمعات التي تعيش بين ظهرانيها، فتحولت إلى "شعب عضوي منبوذ" كان لابد وأن يختفي إما عن طريق الدمج أو الطرد أو (في الحالة النازية) الإبادة!

الهوامش :

١ - Kenneth Neil Cameron, Humanity and Society: A World History (Bloomington; Indiana

Univ. Press 1973), Chap XI.

٢ - كامل زهيري (مشرفاً)، موسوعة الهلال الاشتراكية (القاهرة، دار الهلال، ١٩٧٠ "إقطاع".

٣- إبراهيم ليون، المفهوم المادي للمسألة اليهودية، ترجمة وتقديم عماد نويهض (بيروت، دار الطليعة)، ١٩٦٩، ص. ٧٨

٤ - عبد الوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية: رؤية نقدية (القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، ١٩٧٥) "المسألة اليهودية".

٥ - بديعة أمين، المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية (بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٤)، ص. ٦١

٦- بديعة أمين، المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية، ص٦٣-. ٦٤

٧ - Solomon Grayzel. A History of the Jews from the Badylonian Exile to the Present 5728-1968 (New York: The New American Library. 1968), p. 390.

٨ - إبراهام ليون، المفهوم المادي للمسألة اليهودية، ص. ٧٥

٩ - كامل زهيري (مشرفاً)، موسوعة الهلال الاشتراكية "إمبريالية".

١٠ - جانسن، الصهيونية وإسرائيل وآسيا، ترجمة راشد حميد (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث ١٩٧٢)، ص٢٣-, ٢٤

١١ - Rabbi Elmer Berger. "The Real Issue in the Arab Israeli- Zionist Contlict," in Garry Smith (ED,), Zioinism: The Dream and the Reality (New York: Barnes and Noble. 1974), p. 231.

12- Philip Sigal "Retlections on Jewish Nationalism." Issues, Vol. XV. (Fall. 1961), p.20.

١٣ - مال حمدان، استراتيجية الاستعمار والتحرير، القاهرة: دار الهلال (بدون تاريخ) ص١٥٠-, ١٥١

١٤- د. جانسن، الصهيونية وإسرائيل وآسيا، ص, ٧٢

١٥- David Ben Gurion. Rebirth and Destiny of Israel (New York: Philosophical Library, 1954), p. 9.

١٦ - الفكرة الصهيونية، ص, ٩١

١٧ – المرجع نفسه، ص, ٩٤

١٨ – المرجع نفسه، ص, ٩٢

١٩ – Oskar K. Rabionowicz. "Herzl and England." Herzl Year Book, Vol. III, p. 45.

٢٠ – إميل توما، جذور القضية الفلسطينية، ص, ٥٢

٢١ – الفكرة الصهيونية، ص, ١١٨

٢٢ – إميل توما، جذور القضية الفلسطينية، ص, ٥٢

٢٣ – Walter Laqueur, A History of Zionism (New York: Holt. Rinehart & Winston. 1972), p. 108.

24- Ahmed El.Kodsy and Eli Lobel, The Arab World and Israel (New York: Monthly Review Press. 1970), p. 116.

٢٥ – كرة الصهيونية، ص, ٤١

٢٦ – المرجع نفسه، ص, ٣٦

٢٧ – Diaries, Vol. I. see entry dated June 12. 1893, p. 80-90. and again on the same day, p.98.

28- Cited in Richard Stevens, "Settler States and

Western Response". In Abden Jabra and Janice Terry. (Eds.), The Arab World: From Nationalism to Revolution (Wilmette. Ill Medina Univ. Press 1971), p. 170.

29- Erskine Childers, "The Wordless Wish: Fro Citizens to Refugeed" in: Ibrahim Abu Lughod (ed.) The Transformation of Palestine: Essays on the Origin and Development of the Arab Israeli Conflict (Evanston, III: Northwestern Univ. Press 1971), p. 171.

30- Machover, "rely to Sol Sten" Israca- January 5. 1973. pp. 27-28.

31- Laqueur, A History of Zionism, p. 231.

32- El-Kodsy and Lobel. The Arab World and Israel, p.199.

33- Karl Kautsky, Are the Jews a Race? (New York: International Publishers. 1963), p. 212.

34- Diaries, Vol. IV. p.1309.

35- Ibid., p. 1360.

36- Address at the Albert Hall. London. July 16. 1920. Max Nordau, Max Nordau to His People: A Summons and a Challenge (New York: Scopus Publishing Society, 1941), p. 209.

37- Diaries, Vol. IV. p.1367.

38- Cited in Ben Herman. "Zionism and the Lion." In Hall Draper4 (Ed.), Zionism, Israel and the Arabs (Berkely, Calif: Independent Socialist Clippingbooks, 1967). P. 27.

٣٩ – الفكرة الصهيونية، ص، ١٥١

٤٠ – Haim Weizman, Trial and Error: The Autobiography of Haim Weizman (New York: Harper, 1949), p. 179.

41- Ibid., p. 205.

42- Richard Stevens, "Settler States and Western Response". In Jabra and Terry, The Arab

World, pp.167-168.

43- International Encyclopedia of Social Sciences, Vol XII. "Race Relations".

44- Philip D. Curtin (Ed.) Imperialism (New York: Walker and Co. 1971), p. XI.

45- Ibid., p. 205.

46- New Encyeloperlia Britannica, Vol. XV. "Racism".

47- Trial of the Melor War Criminals Before the International Military Tribunal: Nuremberg, 14 November, 1945- 10 October, 1946 (Nuremberg. Germany: 1947). Vol. XI. P. 450.

48- Philip D. Curtin (Ed.) Imperialism, p. XVI.

49- Ibid., p. XVII.

50- Ibid., p. XVIII.

51- Desmond Stewart, Theodore Herzl (Garden City. N. Y., Doubledy, 1974), p. 1920

52- Arthur Ruppin, The Jews Today (London:

G. Bell & Sons. 1913), pp. 213-214.

53- Diaries, Vol. IV. p.1309.

54- Cited by George Jabbour, Settler Colonialism in Southera Africa and the Middle East, (Beirut: Palestine Laberation Oraganization Research Center, 1970), p. 28.

58- Ibid., p. II.

59- Jacob Bernard Agus, The Meaning of Jewish History (London: Abelard Schuman, 1963), Vol. II. P. 425.

60- Stewart, Theodore Herzl, p. 215.

انظر "الأيديولوجية الصهيونية: دراسة حالة في علم الاجتماع المعرفة" سلسلة عالم المعرفة، حيث يوجد فصل كامل عن هذا الموضوع ومعالجة مستفيضة لبيعض الموضوعات التي وردت في هذا المقال.

٦١- Yehezkel Kautmam, "The Ruin of the Soul". In Michael Selzer, Zionism Reconsidered, p. 17.

٦٢ - الفكرة الصهيونية، ص, ٢٠٠

٦٣- المرجع نفسه، ص, ٢٠٩

٦٤- المرجع نفسه، ص٨٢-, ٨٤

٦٥- Cited in M. Selzer The Acyanization of the Jewish State (New York: Black Star, 1968), p. 35.

66- Kaufman in Slzer, Zionism Reconsidered, p. 121, p.m.7.

67- Salo W. Baron and Arcadis Kohn. Et al. Economic History of the Jews, ed. Nachum Gross (New York: Schocken Books, 1975).

وانظر أيضاً أبراهام ليون: المسألة اليهودية.

٦٨- هذا الجزء منقول بشيء من التصرف من موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، للمؤلف، وقد اعتمدت الموسوعة على تواريخ اليهود المختلفة.

الفصل الثانى
الصهيونية والرومانسية والنيتشوية

ثمة أنساق فكرية عديدة مرتبطة بالثورة الرأسمالية ساهمت في تشكيل الرؤية الصهيونية للعالم. ومن أهم هذه الأفكار الرؤية الداروينية التي نعدها البنية الفكرية التحتية للحداثة الغربية، وهذا ما أدركه الفيلسوف الألماني نيتشه. وسنتناول في هذا الفصل علاقة كل من الرومانسية والنيتشوية بالصهيونية وكيف حددتا الأطر الإدراكية للصهاينة.

الرومانسية

يشكل الفكر الرومانسي الإطار المرجعي العام للفكر الغربي في القرن التاسع عشر. فبعد أن ساد فكر حركة التنوير في أوربا في القرن الثامن عشر، وهو فكر أكد أهمية العقلانية ومقدرة العقل على اكتشاف أبعاد الواقع والتحكم فيه، كما أكد إمكانية أن يقوم الإنسان العاقل ليس فقط بتنظيم بيئته وإنما أيضاً بكبح جماح عواطفه والسيطرة عليها، ظهر الفكر الرومانسي كرد فعل لهذا الفكر وكتعبير عن تغيرات بنيوية عميقة في المجتمع الغربي. والرومانسية

اصطلاح شامل لعدد كبير من الاتجاهات تتباين في أوقاتها وأماكنها ودعاتها(١). والواقع أن تعريف كلمة "الرومانسية" يقع خارج نطاق هذا البحث، ولكننا إذا نظرنا إلى دلالة هذا المصطلح في مجال السياسة لوجدنا أنه يُستخدم للإشارة إلى بعض المواقف السياسية التي يمكن اعتبارها تقدمية وثورية، كما يستخدم أيضاً للإشارة إلى مواقف أخرى محافظة بل رجعية. وبدلاً من أن نأخذ جانب هذا الاستخدام ضد ذاك، وكلاهما في رأينا مشروع، فإننا سنكتفي برصد بعض جوانب الحركة الصهيونية يمكن تصنيفها على أنها "رومانسية" أو يمكن رؤية أثر الفكر الرومانسي عليها.

ومن الأفكار الرومانسية الأساسية، فكرة الهرب من عالم مركب إلى عالم بسيط، من عالم فاسد إلى عالم خير، من عالم المدنية والصناعة والتلوث والفساد إلى عالم القرية والطبيعة والنقاء والطهر. و"العودة"، في الفكر الرومانسي، تأخذ أشكالاً عدة، فهناك العودة للطبيعة التي تظهر في الأدب الرومانسي، وهناك العودة للتقاليد القديمة أو العودة للجذور أو العودة إلى العالم ما قبل الصناعي. ومثل هذه العودة، العودة إلى العالم ما قبل الصناعي، عادةً ما تكتسب مضموناً رجعياً محافظاً

وإن لم تكن بالضرورة كذلك.

وفي محاولة للربط بين الحركة الصهيونية وحركة العودة إلى البساطة الأولى، يقول المفكر الصهيوني ميخا جوزيف بيرديشفسكي: "إن الكون يدل على عظمة الله، والطبيعة تروي صنع يديه، لأن الطبيعة هي أم الحياة ومصدر كل الحياة، إنها منبع كل شيء... هي منبع كل ما يحيا وروحه(٢)... وبعدئذٍ غنت إسرائيل أغنية الكون والطبيعة، أغنية السماء والأرض وما عليها، أغنية البحر وما فيه، أغنية التلال والمرتفعات، أغنية الأشجار والأعشاب، أغنية البحار والجداول. وبعد ذلك جلس كل إسرائيلي تحت كرمته أو تينته، ثم نبتت البراعم على التينة، وامتد سحر التلال الخضراء إلى البعيد"(٣). هذه هي إسرائيل الأصلية في تصور بيرديشفسكي، ولكن حدث سقوط في التاريخ إذ قام جيل إثر جيل "يحتقر الطبيعة ويعتقد أن أعاجيب الله ليست سوى تفاهات نافلة"(٤). ولذا، فإن طريق الخلاص واضح جلي "ردوا إلينا شجراتنا الجميلة وعقولنا الجميلة! ردوا إلينا الكون"(٥).

وهذه النزعة نفسها نحو العودة إلى البساطة الأولى تظهر

في قصيدة الشاعر الصهيوني شاؤول تشرنحوفسكي(٦):

فلنكن مثل الأطفال الصغار،

مثل قطرة في الفيضان، أو تنهدات البروج،

لا بحث، لا غاية، ولا قانون، ولا طغيان،

مثلما كنا في الأيام القديمة، قبل أن نتحكم

في الأرض والضياء، قبل أن نصيب الحكمة،

وقبل أن يرهقنا الأنبياء.

إن العودة للطبيعة هنا هي عودة إلى عالم لا حدود له ولا قانون فيه (إلا قانون الغابة)، وعادةً ما تتحول جنة روسو الفردوسية إلى غابة داروين المتوحشة، وهي عودة إلى ما قبل التاريخ اليهودي وقبل إرسال الأنبياء إلى بني إسرائيل، وما كانوا يحملون من أخلاقيات إنسانية!

وأسطورة "العودة الرومانسية"، في سياقها الثوري، هي صورة مجازية لتحطيم الحدود وعودة للأصول الإنسانية التي تضم كل البشر، أي أنها دعوة للمساواة والإخاء. ولكن أسطورة العودة عند الصهاينة تتبنى المفهوم الرومانسي لتبرر تمركز الهوية الصهيونية حول نفسها.

ولعل قصيدة تشرنحوفسكي الشهيرة "أمام تمثال أبولو"(٧)

تبين المضمون السياسي العنصري لأسطورة العودة عند الصهاينة. تبدأ القصيدة بالتغني بأبولو إله الإغريق القدامى، فهو "جميل كالربيع، قهر الشمس، وعرف أسرار الحياة وفنونها الكونية". ويذهب تشرنحوفسكي إليه باعتباره اليهودي الذي سئم تاريخه الطويل فيقول:

أسجد وأنحني أمام الخير والسمو
لكل ما هو مجيد في هذا العالم
لكل ما هو رائع بين المخلوقات
لكل ما هو متسام في ديانات الكون البدائية.

ولكننا نكتشف بعد قليل أن هذا اليهودي المتمرد الذي يعود إلى الطبيعة والبراءة يعود في واقع الأمر إلى "رب البرية المليئة بالأسرار، رب الرجال الذين غزوا أرض كنعان العاصفة". في هذا البيت الأخير، فإننا لا نسمع حفيف أجنحة الطيور ولا نرى العاصفة تتجمع لتطهر الأرض من الأوراق وإنما نسمع في الواقع صليل السيوف التي ذبحت الأبرياء في دير ياسين وقانا وجنين.

والغنائية الرقيقة نفسها، والحديث نفسه عن "العودة" الذي يخبئ حداً عارماً من العنف، يظهر في خطاب مارتن بوبر إلى

غـاندي حـينمـا يقـول له "إن هذه الأرض تعـتـرف بنا لأنهـا بواسطتنـا تصبح مثمرة، ولأنهـا تحمل ثمارنا فإنهـا تعترف بنا"(٨). ثم يدّعي بوبر أن الصـهـاينة إنما عـادوا لزراعـة الأرض ولتـعليم إخـوانهم العـرب فنون الزراعة! وفـي الخطاب نفسه، يشكك المفكر الصـهيوني الصوفي في حق العرب في ملكية فلسطين، فهم قد اكتسبوا هذا الحق "عن طريق الغزو" ثم يضيف: "الأرض المفتوحة قد أعيدت إلى الفاتح الذي أقام عليها والله يتدبر ما سيفعل بها"(٩). وبالتالي، حينما يعود المستوطنون الصـهاينة، يمكن فتح الملفات مرة أخرى. إن صورة العـودة الرومـانسـيـة المجـازية تحـولت إلى برنـامج لاغتصـاب الأرض، بعد أن صفيت الصـورة من مضـمونـها الثوري ومن صفتها المجازية وحملت مضموناً حرفياً رجعياً (وهذه سـمـة أسـاسـيـة في الفكر الصـهـيـوني، فكل الصـور المجازية "الدينية" مثل فكرة "العودة إلى صهيون" تفسر بشكل حرفي حتى يمكن تحويلها إلى برنامج سياسي. وبدلاً من حب صـهيون الديني التقليدي الذي لا يخـتلف في جوهره عن حب المسلم لمكة أو المدينة، يتـحـول هذا الحب إلى ارتبـاط "عـرقي" وقومي وحتمي بفلسطين، الأمر الذي يبرر غزوها والاستيلاء

عليها، وليس مجرد السكنى فيها بشكل مؤقت للتعبد والتبرك).

ومن الأفكار الأساسية الأخرى في الفكر الرومانسي، فكرة الوحدة العضوية بين كل الأشياء والظواهر. وهذه الفكرة المحورية هي أيضاً فكرة أساسية في التفكير (المحافظ والرجعي) الغربي. فالفكر الرجعي الغربي يرى أن الإنسان لا وجود ولا هوية له خارج تراثه، ذلك لأن ارتباط الإنسان بتراثه ارتباط عضوي عميق. كما أن أفراد المجتمع الواحد لا يدخلون في علاقات مركبة وإنما يدخلون أساساً في علاقات عضوية تتخطى الإرادات الفردية. وبحسب هذه الرؤية، يصبح مواطنوا أي دولة مجرد تعبير عن إرادة هذه الدولة وعن روح القومية التي ينتمون إليها. ومن الواضح أن التفكير العضوي ينكر فكرة الصراع أو أنه ينظر إليها على أنها فكرة هامشية. كما أن هذا التفكير ينحو نحو الإطلاق لأن الكيان العضوي كيان مكتف بذاته، تماماً مثل الزهرة التي لا تشير إلى شيء خارجها.

والفكر الصهيوني (مثل الفكر النازي) تفكير عضوي عنصري متطرف، فالتصور الصهيوني لعلاقة اليهودي بأرضه

تصور عضوي ضمني إن لم يكن بشكل صريح. فاليهودي الذي لا يعيش في أرض الميعاد يعيشْ منفياً "منقسماً على نفسه، موزع الولاء، ممزقاً"(١٠)، فحالة الكمال والتكامل العضوية لا تتم إلا بعد العودة. وقد وصف ج.ل. ماكوهين فيشمان، أول وزير للشئون الدينية في إسرائيل، صلة اليهودي بأرضه بأنها صلة "مباشرة، سماوية وأبدية" لا تشبه صلة الأغيار بها، فهذه الأخيرة صلة "سياسية وعلمانية وخارجية وعرضية ومؤقتة"(١١) (والعلاقة العضوية تتسم دائماً بأنها علاقة داخلية ضرورية وصوفية لأنها تستعصي على الفهم التجريبي العادي). وتبين كلمات الفيلسوف أهارون جوردون أن المصطلح العضوي يختلط بالمصطلح الصوفي داخل عقله الصهيوني حين يقول: "جئت إلى الأرض في منامي، فرأيتها جرداء ومقفرة، وقد أُعطيتْ للغرباء فحاق بها الدمار وشاع فيها فساد الحكم الأجنبي.. والصلة الوحيدة التي تربط روحي بها وتذكرني بأنني ولدها بأنها أمي، هي أن روحي مقفرة مثل روحها"(١٢). إن علاقة اليهودي بالأرض مثل علاقة الابن بأمه، ومن هنا التماثل بينهما. وكل هذه الشواهد تشير إلى أن العلاقة بينهما عضوية وأنهما ينتميان

إلى الكل اليهودي المطلق نفسه. وهذا ما يسمى في الفكر الغربي "الشعب العضوي".

و"الشعب العضوي" هو الشعب الذي يترابط أعضاؤه ترابُط الأجزاء في الكائن العضوي الواحد والذي تربطه رابطة عضوية بأرضه وتراثه. ويُشار إلى الفكر القومي، الذي يَصدُر عن مفهوم الشعب باعتباره الفولك أو الكيان العضوي المتماسك، بعبارة "الفكر القومي العضوي"، ويُقال له أيضاً "القومية العضوية". وعادةً ما تُوضَع الوحدة العضوية مقابل الترابط الآلي.

ويرتبط بهذا المفهوم مفهوم آخر وهو "الشعب العضوي المنبوذ" وهو مصطلح نستخدمه لنصف موقف الحضارة الغربية من أعضاء الجماعات اليهودية. فالجماعات اليهودية كانت تشكل في معظم الأحيان جماعة وظيفية متماسكة عضوياً (مكتفية بذاتها) ولكنها فقدت وظيفتها فتم نبذها، فأصبحت شعباً عضوياً منبوذاً. وهذا المفهوم يشكل حجر الزاوية في التفاهم بين الصهاينة وأعداء اليهود، فهم جميعاً يرون أن اليهود شعبٌ عضويٌ واحد، لا ينتمي إلى الغرب أو إلى أي وطن لأنه يرتبط عضوياً بإرتس يسرائيل. والشعب

العضوي، سواء كان منبوذاً أو غير منبوذ، مكتفٍ بذاته ومرجعية ذاته، مقدَّس ومطلق، تنبع قداسته ومطلقيته من داخله، فهو موضع الحلول والكمون.

ولتفسير الشعار الصهيوني "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" في ضوء الصورة المجازية العضوية، يمكننا أن نقول إنه إذا كانت العلاقة بين الشعب اليهودي والأرض علاقة عضوية مطلقة فإن علاقة الأغيار بهذه الأرض علاقة عارضة وتصبح الأرض وكأنها لا شعب عليها، لأن الشعب الوحيد الذي ينتمي لهذه الأرض والذي يرتبط بها برباط عضوي هو الفولك اليهودي أو الشعب العضوي اليهودي. لذا يمكن ترجمة الشعار إلى ما يلي: "أرض]شعب عضوي [بلا شعب، لشعب]عضوي [بلا أرض". وكما هو واضح، فإن الدائرية اللفظية للشعار هي انعكاس لتماسك الرؤية ودائريتها.

السوبر أمة

يُعد الفكر الرومانسي أحد أهم مصادر الرؤية الصهيونية للواقع. وقد تبدى هذا الفكر في أشكال مختلفة، فهو تارة رؤية ثورية تطالب بتغيير الواقع، وهو تارةً أخرى رؤية رجعية تحاول الحفاظ على المجتمع باعتبار أنه نمو عضوي. ومن أهم

تبديات الفكر الرومانسي الفلسفة الداروينية. فهي فلسفة تطالب أيضاً بالعودة للطبيعة وباتخاذها معياراً وحيداً يُقاس به الإنسان نظمه الأخلاقية والمعرفية. وجوهر المنظومة الداروينية أن العالم في حالة تغير مستمر وتطور إلى الأرقى، وأن آلية التغير هي الصراع، وهو صراع يحسم لصالح الأقوى، ولذا فإن البقاء ليس دائماً للأصلح أخلاقياً وإنما للأقوى مادياً. وقد أسلفنا القول إن الفلسفة الداروينية تشكل البنية التحتية للحداثة الغربية حتى أننا نسميها "الحداثة الداروينية".

والفكر الصهيوني، مثله مثل الفكر النازي، ترجمة للرؤية الداروينية، فالصهاينة قاموا بغزو فلسطين باسم حقوقهم اليهودية المطلقة التي تجبُّ حقوق الآخرين، كما أنهم جاءوا إلى فلسطين ممثلين للحضارة الأوربية يحملون عبء الرجل الأبيض. وهم، نظراً لقوتهم العسكرية، يملكون مقدرة أعلى على البقاء، أي أنهم جاءوا من الغرب مسلحين بمدفعية أيديولوجية وعسكرية داروينية علمانية ثقيلة، وقاموا بتسوية الأمور من خلال الموقع الدارويني فذبحوا الفلسطينيين وهدموا قراهم واستولوا على أراضيهم، وهي أمور شرعية تماماً من

منظور دارويني علماني، بل وواجبة.

والنيتشوية هي الأخرى أحد التبديات المتطرفة والمتبلورة للرؤية الرومانسية، أو فلنقل إنها رومانسية عصر الإمبريالية والعنصرية، فهي التعبير الفلسفي عن الرؤية الداروينية للواقع. ونحن نحب أن نميز هنا بين كتابات نيتشه والنيتشوية. فكتابات نيتشه مسألة مركبة متداخلة متناقضة. ولكن ما حدث أنه تم عزل بعض الأفكار الأساسية من منظومة نيتشه المركبة وإشاعتها. وهذه الأفكار، وليس كتابات نيتشه، هي التي ساهمت في تحديد إدراك الكثير من الأوربيين في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، وكذلك في تحديد إدراك المفكرين الصهاينة. لكن هذا لا يعني أن مثل هذه الأفكار النيتشوية ليس لها وجود في كتابات نيتشه، فهي موجودة ومتواترة، ولكن النص الفلسفي عادةً ما يكون أكثر تركيباً من الرؤية التي يفرزها.

والنيتشوية هي الفلسفة الفردية والعدمية الغربية التي تعبر خير تعبير عن الأوضاع الحضارية والاقتصادية للمجتمع الغربي في ذروة الثورة الرأسمالية والتوسع الإمبريالي، ولذا فإننا بدلاً من التعامل مع الداروينية والصهيونية سنكتفي

بالحديث عن النيتشوية، خاصةً وأن كثيراً من المفكرين الصهاينة تأثروا بالنيتشوية وكان تأثرهم بالداروينية من خلال قراءتهم للنيتشوية. فالصهيونية نشأت في أحضان الفلسفة الألمانية المثالية التي تقدس روح الشعب (الفولك) وتقدس حقوقه المقدسة (المطلقة)، وتؤكد على فكرة علاقة التربة أو الأرض بالدم. وكان تيودور هرتزل وصديقه ماكس نوردو، مؤسس المنظمة الصهيونية، يكتبان بالألمانية ويتحدثان بها، وكانا ينتميان للتقاليد الحضارية الألمانية ويكنان لها الإعجاب. أما الزعماء الصهاينة من شرق أوربا فكانوا يتحدثون اليديشية (وهي رطانة ألمانية دخلت عليها كلمات عبرية)، ولذا فإن كثيرين منهم كانوا يدينون بالولاء لألمانيا وللحضارة الألمانية. يظهر هذا الإعجاب بالحضارة الألمانية في كتابات هرتزل. كما يظهر في توجهه إلى قيصر ألمانيا كي يحصلعلى تأييده للمشروع الصهيوني. بل إن التصور المبدئي للدولة الصهيونية كان تأسيس مستعمرة تبسط "ألمانيا العظيمة" حمايتها عليها. ولعل الولاء الصهيوني للحضارة الألمانية قد تجلى في المستوطن الصهيوني فيما يسمى "حرب اللغة"، حيث حاول بعض المستوطنين أن يجعلوا اللغة الألمانية اللغة

الرسمية للدولة الصهيونية بدلاً من العبرية. ومما له دلالة أيضاً في هذا الصدد أن لغة المؤتمرات الصهيونية الأولى كانت الألمانية.

ولم يكن الإعجاب من جانب واحد، فالعسكريون الألمان كانوا يعرفون أن مثل هذه المستعمرة الصهيونية الألمانية يمكنها أن تلعب دوراً فعالاً في خدمة المصالح الاستعمارية الألمانية، كما يمكنها أن تستوعب الفائض السكاني اليهودي الذي كان قد بدأ يتسلل إلى ألمانيا من شرق أوربا. فكان ويلهلم الثاني، قيصر ألمانيا، يدرك إمكانية الاستفادة من "قوة رأس المال اليهودي العالمي" ومن "عرفان اليهود بالجميل لألمانيا". وكان بسمارك أيضاً يفكر في توطين اليهود في "المنطقة المحاذية لخط بغداد - برلين، حتى يصبحوا أقلية تجارية تصطدم بالسكان المحليين، فتعتمد على ألمانيا لحمايتها، فيكونون خير ممثل للاستعمار الألماني هناك". وفيما بعد، أبدى النازيون اهتماماً كبيراً بالمشروع الصهيوني، وتعاونوا في وضع هذا المخطط موضع التنفيذ، بل ودرسوا ثلاث خطط أخرى لتوطين اليهود في سوريا وإكوادور ومدغشقر.

لم يكن من المستغرب، إذن، أن يتأثر المفكرون الصهاينة بفكر نيتشه بشكل مباشر كما هو الحال مع برديشفسكي أو مارتن بوبر أو آحاد هعام. كما أن العديد من المفكرين الصهاينة تأثروا بفلسفة نيتشه بشكل غير مباشر عن طريق تشرب الموضوعات الرومانتيكية النيتشوية المختلفة التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من نظرة الإنسان الأوربي للكون في هذه الفترة.

وسنقوم هنا باستعراض مقال آحاد هعام "إعادة تقييم القيم Transvaluation of Values أو (إعادة تجاوز القيم)" (١٣) (وعنوان المقال ذاته اصطلاح نيتشوي)، وذلك بتلخيصه تلخيصاً مفصلاً نظراً لأهميته وتفرده، فقد كُتب هذا المقال قبل ظهور النازية، وقبل أن يُساق اليهود لأفران الغاز تحت شعارات نازية نيتشوية شتى، مما اضطر الصهيونية إلى التخفيف من حدة مصطلحها النيتشوي. يلاحظ آحاد هعام أن من أهم المفاهيم التي سادت بين اليهود في عصره المفهوم النيتشوي الخاص "بإعادة تقييم القيم" أو تجاوزها. وقد برر الشبان اليهود الذين اعتنقوا هذه الفكرة تحولهم عن دينهم إلى الفلسفة الجديدة على أساس أن الدين اليهودي

منذ أيام الأنبياء حتى العصر الحاضر لم يكن سوى خط مستمر لأن اليهودية أعلت من شأن المجردات وأهملت القوة الجسدية، وفضلت الكتاب على السيف والظل على الحياة، وتحول اليهودي إلى شيء وثيق الصلة بالقانون المجرد، إلى شيء ليس له إرادة مستقلة. ولهذا كان الشباب اليهودي يطالب بإعادة تقييم القيم أو تجاوزها وبضرورة إطلاق العنان للروح اليهودية.

ويلخص آحاد هعام فلسفة نيتشه على هذا النحو: من واجب الإنسان أن يطور كل مقدراته التي منحته إياه الطبيعة دون توقف، إلى أن يحقق كل إمكانياته، شأنه في هذا شأن كل المخلوقات الأخرى حتى يصل إلى الذروة المتاحة له، ولن يتم هذا إلا من خلال "الصراع من أجل البقاء" - صراع يفوز فيه القوي وحسب. وهذا التصور الدارويني يذهب إلى أن القوانين الأخلاقية خطأ أعظم وعقبة كؤود.

ويشير آحاد هعام إلى إيمان نيتشه ويقول: على عكس التصورات الأخلاقية الشائعة، ليس كل ما يعود بالخير على البشر ويقلل من آلامهم خيراً، وليس كل ما يسبب الآلام للبشر شراً. بل إن تبني مثل هذه القوانين الأخلاقية العتيقة

هو الذي قلب الدنيا رأساً على عقب، لأن الأقوياء الذين في مقدورهم أن يرقوا بالجنس البشري اضطروا للخضوع للضعفاء والتخلي عن واجبهم نحو تنمية قدراتهم، الأمر الذي أدى إلى توقف الجنس البشري ككل عن الرقي.

ويعيد نيتشه تعريف الأخلاق بتقرير أن الرجل الخير هو الرجل القوي الذي عنده المقدرة على النمو وعلى إكمال حياته والذي يحاول أن يكون سيد عالمه دون أن يأخذ في الاعتبار أغلبية الناس من المخلوقات الدنيئة، فالسوبرمان هو هدف الوجود الإنساني ولم يخلق بقية البشر إلا ليكونوا له بمثابة السلم! والسوبرمان ليس ابن الطبيعة البار الذي يعيش في سلام وطمأنينة، فهو واجبه أن ينمو ويحقق إمكانياته ويرتقي دونما شفقة علىَ نفسه أو على الآخرين. يقول زرادشت: "أتحسبون أنني آخذ السعادة في الاعتبار؟ كلا، فأنا لا أفكر إلا في عملي". إن مدى رقي الحضارة لا يقاس بمدى سعادة الأفراد، وإنما بمدى إمكانية النموذج الفذ في الارتفاع على آلامه. وبذا، فإن نيتشه يكون قد غيَّر من الأساس الذي تبنى عليه الأخلاق، فهدف القيم الأخلاقية لم يعد تحقيق السعادة

للأفراد وإنما هو النمو الحر لفردية المختارين من البشر وارتفاع النموذج الفذ إلى مستوى أعلى من عامة الناس. وهذا هو ما يسمّى "إعادة تقييم القيم" أو تجاوز الأساس الفلسفي للأخلاقيات السائدة.

بعد أن يلخص أفكار نيتشه، يقرر آحاد هعام أن اليهودي الذي يقتبس فكراً أوربياً مثل فكر نيتشه عليه أن يلائمه مع التراث اليهودي. ولتحقيق هذا الغرض، يقوم آحاد هعام بتقسيم فكر نيتشه إلى قسمين: قسم عام يختص بكل البشر، وقسم خاص مقصور على الألمان. وعلى اليهود، في رأيه، أن يتمثلوا في تراثهم القسم الأول فقط من فكر نيتشه، وبذا فهم يقتبسون ما هو جديد دون أن يفقدوا هويتهم اليهودية.

ولكن آحاد هعام يصل إلى حقيقة باهرة مفادها أن الجزء العام في فكر نيتشه لا يتعارض بتاتاً مع اليهودية وإنما يقويها ويغذيها. وقد عرَّف آحاد هعام الجزء العام في فكر نيتشه على أنه فكرة "إعادة تقييم القيم" أو تجاوزها التي أسلفنا الإشارة إليها. ويرى الفيلسوف الصهيوني أن هذه مقولة لا يمكن أن تخضع للمنطق العادي، ولا يمكن أن تناقش بمقولات أخرى، كما لا يمكن الحكم عليها بالمعايير الموضوعية

السائدة. ولكنه، مع هذا، يرى أنه يمكننا أن نعرف بوضوح وجلاء ملامح "النموذج الأعلى المطلوب" عن طريق دراسة الأثر الذي يتركه هذا السوبرمان على العالم. ويتوجه آحاد هعام لتحليل النموذج الذي يقترحه نيتشه للسوبرمان، فإذا هو بوحش جميل أشقر قوي، ويتصرف حسبما تمليه إرادته. ولكن من الواضح أن هذا النمــوذج ليس النتــاج المنطقي الحتمي لمقولات نيتشه الفلسفية، فالذي يتحدث الآن ليس نيتشه الفيلسوف وإنما مجرد فرد آري يعبد القوة والجمال. ولذا، فإن آحاد هعام يرى أنه يمكن افتراض أن نيتشه لو كان يهودياً لأسبغ على السوبرمان صفات يهودية، ولهذا فإنه يرفض الجانب الآري في فكر نيتشه ويركز على الجانب العام وحده باعتبار أن الجانب الآري ليس مرتبطاً عضوياً بنسق نيتشه الفلسفي. وبعد أن يعرف الفيلسوف الصهيوني القضية على هذا النحو، يقر أن العارفين باليهودية سيكتشفون على التو أنه لا توجد أية حاجة لخلق "نيتشوية يهودية" لأن الجزء العام من الفلسفة النيتشوية موجود في اليهودية ذاتها منذ قرون عدة. ويضيف آحاد هعام أنه من الممكن أن نستميح لنيتشه العذر لفشله في فهم اليهودية ولخلطه إياها بعقيدة

أخرى نبعت منها (يعني المسيحية!) وسارت في طريق آخر. ولكن كان يجب على حوارييه من اليهود أن يعرفوا الجوهر النيتشوي لليهودية، فهي ديانة لم تستند أبداً لفكرة الرحمة وحدها، لا ولم تلزم السوبرمان اليهودي أبداً بالخضوع للجماهير كما لو كان الهدف الأساسي من وجوده هو مجرد زيادة سعادة الأغلبية.

ويشير آحاد هعام إلى مفهوم "التساديك" الرجل التقي في التلمود والمدراش، فهو رجل "لم يخلق من أجل الآخرين، بل إن العالم كله قد خلق من أجله" فهو نهاية في حد ذاته. ويؤكد الفيلسوف الصهيوني أن مثل هذه الأفكار ليست مجرد تعبير عن رأي فردي وإنما هي مبادئ أخلاقية يقبلها جميع اليهود، بل إنه بعد قليل من التأمل يجد أن هذه الفكرة هي "أساس الوعي القومي اليهودي"!

وبعد تأكيد الأساس النيتشوي لليهودية، يتجه آحاد هعام لقضية التربية القومية، فيشير إلى أن نيتشه يشكو من أنه لا توجد حتى الآن محاولة واعية لتعليم الناس بطريقة تؤدي لظهور السوبرمان، الأمر الذي يعرقل ظهوره. فالإنسان

حيوان اجتماعي، ولذا فإن روح السوبرمان نفسها لا يمكنها أن تتحرر من الجو الأخلاقي الذي تعيش فيه. ويخلص آحاد هعام من هذا التحليل إلى أنه إذا كان الهدف من الحياة هو السوبرمان، فإنه يجب أن نقبل بأن ظهوره رهن بظهور الأمة الممتازة أو "السوبر أمة"، أي أنه ينبغي أن تكون هناك أمة لها من السمات الذاتية ما يجعلها على استعداد للنمو الأخلاقي بالمعنى النيتشوي ولتنظيم حياتها على أساس قانون أخلاقي يعلو على النموذج العادي. إن هذه الأمة هي ولا شك التربة الخصبة التي ينبت فيها السوبرمان.

ثم يشير آحاد هعام إلى أنه لو نظرنا لليهودية من زاوية هذه الفلسفة النخبوية لظهر أن معظم نقائصها، أو تلك النقائص التي يشير إليها الآخرون والتي يحاول علماء اليهود أنفسهم إنكارها، تصبح نقطة قوة ولا تحتاج لإنكار أو اعتذار: فمن المعروف لدى الجميع أن اليهود واعون بأنهم متفوقون أخلاقياً على كل الأمم، وهو وعي يجسد نفسه في فكرة الشعب المختار. والاختيار غير مبني على حكم القوة لأن إسرائيل هي أصغر الأمم، لقد اختار الله إسرائيل كي يعبِّر هذا الشعب بشكل متعين في كل جيل "عن أعلى نموذج

أخلاقي وأن يخضع لنير الواجبات الأخلاقية دون اعتبار الربح أو الخسارة بالنسبة لبقية البشر، بل وللحفاظ على وجود هذا النموذج الراقي".

وهذه الفكرة حسب تصور آحاد هعام تسيطر على الدين اليهودي، ولذلك فاليهود لم يحاولوا التبشير بدينهم لا بسبب الغيرة "كما يدعي الأعداء" ولا التسامح (كما ينادي الاعتذاريون) ولكن لأنهم لا يقبلون خفض مستوى واجبهم (نحو تجسيد النموذج الراقي) بجعله واجب كل البشر، وهم في محاولتهم هذه لن يفرضوا المسئولية على الآخرين ولن يشاركوهم فيها (وهذا هو وصف نيتشه للسوبرمان ووصف آحاد هعام للأمة المختارة).

ويشير آحاد هعام إلى محاولة بعض العلماء اليهود أن يضفوا غلالة من المعاصرة على فكرة الشعب المختار، كأن يحاولوا مصالحتها مع فكرة مساواة الشعوب فيقولون بأن رسالة الشعب المختار هي نشر الخير في كل أنحاء العالم. ولكن آحاد هعام يرفض هذه الرؤية الليبرالية، فهو يصر على أن رسالة الشعب هي بكل بساطة أن يقوم بواجبه دون أي اعتبار للعالم الخارجي: إن تأدية الواجب نهاية في حد ذاتها

وليست وسيلة لإسعاد العالم، وإذا كان اليهود القدامى قد عبَّروا عن الأمل في أن اليهودية سيكون لها أثر طيب على الأمم الأخرى، فهذا مجرد نتيجة وليس هدفاً، إذ يظل الهدف هو الانتماء لمثل أعلى ونموذج متفوق لا ينتمي ولا يشارك فيه الآخرون.

لكن آحاد هعام يلاحظ أن ثمة تبايناً بعد انهيار الجيتو بين الإمكانية (الامتياز والتفوق) والحقيقة (التدني الحضاري). وهنا يزاوج آحاد هعام بين نيتشويته والروح "القومية" الصهيونية، فهو يرى أن اليهود قد فشلوا في تحقيق رسالتهم لأنهم لم يجعلوا من حياتهم تعبيراً حقيقياً عن شخصيتهم المستقلة، وإنما جعلوا منها تعبيراً عن آراء وإرادة الآخرين. فالخروج من الجيتو - في تصوره -هو خروج عن الذات القومية المتميزة. ويتجلى هذا الاغتراب عن الذات في اهتمام الشباب اليهودي بالجانب الآري من فكر نيتشه. ونتيجة لأن الفلسفة الآرية لا يمكن أن تتصالح مع وجهة النظر اليهودية، لذا فإن ثمة تمزقاً في روح هذا الشباب اليهودي، كما أن "إعادة تقييم القيم" أو تجاوزها بالنسبة لهم يعني أن يحل السيف محل الكتاب وأن يحل الوحش الأشقر الجميل محل

الأنبياء. ثم يقول آحاد هعام مستنكراً: كيف يمكن لهؤلاء الصهاينة أن ينتموا لأمة وجدت لتعترض بعنف ودون توقف من أجل حقوق الروح ضد الذراع الطويلة والسيف.. أمة اكتسبت قوتها الروحية من إيمانها الذي لا يتزعزع برسالتها الأخلاقية؟ إن هذا التمزق سيستمر طالما أنهم خارجون عن القيم النيتشوية العامة الموجودة في اليهودية وطالما أنهم يتبعون القيم النيتشوية الآرية الخاصة.

ولنلاحظ هنا أن آحاد هعام لا يعترض على جوهر النيتشوية الذي يرفض فكرة المساواة والتسامح وإنما يعترض على شكلها الآري وحسب، ولذلك فهو يطالب الشباب اليهودي بأن يتبع النيتشوية اليهودية التي تتميز بنفس الإحساس بالتفوق وعدم الاكتراث بالآخرين ولكنها مع هذا تصطبغ بالصبغة القومية اليهودية.

ومع هذا، يتحدث آحاد هعام عن "الأخلاق اليهودية" و"كره العنف" وما شابه: فهل هذا يعدل في شيء من لا أخلاقية "النيتشوية اليهودية"، أو "الصهيونية" كي نتوخى الدقة؟ في تصوري أن هذا الحديث الأخلاقي لا ينتمي إلى بنية الفكر ذاته، فالنيتشوية اليهودية مبنية على فكرة تفوق اليهود

وتعاليهم على البشر. ولذلك، فإن من حق اليهودي أن يعود مثلاً لأرضه المقدسة متى شاء وأن يؤسس فيها مركزاً روحياً إن أراد، وأن يستوطنها ويعمرها أو يخربها حسبما تملي مشيئته ومشيئة السوبر أمة. فإن جاء الفيلسوف النيتشوي الصهيوني بعد هذا وأضاف زخارف "أخلاقية" وأصر على أن تكون الدولة الصهيونية تجسيداً للقيم الأخلاقية النبيلة، فإن الزخارف الأخلاقية ستظل مجرد زخارف والعنف سيكون هو الجوهر والمحك وقانون البنية.

لقد طرح الفيلسوف الصهيوني النيتشوي فكرة صهيون كمركز روحي وعمل كأحد مستشاري وايزمان، بينما كان الأخير يبذل المحاولات مع الحكومة البريطانية للحصول على وعد بلفور، وذهب الكثيرون للاستيطان في فلسطين لتجسيد هذه الرؤى وعلى رأسهم بن جوريون (مؤسس العسكرية الصهيونية، وأحد أخلص تلاميذ آحاد هعام). وقد تناسى هؤلاء المهاجرون الاستيطانيون البشر الذين يقطنون هذه الأرض بالفعل. ولكن، حسب الرؤية النيتشوية، فإن هذا أمر غير مهم، فالسوبرمان والسوبر أمة هما الهدف والغاية ولا يهم مقدار البؤس الذي يحيق بالآخرين. ولتحقيق الرؤى، كان

لابد وأن يسيل الدم العربي على الأيدي اليهودية النيتشوية المتفوقة (السوبر أيدي). وحينما رأى الفيلسوف هذه الدماء، فزع وذعر مما رأى وقال قولته المأثورة "إذا كان هذا هو الماشيح المنتظر فإني لا أود رؤيته" (تماماً مثلما كان يغشى على نيتشه لمجرد رؤيته الدم، وتماماً مثلما بكى هتلر حينما مات كناريه الأصفر الصغير!).

النيتشوية والصهيونية

ليس من قبيل الصدفة، إذن، أن يكون التشابه بين الصهيونية والنيتشوية مدهشاً حقاً. ويمكننا أن نوجز ذلك في النقاط التالية:

١ـ النيتشوية، مثلها مثل الصهيونية، ديانة علمانية ملحدة أو حلولية بدون إله، تعلن موت الإله ("نعم لقد مات الإله وماتت الآلهة جميعاً")(١٤)، أو هي وحدة وجود مادية ترد الكون بأسره إلى مبدأ زمني واحد هو إرادة القوة. وتتبدى إرادة القوة هذه عند نيتشه في الإنسان الأعلى، أما في الإطار الصهيوني فهي إرادة القوة اليهودية التي تحقق بقاء الشعب اليهودي. فبقاء هذا الشعب لا يتحقق إلا من خلال إرادة الشعب ومن خلال قوته الذاتية.

٢ـ والنيتشوية، مثلها مثل الصهيونية، تعبير عن توثن الذات حينما يحل المطلق في الإنسان ويصبح كامناً فيه، فيعبد الإنسان ذاته أو يعبد أسلافه، أي الذات القومية المقدَّسة، باعتبارها تجسيداً لذاته.

٣ـ والنيتشوية، مثلها مثل الصهيونية، نسق عضوي يقرن بين البدايات والنهايات، وتسود فيه صورة مجازية عضوية.

٤- الفكر النيتشوي، مثل الفكر الصهيوني، تسري فيه نزعة قوية من وحدة الوجود. وتختفي حدود الأشياء ومعالمها في الكتابات الصهيونية وفي فكر نيتشه ليحل محلها ضباب اللاتحدد والمطلقات اللادينية.

٥- دائرية الفكر الصهيوني، حيث تتماهى البدايات العبرانية الوثنية والنهاية الصهيونية الوثنية، تشبه في كثير من الوجوه الفكرة النيتشوية بخصوص العود الأبدي. يقول نيتشه على لسان زرادشت: "سأعود مع هذه الشمس، وهذه الأرض، وهذا النسر، وهذا الثعبان، لا إلى حياة جديدة أو حياة أفضل، أو حياة تقرب من هذه، سأعود أبداً إلى نفس هذه الحياة، في كل صغيرة وكبيرة منها، لكي أدعو مرة أخرى إلى العود الأبدي لكل الأشياء"، وهذا هو التوازن الآلي

الذي ينجم عن تحدد الهدف وثباته والدوران حول المطلق.

٦ـ النيتشوية، مثلها مثل الصهيونية، ديانة داروينية تسبغ نوعاً من الروحية والقداسة على قانون التطور، وتجعل من القوة الأساس الوحيد لأي نسق أخلاقي ("القوة إذن هي الفضيلة السامية، والضعف هو النقيض في الشر. الخير هو الذي يستطيع أن يحيا ويظفر، أما الشر فهو ما يخور ويهوى، هذه هي النتيجة اللازمة لمبدأ تفاني البقاء")(١٥) وهو ما يُطلَق عليه في المصطلح السياسي الإسرائيلي والغربي "فرض سياسة الأمر الواقع" و"خلق حقائق جديدة".

٧ـ الحياة، بالنسبة للنيتشوية، توسُّع ونمو واستيلاء على الآخر وهزيمة له، وتمجيد لأخلاق السادة الأقوياء، وهذا هو جوهر الصهيونية التي لا يمكنها أن تعيش إلا على التوسع وعلى إلغاء الآخر. والآخر هو، أولاً، الفلسطينيون الذين يجب أن يختفوا من على وجه الأرض، ثم يهود الدياسبورا الذين يعملون بالأعمال الفكرية ويؤمنون بأخلاق العبيد.

٨ ـ وإذا كان نيتشه قد دعا الإنسان إلى أن يعود لحالة الحيوية والطبيعة المقدَّسة، ويكون كالحيوان المفترس الأشقر، وينبذ العقائد الدينية وأخلاق الضعفاء، فقد طرحت الصهيونية

نفسها باعتبارها الأيديولوجية التي ستحول يهود المنفى المترهلين الذين يؤمنون بأخلاق الضعفاء إلى يهودوحوش يؤمنون بأخلاق القوة، إلى مفتولي عضلات يحسمون كل القضايا بالقوة ويفرضون رؤيتهم.

٩- معاداة الفكر واحتقاره أو تقديس الفعل والحركة، حتى لو كانت عمياء، من صميم الفكر النيتشوي، ولذا فإن نيتشه كان يمجِّد الحضارة اليونانية قبل ظهور سقراط، لأنها كانت (في تصوره) حضارة عدمية متشائمة، ثم جاء سقراط "نموذج الرجل النظري فكان علامة على انحلال الخلق اليوناني، إذ أخذت قوة الجسد والروح القديمتين يضحى بهما شيئاً فشيئاً من أجل ثقافة عقلية مشكوك فيها، وهي تتضمن انحطاطاً شديداً في قوى البدن والعقل. لقد حل العلم محل الفن، والعقل محل الغريزة وانتصرت الروح الأبولونية على الروح الديونيزية. لكن تمجيد الديونيزية هو، في واقع الأمر، دعوة إلى "الاندماج المباشر بالطبيعة التلقائية في صورتها الأولى، قبل أن يشوهها العقل الخالص ويبعث فيها الثبات والجمود".

تظهر هذه الموضوعات النيتشوية في الكتابات الصهيونية،

فالمفكر الصهيوني موسى هس يرى أن عودته لشعبه هي عودة للعاطفة وهرب من عالم العقل البارد: "لقد تبين لي أن العاطفة التي ظننت أني فقدتها عادت إلى الحياة من جديد. وهذه العاطفة نصف المخنوقة تتأرجح في صدري محاولة التعبير عن نفسها"(١٦). لكن هذه العاطفة هي كيان صوفي غامض لا يمكن تصنيفه "التفكير في وطنيتي التي ترتبط بتراث أسلافي وبالأرض المقدسة وبالمدينة الخالدة"(١٧)، وهذه العودة للأصول الصوفية هي "خير رادع للعقلانية الهدامة"(١٨).

ويتغنى الشاعر الصهيوني الروسي شاؤول تشرنحوفسكي في قصائده بإله ديونيزي، خاصة في سلسلة السونتات المعنونة "إلى الشمس":

أي السُّبل سأختار، وأي الدروب سأسلك؟
هل سأصب زيتي للرب أم سأختار زيوس؟
إنني أنحني لك في صمت، أنحني في بهجة لأصلي لك
شأني شأن سنبلة ذهبية في حقل مترع بالحبوب (سونت ١٢). (١٩)

سأشدو في جوقة اللانهاية ولن أكف عن الشدو،

في قلبي يقطن الندى الذي لا يزال يتساقط فوق التلال (سونت ٨). (٢٠)

والدفعة الديونيزية نفسها، والرغبة في العودة إلى عالم التلقائية، تظهر في قصيدة الشاعر الصهيوني بياليك "في الحقل":

أتي بين القمح وأختبئ،
وأغرق بين سنابله وأندفع مع سيقانه الوفيرة،
وأنحرف مع فيضان أمواجها،
وأصغي لصمت الغاب وأسمع أسرار الدغل،
وفي هدوء يترامى إلى أذني همس الأشجار،
فأسمع سر حديث أوراقها. (٢١)

١٠- هذه التلقائية والعودة إلى الفعل المطلق الذي لا تحده أي حدود إنسانية عقلانية يتضح في محاولة الصهاينة إحياء تقاليد العنف الجسدي بين اليهود بعد أن أضعفته - في تصورهم - سنوات طويلة من النفي. وقد رفض بيرديشفسكي التاريخ اليهودي الذي يسيطر عليه الحاخامات والمفكرون اليهود، ونادى بتفضيل الفعل على الفكر، والسيف على الكتاب: "الكتاب ليس أكثر من ظل للحياة، هو الحياة في

شيخوختها... السيف ليس شيئاً مجرداً يقف بعيداً عن الحياة. إنه تجسيد للحياة في أعرض خطوطها... وهو تجسيد جوهري ومحسوس يشبه الحياة إلى حدٍّ كبير"(٢٢). ولذلك أعاد الصهاينة كتابة التاريخ اليهودي، فركزوا على النقاط التي تجلى فيها العنف اليهودي الغريزي، النقاط الديونيزية إن صح التعبير، مثل ثورة المكابيين أو حادثة ماسادا أو بطولات شاؤول وداود. وقد صور بيرديشفسكي الأمة اليهودية في نشأتها على أنها جماعة محاربة من الرعاة الوثنيين الغزاة. وهو يعود بخياله إلى الأيام التي كانت فيها "رايات اليهود مرتفعة"، كما ينظر إلى "الأبطال المحاربين اليهود الأوائل"(٢٣).

١١- الإنسان التلقائي الغريزي الديونيزي يفضل أن يعيش في خطر، وهذا بالضبط ما حققته الصهيونية للمستوطنين اليهود - خيامهم لم تضرب بجوار البركان وإنما في فوهته. وإذا كان "السيف مثل التوراة هما زينة الإنسان" كما يقول الحاخام أليعازر(٢٤) (وإذا كان السيف مثل التوراة تماماً "قد أنزلا علينا من السماء" كما جاء في خطاب لجابوتنسكي ألقاه على بعض الطلاب اليهود في فيينا) فإن

كل شيء يصبح مرتكزاً عليه. ولذا فإن الإنسان النيتشوي الصهيوني يقف حاملاً سيفه دائماً "هذا هو قدر جيلنا، وخيار حياتنا.. (إن) سقط السيف من قبضتنا، نزعت منا حياتنا" (كما قال ديان في جنازة أحد أصدقائه الذي قتله الفدائيون الفلسطينيون). إن الحياة الصهيونية هي "حياة في خطر"، ولذا فإن الفلاح لابد وأن يكون محارباً، والصانع لابد وأن يكون مقاتلاً، وكل المؤسسات لابد وأن تكتسب طابعاً عسكرياً. بل إن الافتراض القائم في إسرائيل هو أن حالة الحرب ضرورة حضارية حتى يمكن صياغة الأمة اليهودية الجديدة وصياغة الإنسان الإسرائيلي. والوضع نفسه أمر ضروري بالنسبة ليهود العالم خارج فلسطين، فهم أيضاً لابد وأن يعيشوا في خطر دائم وإلا ابتلعهم الأغيار ووقعوا ضحايا الاندماج.

١٢- الفكر النيتشوي يرفض الديمقراطية ("الديمقراطية معناها تقويض المجتمع... معناها تقديس الكفاية المتوسطة ومقت التفوق والنبوغ... معناها الحيلولة دون ظهور العظماء")(٢٥). ولذا، فإن غاية الإنسانية، من وجهة نظر نيتشه، تصبح هي "الإنسان الأعلى... لا الجنس البشري

بأسره"...(٢٦) "إنني أبشركم بالإنسان الأعلى يجب أن يأتي من الإنسان ما يفوق الإنسان"(٢٧). وحركة التطور الحقيقية لابد وأن تؤدي إلى ظهور أمة مختارة من هذا النوع من الرجال، وما الإنسان العادي سوى الحلقة أو الجسر الموصل لهذه المرحلة العليا (التي توجد بطبيعة الحال مرحلة أعلى منها إلى أن نصل إلى الحد الأقصى "المطلق" غير المعروف).

والتفكير الصهيوني تفكير نخبوي في جوهره، وهو نخبوي على مستويين: بالنسبة لليهود وبالنسبة للعرب. أما بالنسبة للعرب فإنه يمكن، على المستوى الفلسفي، القول بأن الفكر الصهيوني، بتحويله الأمة إلى مطلق مكتفٍ بذاته، كان يعني على المستوى المعرفي نقل العرب وإبادتهم. أما على مستوى الممارسات الصهيونية ضد العرب (من طرد وحبس وتعذيب وإبادة) فإن هذه الممارسات أصبحت من الأخبار اليومية التي تتناقلها الصحف.

وبالنسبة إلى موقف الصهاينة النخبوي من اليهود، يمكن القول بأن الصهيونية تنظر إلى أعضاء الجماعات اليهودية في العالم باعتبارهم مجرد وسيلة لتنفيذ المخطط الصهيوني ("إن أجل ما في الإنسان هو أنه جسر لا هدف... إن ما يُحَب في

الإنسان هو أنه انتقال وتمهيد")(٢٨). وقد طرح كلاتزكين هذا التصور حينما أكد أن يهود الشتات ليس لهم سوى فائدة مرحلية، إذ أنهم سيعطون الصهاينة الوقت الكافي لاستخلاص بعض اللبنات "لاستخدامها في إقامة البناء القومي الجديد"(٢٩)، فالشتات في حد ذاته لا يستحق البقاء، لكنه قد يكون مفيداً كوسيلة... إن "الوجود المرحلي الانتقالي" للشتات هو بالتأكيد "أمر له أهمية، وهذا بالتحديد لأنه وجود مرحلي"(٣٠). بل إن أهارون ديفيد جوردون تحدث عن الجاليات اليهودية في الشتات باعتبارها "مستعمرات"(٣١) تابعة للوطن الأم أو الدولة الصهيونية.

١٣- التفكير النخبوي هو بطبيعة الحال تفكير نبوي، فالسوبرمان هو الإنسان الذي يصل إلى الحقيقة دون عناء والذي يحيا حياة فاضلة (ماشيحانية). وقد سيطر التفكير النبوي على نيتشه إلى درجة أنه وقع أحد خطاباته بكلمة "المصلوب" وهي صفة كثيراً ما يستخدمها المفكرون الصهاينة للإشارة للشعب اليهودي وللأفراد اليهود، بل إن لاهوت موت الإله اليهودي يدور حول فكرة الشعب اليهودي كمسيح مصلوب.

١٤- وبتفكيره النبوي المطلق، لا يتحدث نيتشه عن السعادة الفردية أو عن السعادة عامة، فالسعادة من شيم الضعفاء والعبيد، أما السوبرمان فإنه يعلو على الخير والشر. كما أن تجاهل السعادة كقيمة إنسانية هو إحدى سمات الفكر الصهيوني، فالصهاينة مشغولون بتصوراتهم المثالية الماشيحانية عن الدولة اليهودية والشعب المختار، وبالتالي فإنهم ينسون الفرد اليهودي المحسوس نفسه. والوجه الصهيوني مثل الوجه النيتشوي الفاشي لا تظهر عليه أية إشراقات إنسانية ولا تعلوه أية ابتسامة، فهو وجه غاضب وميت في الوقت نفسه، وعيونه مركزة على الأزلية. والقارئ لكتابات المفكرين الصهيونيين يحس بالاختناق الشديد لأنه لا تلفحه أية نسمات إنسانية.

١٥- وفي كتاباته، يتحدث نيتشه دائماً عن الماضي والمستقبل ولا يركز عيونه على الحاضر أبداً (والماضي والمستقبل، على خلاف الحاضر الحي، يتحولان إلى ثابتين مجردين). والصهاينة بدورهم لا يتحدثون عادة إلا عن الماضي والمستقبل البعيدين وإذا نظروا إلى الحاضر فإنهم ينظرون إليه في ضوء اهتمامهم بالماضي والمستقبل. وإذا بدأ

مفكر سياسي مثل أفنيري أو جولدمان أو دوفنوف في الاهتمام بالحاضر كواقع تاريخي أو متعين، فإن الصهاينة يتهمونه على التو بالسلبية والتخاذل. ومع هذا، ظهرت أجيال جديدة في إسرائيل متوجهة بعنف نحو اللذة ولا تكترث إلا بالآن وهنا.

الهوامش:

١ - تعريف شبلي، معجم الأدب العالمي، ورد في كتاب عبد الوهاب المسيري ومحمد علي زيد مختارات من الشعر الرومانتيكي الإنجليزي: النصوص الأساسية وبعض الدراسات التاريخية والنقدية (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩) ص, ٩

٢- الفكرة الصهيونية، ص, ٩١

٣- المرجع نفسه، ص, ٩٤

٤- المرجع نفبسه، ص, ٩٢

٥- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

٦- عبد الوهاب المسيري، اليهودية والصهيونية وإسرائيل: دراسة في انتشار وانحسار الرؤية الصهيونية للواقع بيروت:

المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٥) ص, ١٨١

٧- المرجع نفسه، ص, ٩٢

٨- الفكرة الصهيونية، ص, ٩١

٩- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

١٠- Moshe Pearlman, Ben Gurion Looks in Talks with Moshe Pearlman (New York: Simon and Schusier, 1965), p. 244. and Ehud Ben Ezer (Ed.) Unease in Zion (New York: Quadrangle The N. Y. Times, 1974), p. 72.

11- Cited in Ben Herman. Max Nordeau: Philosopher of Human Solidarity (New York: Conference of Jewish Social Studies. 1956), P. 199.

12- Amos Elon, The Israelis: Founders and Sons (New York: Holt. Rinehart & Winston. 1971), p. 115.

13- "Transvaluation of Values" in Michael Selzer. Zionism Reeonsidered: The Rejection of Jewish Normaley (New York: Macmillan, 1970)<

pp. 157-174.

١٤- أحمد أمين وزكي نجيب محمود، قصة الفلسفة الحديثة، في جزءين (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٧) ص. ٣٣٩

١٥- المرجع نفسه، ص, ٣٢٢

١٦- أنيس صايغ (مشرفاً) الفكرة الصهيونية، ص, ٢١

١٧- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

١٨- المرجع نفسه، ص, ٢٩

١٩- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

٢٠- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

٢١- المرجع نفسه، ص, ٢٠٢

٢٢- الفكرة الصهيونية، ص, ١٨٥

٢٣- المرجع نفسه، ص, ١٨٢

٢٤- المرجع نفسه، ص, ١٨٦

٢٥- أحمد أمين وزكي نجيب محمود، قصة الفلسفة الحديثة ص, ٣٥٩

٢٦- المرجع نفسه، ص٣٥١-, ٣٥٢

٢٧- المرجع نفسه، ص, ٣٤٥

٢٨- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

٢٩- الفكرة الصهيونية، ص, ٢١٠

٣٠- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

٣١- المرجع نفسه، ص, ٢٦٦

الفصل الثالث
الفكر الاسترجاعى

قد يدهش بعض القراء حينما يعرفون أن الأيديولوجية الصهيونية نبتت في تربة غير يهودية ثم تحددت معالمها الأساسية في منتصف القرن التاسع عشر على يد مفكرين صهاينة غير يهود يكنون كراهية عميقة لليهود، ثم تبنته بعض القيادات اليهودية (التي تكره اليهود أيضاً) في أواخر القرن التاسع عشر.

استرجاع اليهود

كانت اليهودية الحاخامية تحرِّم العودة إلى فلسطين وتعتبرها فعلاً من أفعال الهرطقة التي لا تُغتفر، لأنه من قبيل "الدحيكات هاكتس"، أي التعجيل بالنهاية، إذ كان من المفروض على اليهودي أن ينتظر في صبر وأناة إلى أن يأذن الإله بعودة اليهود تحت قيادة الماشيح في آخر الأيام، وليس الآن وهنا.

لكن ظهر في بدايات القرن السابع عشر ظهر ضرب من الفكر الصهيوني في صفوف الاستعماريين الغربيين يبشر بالعودة الجماعية لليهود ("الشعب اليهودي") ليستوطنوا في فلسطين ("أرض أجدادهم"). وقد ظهر هذا الفكر أول ما ظهر في صفوف المسيحيين البروتستانت الذين يطلق عليهم

اصطلاح "الاسترجاعيين". ويعود الفكر الاسترجاعي إلى العقيدة الاسترجاعية عن عودة المسيح المخلِّص في آخر الأيام ليحكم العالم، هو والقديسون، لمدة ألف عام يسود فيها العدل والسلام. وحسبما جاء في هذه العقيدة، لن يتحقق الخلاص ولن يتم إلا باسترجاع اليهود لفلسطين (ليتم تنصيرهم). وقد ظهرت هذه العقيدة - التي يطلق عليها أحياناً اصطلاح "العقيدة الألفية" - في كتب الأبوكريفا (أي الكتب التي لا يعترف بها اليهود) وسفر دانيال. وبطبيعة الحال، لا يهمنا هنا مناقشة مدى صحة هذه الأفكار من منظور ديني مسيحي أو حتى يهودي، إذ أن ما يهمنا في السياق الحالي هو أن هذه الأفكار الدينية بدأت تتحول بالتدريج إلى ما يشبه البرنامج التبشيري الديني/السياسي في القرن السادس عشر، وازدهرت في القرنين السابع عشر والثامن عشر (عصر الاكتشافات والرأسمالية المركنتالية والأشكال الأولى من الاستعمار)، ثم وصلت إلى قمتها في القرن التاسع عشر (عصر الإمبريالية وتقسيم العالم والبحث عن الأسواق ومصادر المواد الخام).

وقد شهد عصر الإمبريالية تزايد الحمى الاسترجاعية (خصوصاً في إنجلترا) بسبب ظهور المسألة الشرقية والمطامع الأوربية في وراثة الإمبراطورية العثمانية. وقد بدا ضعف هذه الإمبراطورية التي كانت تعالج سكرات الموت، كما

لو كان إحدى مقدمات أو علامات الأبوكاليبس - رؤي آخرة الأيام - وبدأ "رجال السياسة الأوربيون ينظرون إلى فكرة عودة اليهود إلى صهيون على أنها وسيلة لطرد الأتراك من الشرق الأوسط"(١). وعلى الرغم من أن دعاة الفكر الاسترجاعي كانوا لا يشكلون قوة سياسية، فإنهم ساهموا في تحديد معالم التفكير والمصطلح السياسي لهذه الفترة، بين غير اليهود في بداية الأمر، ثم بين اليهود أنفسهم فيما بعد.

والرؤية الاسترجاعية تنظر لليهود باعتبارهم جماعة دينية/قومية، فهم شعب الله المختار كما جاء في العهد القديم، وهم أيضاً الشعب اليهودي (بالمعنى السياسي الحديث). وهم شعب مرتبط ارتباطاً عضوياً بفلسطين، وبفكرة "الخروج" (باليونانية: إكسودس exodus) التوراتية. فهو شعب "يخرج" من مصر أو بابل أو المنفى ليستوطن في فلسطين. وفي إطار الفكر الاسترجاعي أصبحت رؤية الخلاص تتطلب توطين اليهود في فلسطين (أي "خروجهم" من الغرب)، حتى يعجلوا بعودة الماشيح المخلِّص. فالتوطين أو الاستيطان يخدم المصالح الربانية والإمبريالية في الوقت نفسه. فإرتس يسرائيل (أو فلسطين) هي الأرض التي يتحدث عنها الكتاب المقدس، وهي أيضاً البلد الذي يقع في قلب الإمبراطورية العثمانية (رجل أوربا المريض) الذي كان الجميع يتوقعون سقوطه ليرثوه وليملأوا الفراغ الناجم عن

هذا السقوط. وهي كذلك البلد الذي يطل على البحر الأبيض المتوسط وقناة السويس ومصر وطريق الهند وبوابات الشرق، وهي إلى جانب هذا كله المكان الذي يمكن أن يستوعب المهاجرين اليهود الذين كانوا قد بدأوا في قرع أبواب إنجلترا وفرنسا ودول غرب أوربا الأخرى.

ولعل تداخل الأبعاد السياسية بالأبعاد الرومانسية الدينية يظهر في هذه الواقعة: عندما ذهب هرتزل إلى فلسطين عام ١٨٩٨ لاكتشاف إمكانيات الاستيطان الصهيوني هناك، ولمقابلة الإمبراطور ويلهلم الثاني إمبراطور ألمانيا، اعتقد البعض أنه لم يكن سوي مبشر مسيحي بين اليهود يحاول تنصيرهم(٢)، لأنه يحاول توطينهم في فلسطين. ومثل هذا الخلط والتشابك بين الجوانب السياسية والدينية لا يزال باقياً حتى يومنا هذا، إذ لا يزال الكثيرون (بما في ذلك بعض رؤساء الجمهورية في الولايات المتحدة) يتحدثون عن الاستيطان الصهيوني في فلسطين بعبارات دينية/سياسية وبعد حرب ١٩٦٧، اعتقدت بعض البعثات التبشيرية المسيحية في إسرائيل أن الانتصار العسكري الإسرائيلي دليل أكيد على اقتراب العصر الألفي السعيد الذي سيحكم فيه المسيح الأرض، ومن ثم زادوا من نشاطهم في الدولة الصهيونية. وقد أصبح اليمين المسيحي الصهيوني الذي يطالب باسترجاع اليهود إلى فلسطين قوة حقيقية في السياسة الأمريكية.

ومما يجدر ذكره أن الرؤية الاسترجاعية البروتستانتية رؤية معادية لليهود، فالهدف من استرجاع اليهود هو هدايتهم وتحويلهم إلى المسيحية (بعد أن تقوم مذابح هرمجدون التي سيروح ضحيتها العديد منهم)، أي أن الصهاينة المسيحيين يودون استرجاع اليهود لإفنائهم إما دينياً أو جسدياً. ولذا نشأت المفارقة التالية: فبينما يرفض يهود الولايات المتحدة هذا اليمين الصهيوني بسبب نزعته الإبادية وكراهيته العميقة لليهود، تتحالف معهم الدولة الصهيونية لأسباب برجماتية، ولأن الصهيونية (كما سنبين بالتفصيل) تنبع من كره اليهود ومن رفضهم.

وكانت استجابة اليهود للفكر الاسترجاعي البروتستانتي فاتراً لوقت طويل، فلم يرتفع صوت يهودي مرحباً بالفكرة أو مؤيداً لها، فظلت الدعوة إلى إنهاء وضع "النفي" مسعى غير يهودي بالدرجة الأولي(٣). ولكن مع انتصاف القرن التاسع عشر، ومع تفاقم المسألة اليهودية في شرق أوربا، ومع انتشار الفكر الإمبريالي، بدأ بعض المفكرين اليهود في الاستجابة بطريقة أكثر إيجابية للصيغ الصهيونية غير اليهودية.

ويرى الزعيم الصهيوني البولندي الأصلي، حاييم وايزمان (١٨٦٤-١٩٥٢) وأول رئيس للدولة الصهيونية، أن بعض كبار القادة العسكريين في الغرب مثل الإسكندر الأكبر ويوليوس

قيصر ونابليون قد أدركوا أهمية فلسطين بالنسبة لخططهم الشرقية، وأنهم لهذا السبب "كانوا موالين لليهود في سياستهم الخارجية بشكل ملحوظ(٤). وما لم يصرح به وايزمان، إما لغبائه أو لرغبته الواعية أو غير الواعية في إخفاء الحقيقة، أن الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر ونابليون هم من صناع الإمبراطوريات الغربية، وأنهم كانوا يرغبون في توظيف اليهود في خدمتهم. ثم وصف وايزمان نابليون بونابرت – أول أوربي يغزو الشرق العربي في الأزمنة الحديثة – بأنه "أول الصهاينة العصريين من الأغيار"(٥). وفي النداء الذي وجهه نابليون إلى كل يهود آسيا وأفريقيا في ٢٠ أبريل ١٧٩٩، حثهم على السير وراء القيادة الفرنسية حتى يتسنى استعادة العظمة الأصلية "لبيت المقدس"، ووعد بأنه سيعيد اليهود إلى "الأرض المقدسة" إذا "ساعدوا قواته"(٦). وعلى الرغم من لهجة نداء نابليون الرومانسية فإنه كشف عن مطامعه الاستعمارية ورغبته في أن يغلق الطريق المؤدي إلى الهند أمام بريطانيا، ويمكننا في الواقع اعتبار نداء نابليون الاسترجاعي أول "وعد بلفوري". ونابليون لم يكن يكن أي مشاعر من الحب والاحترام لليهود، وهذا يظهر في تشريعاته داخل فرنسا. ومن هنا كانت صهيونيته، فإخراج اليهود من فرنسا وتوطينهم في فلسطين فيه حل للمسألة اليهودية في فرنسا (والتي كانت قد بدأت في التفاقم) وتحقيق لمشاريعه

الإمبراطورية. أي أن نابليون كان يهدف إلى ضرب عصفورين بحجر: تخليص فرنسا من اليهود وتوظيفهم في خدمة مشاريعه وتحويلهم إلى عملاء له، وهذا ما قاله ملك إيطاليا لهرتزل (وقد وافقه الزعيم الصيهوني على رأيه).

وكانت إنجلترا (البروتستانتية) أكبر قوة استعمارية، خصوصاً في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مرتعاً خصباً للأفكار الاسترجاعية. وقبل ظهور الصهيونية بين اليهود بفترة طويلة، قرر أحد الصهاينة غير اليهود، اللورد بالمرستون (١٧٨٤-١٨٦٥)، حينما كان يشغل منصب وزير خارجية بريطانيا، أن يستخدم اليهود كمخلب قط لقمع العرب. فقد أعلن، في رسالة بعث بها إلى السفير البريطاني في استنبول - عاصمة الإمبراطورية العثمانية - بتاريخ ١١ أغسطس ١٨٤٠ أنه "إذا عاد أفراد الشعب اليهودي إلى فلسطين" تحت حماية السلطان العثماني وبناءً على دعوة منه (وكانت السلطنة العثمانية حينذاك هي القوة الخارجية المهيمنة في العالم العربي) فإنهم سيقومون بكبح جُماح أي مخططات شريرة قد يديرها محمد علي أو من سيخلفه في المستقبل(٧).

تبلور الفكر الصهيوني

وتاريخ الرسالة التي بعث بها بالمرستون في غاية الأهمية، فظهور محمد علي المفاجئ وتكوين إمبراطوريته الصغيرة،

قلب موازين القوى وهدد المشروع الاستعماري الغربي الذي كان يفترض أن العالم كله إن هو إلا ساحة لنشاطه وسوق لسلعه، ووضع حدا لمطامع الدول الغربية التي كانت تترقب اللحظة المواتية لتقسيم واقتسام الدولة العثمانية. ولذا تحالفت الدول الغربية كلها، بما فيها فرنسا، ضد محمد علي وعقدت مؤتمر لندن عام ١٨٤٠ وقررت فيه الإجهاز عليه(٨)، فاضطرته إلى التوقيع على معاهدة لندن لتهدئة المشرق Treaty of London for the Pacification of the Levant(9).

وتمثل هذه النقطة، كما يقول ناحوم سوكولوف، أحد رؤساء المنظمة الصهيونية ومؤرخ الحركة الصهيونية، "نقطة تحول في تاريخ فلسطين"(١٠). إذ تبلورت الفكرة الصهيونية بسرعة، فطرحت فكرة تحييد سوريا، بمعنى فصلها عن كلٍّ من محمد علي وتركيا. ويضيف سوكولوف: "في هذه اللحظة كان من الممكن أن يستعيد اليهود أرضهم القديمة لو كان عندهم منظمة لتنفيذ الخطة"(١١). وإن أردنا ترجمة هذا الكلام إلى مصطلح سياسي علمي أكثر دقة لقلنا إن المسألة الشرقية "وهي المشاكل الناجمة عن وضع الإمبراطورية العثمانية المتردي الذي كانت فلسطين جزءاً لا يتجزأ منه (والذى) ... كان يؤثر في ميزان القوي القائم في أوربا(١٢) التقت بمسألة أوربا اليهودية فاندمجتا تمام الاندماج وتم

التوصل إلى إمكانية حل المسألة اليهودية عن طريق تخليص أوربا من اليهود وتوظيفهم في حل المسألة الشرقية.

ويشرح سوكولوف المنطق في أوربا آنذاك على النحو التالي:

"إذا اتفقت الدول العظمي الخمس على تسوية المسألة الشرقية على أساس استقلال سوريا... واسترجاع اليهود لها... حاملين معهم عُدة الحضارة وأجهزتها، بحيث يكونون نواة لخلق مؤسسات أوربية... تحت رعاية القوى الأوربية الخمس... فإن ذلك سيساعدهم في أن تسترجع الدولة العثمانية قوتها... ومما لا شك فيه أن حالة سوريا محفوفة بعديد من المصاعب نظراً لانقسام سكانها إلى قبائل منفصلة. ولكن هذا لا يثبت سوى ضرورة إدخال "مادة جديدة" حتى يتم صهر الطبقات كلها في جماعة مترابطة متوازنة، وإذا ما سلمنا بضرورة إدخال مادة جديدة في نسيج سوريا بأكثر المواد قبولاً، وسيتبع ذلك إقامة مؤسسات أوربية وستجد إنجلترا حليفا جديداً سيثبت أن الصداقة معه في نهاية الأمر ذات نفع لها في التعامل مع المسألة الشرقية.

هكذا لخص سوكولوف الرأي السائد آنذاك، مستخدماً مصطلحات نفعية (طُبعت ببنط غامق). وإذا كان تلخيصه دقيقاً، وهو في تصوري كذلك، فإن المشروع الصهيوني ولد في ذلك العام (نقل يهود أوربا إلى فلسطين بمساعدة الدول

الغربية الراعية - التخلص من الفلسطينيين - توظيف المادة البشرية الوافدة لصالح العالم الغربي).

ويلاحظ أن البعد السياسي الكامن للفكر الصهيوني بين غير اليهود أخذ يصبح أكثر حدة وتحدداً، بل أصبح هو البعد الرئيسي، ولم يعد الحل الصهيوني مجرد فكرة فلسفية أو تطلع عام، "فالتطورات السياسية أدت إلى ظهور خلفية جديدة... للصهيونية. إن قضية استرجاع إسرائيل التي كانت قضية أثيرة لدى العاطفيين وكتّاب المقالات والأدباء... وكل مؤمن بالإنجيل وكل صديق للحرية، أصبحت قضية حقيقية مطروحة"(١٣) (على المستوى السياسي). وكما قالت التايمز (عام ١٨٤٠) فإن المسألة أصبحت "مطروحة بشكل جدي"(١٤)، أي أن الصهيونية لم تعد فكرة هامشية.

ويمكن القول إن لورد شافتسبري السابع هو أهم مفكر صهيوني استعماري غربي غير يهودي في هذه المرحلة وواحد من أهم الشخصيات الإنجليزية في القرن التاسع عشر، إذ يقول عنه المؤرخ الإنجليزي تريفليان إنه كان يعد أحد أهم أربعة أبطال شعبيين في عصره(١٥)، وكان بالإضافة إلى ذلك شقيق زوجة رئيس الوزراء بالمرستون الذي كان يثق فيه تماماً ويأخذ بمشورته. وكان شافتسبري زعيم حزب الإنجيليين (الذي كان يهدف إلى تنصير اليهود)، لذا نجد أن اليهود هم أحد الموضوعات الأساسية في تفكيره، ومحط اهتمامه

الشديد. وكان تفكير شافتسبري خليطاً مدهشاً من العناصر الاجتماعية والدينية والتاريخية، يتداخل في عقله الوقت الحاضر بالزمان الغابر بالتاريخ المقدس. ويتضح ذلك في موقفه من اليهود ونظرته إليهم. فهم يكونون بالنسبة إليه شعباً مستقلاً "وجنساً عبرياً" يتمتع باستمرارية لم تنقطع، وهذه هي نقطة الانطلاق الأولي للفكر الصهيوني والتي نسميها "الشعب العضوي المتماسك". ولكنهم لهذا السبب أصبحوا جنساً "من الغرباء"(١٦) "متعجرفين، سود القلوب، منغمسين في الانحطاط الخُلقي والعناد والجهل بالإنجيل"(١٧). وليسوا سوى "خطأ جماعي"، فهم شعب عضوي منبوذ، لا ينتمي إلى أوربا. ويرى شافتسبري أنه ينبغي عليهم العودة إلى الإيمان بالمسيح حتى تبدأ سلسلة الأحداث التي ستؤدي إلى عودة المسيح الثانية وخلاص البشر(١٨). وانطلاقاً من هذا الخليط الفريد من الأطروحات السياسية والدينية والعرقية عارض شافتسبري منح اليهود حقوقهم المدنية السياسية(١٩)، أي أنه تبني الفكرة الصهيونية المحورية: الشعب العضوي المنبوذ، أي الشعب اليهودي المتماسك الذي لا ينتمي للغرب ويجب نقله إلى بلدٍ آخر.

ولكن ثمة علاقة بين هذا الشعب وبقعة جغرافية محددة هي فلسطين(٢٠)، فبعثهم لا يمكن أن يتم إلا هناك، كما أن

وجودهم في هذه البقعة يمثل - كما تقدم - عنصراً حيوياً في الرؤية المسيحية للخلاص(٢١)، وكما قال: "إن أي شعب لابد أن يكون له وطن. الأرض القديمة للشعب القديم"(٢٢). ثم طور هذا الشعار ليصبح "وطنٌ بلا شعب لشعبٍ بلا وطن"(٢٣)، الذي أصبح فيما بعد الشعار الصهيوني المحوري "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض".

وقد وضع شافتسبري عدة مذكرات يعْرض فيها رؤيته الصهيونية، فبيَّن أن الشعب المنبوذ يمكن أن يوظف في خدمة الإمبراطورية. "فهو جنس معروف بمهارته ومثابرته الفائقة، ويمكن لأعضائه العيش في غبطة وسعادة على أقل شيء، فهم قد ألفوا العذاب عبر العصور الطويلة"، وبالتالي "تشكل عودتهم لاستعمار فلسطين... أرخص الطرق وأكثرها أمناً للوفاء بحاجات هذه المناطق غير المأهولة بالسكان. وهم سيعودون على نفقتهم الخاصة دون أن يعرضوا أحداً - سوى أنفسهم - للخطر"(٢٤). كما أنهم سيوفرون رؤوس الأموال المطلوبة، فهم مشهورون بحب اختزان المال والجشع والبخل. ويبيِّن شافتسبري أهمية سوريا (بما في ذلك فلسطين) الاقتصادية والسياسية، ومدى حاجة إنجلترا لإسقفين بريطاني هناك(٢٥)، ويؤكد أنه في وسع اليهود القيام بهذه المهمة على أكمل وجه، على أن توطين اليهود في فلسطين سيعود بالفائدة لا على إنجلترا بمفردها وإنما على العالم المتمدن (أي

الغربي) بأسره(٢٦) (ولنلاحظ تمازج المصطلحات النفعية مع مصطلحات الكراهية في خطاب شافتسبري).

وعلى الرغم من أن هذه الأفكار قد طُرحت قبل عشرين عاماً من ميلاد هرتزل(٢٧)، فإن كل ملامح المشروع الصهيوني موجودة فيها، ولا سيما فكرة توظيف وضع اليهود الشاذ داخل المجتمعات الغربية في خدمة هذه المجتمعات عن طريق نقلهم. ولقد صاغ شافتسبري رؤية اليهود ككتلة مستوطنين لا تخدم دولة غربية واحدة وإنما كل دول الغرب. وقد لاحظ سوكولوف - بحق- أوجه التشابه بين كتابات شافتسبري وبرنامج بازل(٢٨).

ويلاحظ أن شافتسبري لم يكتف بالصياغات النظرية الصهيونية بل لعب دوراً نشطاً وفعالاً، فكان يكتب المذكرات التفصيلية المحددة لبالمرستون. ومن المعروف أنه تم افتتاح أول قنصلية إنجليزية في القدس نتيجة لإلحاحه وبناءً على توجيه منه(٢٩)، كما أنه ترأس صندوق استكشاف فلسطين الذي قام أعضاؤه بكتابة الدراسات المكثفة عن آثار فلسطين من منظور إنجيلي استرجاعي. وعلى الرغم من أن شافتسبري كان يستخدم ديباجة تبشيرية واضحة فإنه كان مدركاً ضرورة تأكيد الأبعاد الجغرافية والسياسية والنفعية لمشروعه حتى يلقى قبولاً لدى صُناع القرار الغربي(٣٠).

وليس هناك شخصية أكثر تعبيراً عن الصهيونية

الاستعمارية الغربية غير اليهودية التي سبقت الصهيونية اليهودية بعشرات السنين من صديق شافتسبري لورانس أوليفانت Laurence Oliphant (1829-1888) الذي عمل في السلك الدبلوماسي البريطاني بعض الوقت في الشئون الهندية، وكان عضوا في البرلمان الإنجليزي. وينطلق أوليفانت شأنه شأن معظم الصهاينة - من فكرة الشعب العضوي المنبوذ، فاليهود جنس مستقل يتسم أعضاؤه بالذكاء في الأعمال التجارية والمقدرة على جمع المال، ولكن وجودهم داخل الحضارة الغربية أمر سلبي، إذ إن جذورهم في فلسطين(٣١).

وكان أوليفانت يرى، مثل كثير من السياسيين البريطانيين في عصره، ضرورة إنقاذ الدولة العثمانية من مشاكلها المستعصية عن طريق إدخال عنصر اقتصادي نشط في جسدها المتهاوي، وقد وجد أن اليهود هم ذلك العنصر. ولذلك دعا بريطانيا إلى تأييد مشروع توطين اليهود، لا في فلسطين وحسب، وإنما في الضفة الشرقية للأردن كذلك(٣٢). وكان المشروع يتلخص في إنشاء شركة استيطانية(٣٣) لتوطين اليهود برعاية بريطانية وتمويلها من الخارج، ويكون مركزها استنبول (وقد لاحظ بن هالبرن Ben Halpern وهو أحد المؤرخين المحدثين للصهيونية ومن المؤيدين لها، أوجه الشبه بين هذه الخطة واقتراحات هرتزل فيما بعد) (٣٤).

وكانت صهيونية أوليفانت تتسم بالعملية والحركية، فاتجه إلى فلسطين للبحث عن موقع مناسب للمستوطن المقترح، واختار منطقة شرق الأردن في شمال البحر الميت وتسمى منطقة جلعاد في العهد القديم، ثم اتجه إلى استنبول (مع إدوارد كازالت Edward Cazalet الممول الإنجليزي) لعرض مشروع سكة حديد وادي الفرات وقدما طلبا إلى السلطان بإعطاء اليهود قطعة من الأرض بعرض ثلاثة كيلومترات على حافتي الطريق المقترح.

كان أوليفانت على علاقة بعددٍ من الزعماء الصهاينة اليهود في شرق أوربا مثل بيرتس سمولنسكين وأهارون دييد جـوردون (35) Aharon David Gordon (1856-1922) الزعيم الصهيوني (من مواليد روسيا) والأب الروحي لبن جوريون وللاتجاه العمالي الصهيوني المتمثل في حزب الماباي. ويبدو أنه لم يكن بعيداً عن تأسيس جماعة الـ "بيلو "Bilu (36)، وهي من أوائل الجمعيات الصهيونية الاستيطانية. وقد قام بطرح مشروعهم للحصول على قطعة أرض في فلسطين على السلطان العثماني(٣٧)، وحضر أحد مؤتمرات جماعة أحباء صهيون(٣٨)، كما عارض الجهود التي كانت تبذلها جماعة الأليانس Alliance Israelit Universelle لتهجير اليهود إلى الولايات المتحدة لإنقاذهم، وقام بجمع توقيعات من اليهود على عريضة يؤكدون فيها رغبتهم في الهجرة إلى

فلسطين لا إلى غيرها من البلدان(٣٩). وقد نجح أوليفانت بالفعل في تهجير سبعين يهودياً من أصحاب الحرف إليها.

في عام ١٨٨٠ نشر كتابه أرض جلعاد The Land of Gilead الذي نادي فيه بضرورة توطين اليهود في فلسطين، وشرح أبعاد فكره الصهيوني الذي أسلفنا الإشارة إليه، ولعل من إسهامات الكتاب الأساسية مشروعه بخصوص سكان البلاد من العرب. فبعد أن عبر أوليفانت عن عدم تعاطفه مع العرب باعتبارهم مسئولين عن إفقار فلسطين قسمهم إلى قسمين: بدو وفلاحين، فاقترح طرد البدو ووضع الفلاحين في معسكرات مثل معسكرات الهنود في كندا(٤٠)، على أن يتم استخدامهم كمصدر للعمالة الرخيصة تحت الإشراف اليهودي، وبذلك يكون المشروع الصهيوني قد اكتمل بكل ملامحه. وقد ترجم سوكولوف الكتاب إلى العبرية عام ١٨٨٦(٤١)، ووزع منه ١٢,٠٠٠ نسخة، وهو رقم قياسي بالنسبة إلى المنشورات العبرية آنذاك(٤٢).

وتتميز صهيونية أوليفانت عن صهيونية شافتسبري باقترابها من اليهود ومحاولة التوجه إليهم وتجنيدهم. ولعل ظروف المرحلة قد ساعدته باعتبار أن محاولات التحديث في شرق أوربا كانت في أربعينيات القرن، حينما بدأ شافتسبري نشاطه، لا تزال في بداياتها الناجحة، ولم تكن قد تعثرت بعد، بينما بدأ أوليفانت نشاطه الصهيوني مع بدايات التعثر.

ويجدر ملاحظة أن أوليفانت يتحرك في صفوف اليهود بألفة شديدة لم نشهدها من قبل. كما أن المشروع الصهيوني في كتاباته لم يكن مشروعا سياسياً عاماً، بل كان مشروعاً محدداً يتناول كل التفاصيل والأبعاد بدقة بالغة. ولا يعبر أوليفانت عن كرهه للشعب العضوي المنبوذ عن طريق التشهير به أو التبشير بين أعضائه كما كان يفعل شافتسبري أحياناً، وإنما عن طريق مشروع متكامل للتهجير والتوطين والتوظيف يتبناه اليهود بأنفسهم. والرؤية الصهيونية الحقة لا تحاول إنقاذ اليهود كبشر وكأفراد وإنما تنطلق من فكرة "الشعب العضوي المنبوذ" الذي لا مكان له في العالم الغربي ويمكن توظيفه عن طريق توطينه في فلسطين (وقد مر على هرتزل عدة سنوات وعلى يهود شرق أوربا عدة عقود، قبل إدراك هذه الحقائق وقبل تبنيهم الحل الصهيوني الاستعماري للمسألة اليهودية). ولنلاحظ ما يلي:

١- الفكرة الصهيونية حتى كأسطورة دينية/سياسية لا تعود بجذورها إلى التراث الديني وإنما تعود إلى حركيات التاريخ والفكر الديني/العلماني الغربي.

٢- تبلور الفكر الصهيوني على يد مفكرين استعماريين غير يهود قبل أن يصل إلى المفكرين الصهاينة بعشرات السنين. ولم يظهر الفكر الصهيوني بين أعضاء الجماعات اليهودية إلا في أواخر القرن التاسع عشر (بعد عام ١٨٨٢

على وجه التحديد، وهو التاريخ الذي أنهى المحاولات الرامية لدمج يهود روسيا في المجتمع الروسي) أي بعد مرور ما يقرب من قرنين من ظهوره بين المفكرين الصهاينة غير اليهود.

٣- تنبع هذه الصهيونية الغربية الاستعمارية من كره عميق لليهودية واليهود.

مرحلة بلفور(٤٣)

من الأمثلة الأخرى على صهيونية غير اليهود الاستعمارية الغربية المبنية على كره اليهود والرغبة في نقلهم خارج أوربا وتوظيفهم لصالح الغرب الخطاب المرسل من دوق إيلونبرج باسم حكومة قيصر ألمانيا إلى هرتزل (مؤرخ في سبتمبر ١٨٩٨) وجاء فيه:

"إن صاحب الجلالة على استعداد أكيد أن يناقش الأمر (توطين اليهود) مع السلطان، وأنه سيسعده أن يستمع إلى مزيد من التفاصيل منكم في القدس". وصهيونية القيصر الألمانية تنبع من كره واضح وصريح لليهود. فقد قال في أحد خطاباته إن تسعة أعشار شعبه سيصدم صدمة عميقة إذا اكتشف هذه الحقيقة. فاليهود - كما يقول - هم قتلة المسيح، ولكنه يضيف قائلاً: "إن الإله قد أنزل بهم العقاب على ما اقترفوه من آثام، إلا أنه لم يأمر المسيحيين بأن يسيئوا معاملة هذا الشعب". ثم يحاول القيصر تسويغ تعاونه مع "قتلة المسيح"، فيورد الأسباب التالية لتأييد ألمانيا للمشروع

الصهيوني:

أ) سينتج عن توطين شعب إسرائيل رخاء للمنطقة، ولا سيما أن الملايين ستصب في الأكياس العثمانية، الأمر الذي قد يؤدي إلى شفاء الرجل المريض.

ب) ستوجه طاقة اليهود ومواهبهم إلى أهداف أكثر نبلاً من استغلال المسيحيين.

جـ) سيؤدي المشروع الصهيوني إلى إفراغ ألمانيا من اليهود الذين فيها "وكلما عجلوا بالذهاب...، كان ذلك أفضل. فلن أضع أية عراقيل في طريقهم".

د) إذا بحثت المسألة من منظور الحقائق السياسية]لا الأخلاقية[، فإن ألمانيا ستستفيد غاية الاستفادة لأن رأس المال اليهودي العالمي، بكل خطورته، سينظر بعين العرفان إلى ألمانيا.

وموقف القيصر من اليهود، بما يتسم به من كره عميق لهم وترحيب شديد بالتخلص منهم واستعداد تام لتوظيفهم في خدمة المصالح الألمانية، لا يختلف كثيراً عن موقف نابليون من قبله أو موقف بلفور من بعده. ومن الأمثلة الأخرى على الوعود البلفورية، الوعد البلفوري الروسي القيصري. فقد قام هرتزل بمقابلة فون بليفيه، وزير الداخلية الروسي المعادي لليهود، بتفويض من المؤتمر الصهيوني الخامس (١٩٠١)، حتى يحصل على تصريح يعبر عن نوايا الروس يتلوه في

المؤتمر الصهيوني السادس المزمع عقده سنة ١٩٠٣, وبالفعل، صدر الوعد البلفوري القيصري على النحو التالي (في شكل رسالة وجهها فون بليفيه إلى تيودور هرتزل). وهذا هو منطوق الوعد:

"ما دامت الصهيونية تحاول تأسيس دولة مستقلة في فلسطين، وتنظيم هجرة اليهود الروس، فمن المؤكد أن تظل الحكومة الروسية تحبذ ذلك. وتستطيع الصهيونية أن تعتمد على تأييد معنوي ومادي من روسيا إذا ساعدت الإجراءات العملية التي يفكر فيها على تخفيف عدد اليهود في روسيا".

وأكد فون بليفيه دون مواربة أو حياء أن الهدف هو التخلص من اليهود عامة باستثناء الأثرياء منهم، وجاء هذا واضحاً في قوله" "... إن نجاح اليهود في إقامة دولة مستقلة لهم تستوعب عدة ملايين منهم لهو أمر نقبله وندعمه... إننا لا نريد التخلص من جميع اليهود الروس... إننا نريد فقط التخلص من المعدمين والمضطربين". وحذر فون بليفيه من أن التأييد الروسي القيصري سيتم سحبه إن كان هدف الصهيونية، غير المعلن، هو تحقيق تركيز قومي لليهود في روسيا، فالدعم الروسي مشروط بالتخلص من اليهود.

وقد كان لويد جورج رئيس الوزارة التي أصدرت وعد بلفور يمقت اليهود تماماً مثل تشامبرلين قبلهما، والذي كان وراء الوعد البلفوري الخاص بشرق أفريقيا. وفي حملته

الانتخابية عام ١٩٢٦، أي بعد صدور وعد بلفور بعدة سنوات، دخل لويد جورج معركة انتخابية ضد مرشح يهودي، فاستخدم مصطلحات معادية للسامية بشكل واضح وصريح. ويلاحظ أن الشخصيات الأساسية الأخرى وراء وعد بلفور مثل جورج ملنر وإيان سمطس، كلها شخصيات لعبت دوراً أساسياً في التشكيل الاستعماري الغربي وتتسم بكره عميق لليهود.

وعلى العكس من هذا، من المعروف أن صدور وعد بلفور تأخر بعض الوقت بسبب معارضة يهود إنجلترا المعادين للصهيونية، وقاد سير إدوين مونتاجو حملة ضد الوعد وإصداره. واستجابةً لهذه الضغوط، أسقطت عبارة "الجنس اليهودي" وحل محلها عبارة "الشعب اليهودي"، كما أضيفت عبارة أن الوعد لن يؤدي إلى الإخلال بالحقوق والأوضاع القانونية التي يتمتع بها اليهود في أية دولة أخرى. ولكن الحكومة الإنجليزية لم تعامل أعداء الصهيونية برفق شديد، إذ إن بلفور أخبرهم بلغة تتسم بالحزم أن يوقفوا الهجوم على الصهيونية، فالمشروع الصهيوني يشكل جزءاً من المشروع الاستعماري الغربي وعليهم أن يعوا ذلك. وقد صدر الوعد في نهاية الأمر بسبب جهود الصهاينة الاستعماريين الغربيين غير اليهود، وبدأت سلسلة الأحداث والإجراءات التي أدت إلى إنشاء الدولة الصهيونية على الأرض الفلسطينية.

ولا يمكن فهم وعد بلفور بالعودة إلى التوراة والتلمود والبروتوكولات فهو بالدرجة الأولى صيغة جديدة من البراءات الاستعمارية التي كانت تمنح للمستوطنين الغربيين في آسيا وأفريقيا (كما يبين الدكتور جورج جبور في دراسته عن ظاهرة الاستيطان). وحينما أصدر وعد بلفور، سماه الصهاينة "الميثاق أو البراءة". فوعد بلفور كان الميثاق الذي يشبه البراءة التي منحت لرودس. وقد منحت براءة بلفور لليهود بعد تقسيم تركيا بطريقة لا تختلف كثيراً عن البراءات التي أعطيت لبعض الشركات الغربية في أعقاب تقسيم أفريقيا في مؤتمر برلين. وقد أصدرت بريطانيا البراءة بعد التفاوض مع الحلفاء، ووافقت عليه مسبقاً كلٌّ من فرنسا وإيطاليا، ثم أيدته الولايات المتحدة، فهو ليس وعداً إنجليزياً وإنما هو وعد غربي. كما أن المستعمرة اليهودية التي ستؤسس لن تكون تابعة لإنجلترا وحسب وإنما ستخدم المصالح الإمبريالية الغربية كافة. ولذا فإن ثمة مسافة بين الصهاينة والحكومة البريطانية رغم التزام إنجلترا بدعم المستوطن الصهيوني، إلا أنه كان من المتوقع أن يقع عبء العمل الاستيطاني نفسه على عاتق الصهاينة أنفسهم تماما كما هو الحال مع شركات الاستيطان). ويلاحظ أن براءة بلفور الاستيطانية، مثل البراءات الأخرى، صدرت دون استشارة السكان الأصليين ودون أخذ مصيرهم في الاعتبار.

ويمكن القول إن لورد بلفور الذي ارتبط اسمه بالوعد الذي أصدرته الحكومة البريطانية هو أهم شخصية في تاريخ الصهيونية (قبل إعلان الدولة). ويتصور البعض أن جهود بلفور الصهيونية هي تعبير عن حبه العميق لليهود، ولكن الواقع هو عكس ذلك. فبلفور كان يصدر عن الرؤية الألفية الاسترجاعية التي ترى اليهود باعتبارهم مجرد وسيلة للتعجيل بالخلاص سينقل إلى فلسطين لذبحه أو تنصيره. ويتجلي كره بلفور لليهود في تلك المقدمة التي كتبها لمؤلف سولوكوف تاريخ الصهيونية حيث يبدي معارضته لفكرة المستوطن البوذي أو المستوطن المسيحي. فالمسيحية والبوذية في رأيه هما مجرد أديان، ولكنه يقبل فكرة المستوطن اليهودي لأن "العرق والدين والوطن" أمور مترابطة بالنسبة إلى اليهود. كما أن ولاءهم لدينهم وعرقهم أعمق بكثير من ولائهم للدولة التي يعيشون فيها. وقد أعلن بلفور أن ولاء اليهود للدولة التي يعيشون فيها "ضعيف إذا ما قورن بولائهم لدينهم وعرقهم، وذلك نتيجة طريقتهم في الحياة ونتيجة عزلتهم، فهم لا يتزاوجون إلا من بني جنسهم". وهذا اتهام لليهود بأنهم جماعة لا تندمج كما أنها تعاني من ازدواج الولاء بل ومن انعدامه أحياناً، وهو اتهام يوجهه دائماً الصهاينة ومعادو اليهود لما يسمونه "الشخصية اليهودية".

إن هذا الشعب اليهود العضوي المتماسك يتميز أعضاؤه

بالنشاط والحركية. ولكن هذا الشعب العضوي المختار هو أيضاً "جماعة أجنبية معادية" تؤمن بدين هو محل كره متوارث من المحيطين بها، أدى وجودها في الحضارة الغربية إلى بؤس وشقاء استمرا دهراً من الزمان"، وهكذا يصبح الشعب العضوي شعباً عضوياً منبوذاً لا تستطيع الحضارة الغربية استيعابه، فهم يتسببون في كوارث تحيق بإنجلترا (كما فعل يهود اليديشية المهاجرون إليها).

وقد اعترف بلفور نفسه لوايزمان بأنه وجد نفسه متفقا مع افتراضات كوزيما فاجنر (ابنة الموسيقار) عن اليهود ومتقبلاً لها، وهي افتراضات معادية لليهود بشكل متطرف. لكل هذا، خلص بلفور إلى أنه ليس من مصلحة أي بلد أن يكون فيه يهود مهما بلغت وطنيتهم وانغماسهم في الحياة القومية. وانطلاقاً من كل هذا، تبنى قانون الغرباء الذي صدر بين عامي ١٩٠٣ و١٩٠٥ والذي كان يهدف إلى وضع حد لدخول يهود اليديشية إلى إنجلترا لخشيته من الشر الأكيد الذي قد يلحق ببلاده. وقد أدى موقفه هذا إلى الهجوم عليه من قبل المؤتمر الصهيوني السابع (١٩٠٥)، حيث وصفت تصريحاته بأنها "معاداة صريحة للشعب اليهودي بأسره"، كما هاجمته الصحافة البريطانية.

وقد يبدو الأمر لأول وهلة وكأنه نوع من التناقض الواضح الذي يقترب من الشيزوفرانيا، ولكن أفكار بلفور الاسترجاعية

(علمانية كانت أم دينية) تعبر عن رغبة في التخلص من اليهود وفي حوسلتهم (أي تحويلهم إلى وسيلة) لخدمة الحضارة الغربية. والواقع أن مفهوم الحوسلة هو الذي يفسر تأرجحه بين الحب والكره، فالحب هو حب لشعب عضوي مختار متماسك، ومن ثم فإنه لا ينتمي إلى مسار التاريخ الإنساني العادي ولا يمكن استيعابه في الحضارة الغربية، والكره هو أيضاً كره لشعب عضوي مختار متماسك يرفض الاندماج أو الانتماء لمسار التاريخ الإنساني العادي أو الحضارة الغربية. والنتيجة واحدة، حباً أو كرهاً، وهي نقل اليهود خارج أوربا وتوظيفهم في خدمة الحضارة الغربية. فالشعب العضوي المنبوذ لا يمكن أن يحل مشكلته داخل التشكيل الحضاري الغربي عن طريق الاندماج في المجتمعات الغربية، وإنما يمكنه حلها من داخل التشكيل الاستعماري الغربي عن طريق التحول إلى مادة استيطانية نافعة بيضاء توطن خارج أوربا (في أية بقعة في آسيا أو أفريقيا).

ويمكن أن نختم هذا الجزء بالإشارة إلى مارك سايكس (١٨٧٩-١٩١٩)، وهو دبلوماسي ورحالة بريطاني، كان يعد القوة المحركة للسياسة البريطانية الخاصة بفلسطين والتي أدت إلى إصدار وعد بلفور ثم الانتداب البريطاني على فلسطين. وكان وراء توقيع اتفاقية سايكس - بيكو الشهيرة لتقسيم مناطق النفوذ بين إنجلترا وفرنسا. وقد وضعت

فلسطين بمقتضي هذه الاتفاقية تحت إشراف إدارة دولية.

وكان سايكس - كما هي العادة مع الصهاينة غير اليهود - معادياً لليهود بشكلٍ صريح ويصدر عن مفهوم الشعب العضوي المنبوذ. فهو لم يضمر حبا لليهود فاليهودي بالنسبة له هو الممول العالمي (تماماً كما جاء في البروتوكولات). وينقسم اليهود - حسب تصوره - إلى قسمين: اليهود المتأنجلزون (أي المندمجون) الذين يتخلون عن هويتهم (العضوية)، ومن ثم يمكثون في بلادهم ولا يهاجرون منها، وكان سايكس يكن لهم احتقاراً عميقاً. وهناك من ناحية أخرى - العبراني الحقيقي (هذا الذي يترك إنجلترا ليستوطن في وطنه الأصلي الذي يرتبط به عضوياً)، وهؤلاء كان يحبهم سايكس، شأنه في هذا شأن النازيين وشأن كل من يرغب في أن "يعود" اليهود إلى "وطنهم القومي" في فلسطين، فتفرغ أوربا منهم.

الهوامش:

١- Encyclopedia of Zionism and Israel, Vol. II, "Restorationism".

2- Raphael Patai (Ed.), The Complete Diaries of Theodore Herzl, Trans. Harry

Zohn, 5 Vols. (New York: Herzl Press and Thomas Yoseloff, 1960), Vol.II, p. 759.

3- Leonard Stein, The Balfour Declaration (London: Valentine, Mitchell, 1961), p.9.

٤- رسالة كتبها وايزمان إلى تشرشل، ولكنه لم يرسلها قط. وردت في:

Richard A. Crossman, A Nation Reborn: The Israel of Weizman, Bevin and Ben Gurrion (London: Hamish Hamilton, 1969), p. 130.

5- Ibid.

6- Sokolov, History of Zionism, Vol. I, p.63.

7- George Jabbour, Settler Colonialism in Southern Africa and the Middle East (Beirut: PLO, Palestine Research Center, 1970), p. 22.

٨- أنظر المدخل عن محمد علي في:

A. W. Palmer, A. Dictionary of Modern History (1784-1945),, (London: Penguin Books, 1974).

9- Nahum Sokolov, History of Zionism 1600-1918, 2 Vols. (New York:: KTAV, Publishing Hous, 1964), Vol. p. 125.

10- Ibid.

11- Ibid. Vol. I. p. 132.

١٢- رجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية: جذورها في التاريخ الغربي، ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٥)، ص, ١١٤

١٣- Sokolov, History of Zionism, Vol. I, p. 109.

14- Ibid. Vol. I. p. 108.

15- Ibid. Vol. I. p. 127.

16- G.M. Trevelyn, English Social History: A Survey of six Centuries-Chaucer to Queen Victoria (London: Longmans, 1961), p. 563.

١٧- ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ص, ٩٠

١٨- المرجع السابق، ص, ٩١

١٩- Barbara W. Tuchman, Bible and Sword: England and Palestine From the Bronze Age to Balfour, (London: Alvin Redman, 1957), p. 115.

20- Ibid. Vol. I. p. 21.

21- Sokolov, History of Zionism, Vol. I, 123.

٢٢- ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ص. ٩١

٢٣- Sokolov, History of Zionism, Vol. I, pp. 207,229.

٢٤- يجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ص٩١

٢٥- Sokolov, History of Zionism, Vol. I, pp. 229,230.

26- Tuchman, Bible and Sword, p. 113.

27- Sokolov, History of Zionism, Vol. I, p. 231.

28- Tuchman, Bible and Sword, p. 128.

29- Sokolov, History of Zionism, Vol. I, p. 123.

٣٠- ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ص١١٨

٣١- Sokolov, History of Zionism, Vol. I, p. 123.

32- Tuchman, Bible and Sword, p. 174.

٣٣- أين عبد الله محمود، مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٤)، ص. ٣٤

٣٤- Sokolov, History of Zionism, Vol. I, p. 208.

35- Halbern, The Idea of the Jewish State, p. 262.

36- Tuchman, Bible and Sword, p. 174.

٣٧- حبيب قهوجي (مشرفاً)، استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة (دمشق: مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية، ١٩٧٨)، ص, ٥٨

٣٨- Sokolov, History of Zionism, Vol. I, p. 208.

39- Tuchman, Bible and Sword, p. 173.

٤٠- قهوجي، استراتيجية الاستيطان الصهيوني، ص, ٢٨

٤١- Tuchman, Bible and Sword, p. 173.

42- Cecil Roth (Ed.), Encyclopedia Judaicak 17 Vols. (New York: The Macmilla Company, 1971). "Oliphant, Laurence".

٤٣- م. بحيري، "الحركة الصهيونية منذ نشأتها"، في القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية ووزارة الدفاع الوطني، الجيش

اللبناني، الأركان العامة، الشعبة الخاصة، ١٩٧٣)، ص, ٢٢

٤٤- اعتمدت الدراسة في هذا الجزء على المصادر التالية:

- ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية.

- أمين عبد الله محمود، مشاريع الاستيطان اليهودي.

. - كتابي ليونارد شتاين Steinوناحوم سوكولوف Sok-olovاللذين سبق الإشارة إليهما.

- عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيري جديد، ٨ مجلدات(القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩)، م٦، ص٣٩- ٤٨,

الفصل الرابع
الإدراك الغربى لأعضاء الجماعات اليهودية

بيَّنا في الفصول السابقة بعض المصادر الغربية للرؤية الصهيونية للواقع (الفكر الاسترجاعي - الفكر الإمبريالي - الرومانسية - الفكر العنصري - النيتشوية). وقد أشرنا إلى أن الصهاينة تأثروا بالرؤية العنصرية الغربية المعادية لليهود لدرجة أنهم تبنوا النقد العنصري الغربي لليهود في نقدهم ليهود الدياسبورا- أي يهود العالم. وقد تبنى الصهاينة جوانب أخرى من الإدراك الغربي لليهود ثم أسقطوها على كل من العرب واليهود، فأدركوهم بنفس الطريقة التي أدرك بها الغرب أعضاء الجماعات اليهودية. وسنتناول بعض هذه الجوانب في هذا الفصل.

اليهود كعنصر نافع

أدرك الغرب أعضاء الجماعات اليهودية باعتبارهم عنصراً نافعاً يمكن توظيفه. وهذا النمط الإدراكي يعود إلى شيوع ظاهرة الجماعة الوظيفة في المجتمعات الغربية. والجماعة الوظيفية هي جماعة بشرية يستجلبها المجتمع لتضطلع بوظائف يأنف أعضاء المجتمع القيام بها لأنها مشينة

(البغاء)، أو لأنهم عاجزون عن القيام بها لأنها تتطلب أدوات وخبرات معينة (الطب وقَطع الماس)، أو لأسباب أخرى عديدة (الاعتبارات الأمنية)، وعادةً ما يُعرِّف عضو الجماعة الوظيفية في ضوء الوظيفة التي يضطلع بها، وفي ضوء مدى نجاحه أو إخفاقه في أدائها، أي في ضوء نفعه؛ هذا هو تعريفه وهذا هو إدراك مجتمع الأغلبية له: كانت الجماعات اليهودية تضطلع بدور الجماعة الوظيفية (القتالية والاستيطانية والأمنية) في العصور القديمة ثم تحولت إلى جماعات وظيفية تجارية في العصور الوسطى في الغرب - مادة بشرية نافعة يتم قبولها أو رفضها في إطار مدى النفع الذي سيعود على المجتمع من جراء وجودها.

هذا المفهوم الكامن في الفكر الغربي في العصور الوسطى، ازداد انتشاراً وتواتراً ووضوحاً مع علمنة الحضارة الغربية، ويمكن القول بأن الرؤية الغربية لليهود في العصر الحديث هي إعادة إنتاج لهذه الرؤية النفعية. ولكن يلاحظ أن الديباجات الدينية ازدادت خفوتاً (إلى أن تلاشت تماماً إلا من بعض التصريحات المضحكة عن التراث المسيحي - اليهودي). ولقد كان وضع اليهود مستقراً تماماً داخل

المجتمعات الغربية في العصور الوسطى كجماعة وظيفية وسيطة ذات نفع واضح. ثم بدأ هذا الوضع في التقلقل مع التحولات البنيوية العميقة التي خاضها المجتمع الغربي ابتداءً من القرن السادس عشر وظهور الثورة التجارية، ولم يعد من الممكن الاستمرار في الدفاع عن وجود اليهود من منظور فكرة الشعب الشاهد (الدينية). فظهرت فكرة العقيدة الألفية أو الاسترجاعية (البروتستانتية) التي تجعل الخلاص المسيحي مشروطاً بعودة اليهود إلى فلسطين. ولكن هذه الأسطورة ذاتها رغم نفعيتها وماديتها الواضحة لا تزال مرتبطة بالخطاب الديني، وكان لابد أن يتم الدفاع عن اليهود على أسس لا دينية، كما كان لابد من طرح أسطورة شرعية جديدة ذات طابع أكثر علمانية ومادية.

ويلاحظ تراجع الديباجات الدينية وبروز مفهوم المنفعة المادية في النصف الثاني من القرن السابع عشر، ومن منظور النفع الذي سيجلبونه على الاقتصاد الإنجليزي تم الدفاع عن عودة اليهود إلى إنجلترا، حيث نظر إليهم كما لو أنهم سلعة أو أداة إنتاج. وكان المدافعون عن توطين اليهود يتحدثون عن نقلهم على السفن الإنجليزية بما يتفق مع قانون الملاحة الذي

صدر آنذاك، والذي جعل نقل السلع من إنجلترا وإليها حكراً على السفن الإنجليزية.

ويبدو أن مفهوم نفع اليهود مفهوم متجذر في الوجدان الغربي تبناه الجميع. ولذا، فحينما قام أعداء اليهود بالهجوم عليهم من منظور ضررهم وعدم نفعهم، تبنى أعضاء الجماعات اليهودية نفس المنطق، فلم يدافعوا عن أنفسهم من منظور حقوقهم الأساسية والمطلقة كبشر وإنما بينوا أن حقوقهم تستند إلى نفعهم. فكتب سيمون لوتساتو (١٥٨٣-١٦٦٣)، وهو حاخام إيطالي، مقالاً تحت عنوان "مقال عن يهود البندقية" عَدَّد فيه الفوائد الكثيرة التي يمكن أن تعود على البندقية وعلى غيرها من الدول من وراء وجود اليهود فيها، فهم يضطلعون بوظائف لا يمكن لغيرهم الاضطلاع بها مثل التجارة. وهم يطورون فروعاً مختلفة من الاقتصاد، ولكنهم على عكس التجار الأجانب خاضعون لسلطة الدولة تماماً ولا يبحثون عن المشاركة فيها. وهم يقومون بشراء العقارات ومن ثم لا ينقلون أرباحهم خارج البلاد. ومن هذا المنظور، فإن اليهود يشبهون الرأسمال الأجنبي حيث لابد من الحفاظ عليه والدفاع عنه. وقد تبنى

الممول اليهوذي الهولندي منسي بن إسرائيل نفس المنطق في خطابه لكروموبل والذي طلب فيه السماح لليهود بالاستيطان في إنجلترا. كذلك تبنى أصدقاء اليهود المنطق ذاته، فطالب جوسيا تشايلد رئيس شركة الهند الشرقية (عام ١٦٩٣) بإعطاء الجنسية لليهود الموجودين في إنجلترا بالفعل، وأشار إلى أن هولندا قد فعلت ذلك، وازدهر اقتصادها بالتالي. كما كتب جون تولاند عام ١٧١٤ كتيبا مهماً للغاية عنوانه "الأسباب الداعية لمنح الجنسية لليهود الموجودين في بريطانيا العظمى وأيرلندا" دافع فيه عن نفع اليهود مستخدماً منطلقات لوتساتو.

ومن أهم المدافعين عن نفع اليهود الفيلسوف الفرنسي مونتسكيو، حيث بين أهمية دورهم في العصور الوسطى في الغرب، وكيف أن طرد اليهود ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم اضطرهم إلى اختراع خطاب التبادل لنقل أموالهم من بلد إلى آخر، ومن ثم أصبحت ثروات التجار غير قابلة للمصادرة وتمكنت التجارة من تحاشي العنف ومن أن تصبح نشاطاً مستقلاً، أي تم ترشيدها.

ولعل أدق وأطرف تعبير عن أطروحة نفع اليهود ما قاله

إديسون في مجلة إسبكتاتور في ٢٧ سبتمبر ١٧١٢ حين وصف بدقة تحول اليهود إلى أداة كاملة، فاليهود منتشرون في كافة الأماكن التجارية في العالم حتى أصبحوا الأداة التي تتحدث من خلالها الأمم التي تفصل بينها مسافات شاسعة والتي تترابط من خلالها الإنسانية، فهم مثل الأوتاد والمسامير في بناء شامخ، وعلى الرغم من أنهم ليس لهم قيمة في ذاتهم فإن أهميتهم مطلقة لاحتفاظ الهيكل بتماسكه.

وقد أصبح مفهوم نفع اليهود مفهوماً مركزياً في الحضارة الغربية مع ازدهار فكر حركة الاستنارة، ومع هيمنته شبه الكاملة على الفكر الفلسفي والأخلاقي الغربي. ومن أهم ركائز هذا الفكر في المجال الأخلاقي الفلسفة النفعية التي تنظر للعالم كله ولكافة مجالات الحياة من منظور المنفعة (المادية). وقد ظهر في هذه المرحلة فكر كل من آدم سميث في إنجلترا، والفيزيوقراط في فرنسا، حيث كان كلاهما يطالب الدولة بتنظيم ثروتها وزيادتها، كما كانا يتقبلان فكرة أن الهدف النهائي (والمطلق) لكل الأشياء هو مصلحة الدولة. وكان أعضاء الفريق الأول يرى أن الصناعة هي المصدر الأساسي للثروة، في حين كان أعضاء الفريق الثاني، بحكم

وجودهم في بُلد زراعي أساساً، يرون أن الزراعة هي المصدر الأساسي للثروة. ولكن، مع هذا، تظل فكرة المنفعة هي الفكرة الأساسية في فكر الفريقين.

ولابد وأن ندرك أن هذه المرحلة شهدت اهتزاز وضع أعضاء الجماعات اليهودية، فمع ظهور جماعات تجارية محلية، ومع تزايد سلطة الدولة المركزية، لم يعد وضع أعضاء الجماعات اليهودية قلقاً وحسب بل وبدأ يدخل مرحلة الأزمة. وتم طرح الحل في إطار مدى نفع اليهود للدولة، فأعلنت الأكاديمية الملكية في متز (فرنسا) عن مسابقة في عام ١٧٨٥ لكتابة بحث عن إمكانية جعل يهود فرنسا أكثر نفعاً وسعادة. ولو طرحنا حكاية السعادة جانباً باعتبارها ديباجات مريحة تساهم في عملية ترويج فكرة النفع، فإنه يمكننا القول بأن الغرب قد أدرك تماماً في عصر الاستنارة أن حل المسألة اليهودية يكمن في تحويل اليهود إلى مادة بشرية نافعة، وهو مصطلح أصبح شائعاً في الأدبيات الغربية عن اليهود منذ ذلك التاريخ. ومع هذا، يجب التنبه إلى أن هذا الإطار لم ينطبق على اليهود وحسب وإنما على كل البشر وعلى الطبيعة، فالفكر الاستناري حَوَّل الكون (الإنسان والطبيعة) إلى مادة

استعمالية يمكن توظيفها بكفاءة عالية.

وقد نشر الموظف البروسي كريستيان دوم كتابه الشهير عن نفع اليهود في عام ١٨٧١، حيث طالب بإعطاء اليهود حقوقهم المدنية حتى يصبحوا نافعين بالنسبة إلى دولة تريد أن تزيد من عدد سكانها وقوتها الإنتاجية. ويبين دوم أن اليهود مفضلون على أي مستوطنين جدد لأنهم ذوو جذور في البلاد التي يقطنونها (رأسمال محلى) أكثر من الأجنبي الذي يعيش في البلد بعض الوقت (رأسمال أجنبي). ومع هذا، طالب دوم بأن يُعتق اليهود لا باعتبارهم أفراداً وإنما باعتبارهم مجموعة عضوية متماسكة تعيش داخل الجيتو. ومعنى هذا أن دوم كان يود تحويل اليهود إلى مادة نافعة متماسكة تعيش وسط المجتمع الألماني، فيمكن لهذا المجتمع الاستفادة منها على ألا تصبح جزءاً منه، ويظل اليهود في المجتمع دون أن يكونوا فيه (وهذه هي الرؤية الغربية لإسرائيل: جيتو تابع للغرب يكون في الشرق دون أن يكون منه). وهذه ترجمة حديثة لرؤية الغرب لليهود كشعب شاهد أو كأداة للخلاص أو كجماعة وظيفية.

وقد نُشرت كتابات عديدة بأقلام الكتاب الفرنسيين الذين

ساهموا في الثورة الفرنسية مثل ميرابو وغيره، دافعوا فيها عن نفع اليهود أو إمكانية إصلاحهم أو تحويلهم إلى شخصيات نافعة منتجة. وموضوع نفع اليهود يشكل إحدى اللبنات الأساسية في كتابات السياسي الإنجليزي والمفكر الصهيوني المسيحي اللورد شافتسبري الذي اقترح توطين اليهود في فلسطين لأنهم جنس معروف بمهارته ومثابرته، ولأنهم سيوفرون رءوس الأموال المطلوبة، كما أنهم سيكونون بمثابة إسفين في سوريا يعود بالفائدة لا على إنجلترا بمفردها، وإنما على العالم الغربي بأسره. وتحويل اليهود إلى عنصر نافع عن طريق نقلهم إلى الشرق ليصبحوا مادة بشرية استيطانية هو الحل الغربي الاستعماري للمسألة اليهودية. ولذا فإننا نجد أن بلفور يكرر نفس هذه الآراء في مقدمته لكتاب ناحوم سوكولوف تاريخ الصهيونية.

وقد سيطر الفكر الفيزيوقراطي وفكر آدم سميث على كثير من الحكام المطلقين في أوربا، حيث كانت حكومات البلاد الثلاثة التي اقتسمت بولندا واليهود فيما بينها، في أواخر القرن الثامن عشر، يحكمها حكام مطلقون مستنيرون: فريدريك الثاني في بروسيا، وجوزيف الثاني في النمسا،

وكاترين الثانية في روسيا. فتبنت هذه الحكومات مقياس المنفعة تجاه أعضاء الجماعات اليهودية، فتم تقسيمهم إلى نافعين وغير نافعين. وكان الهدف هو إصلاح اليهود وزيادة عدد النافعين، وطرد الضارين منهم أو عدم زيادتهم. ونظراً لأن معظم أعضاء الجماعة اليهودية مركزون في التجارة، فقد أخذت عملية تحويل اليهود إلى عناصر نافعة شكل تشجيعهم على العمل في الصناعة أو الزراعة، وهو ما يسمّى "تحويل اليهود إلى قطاع اقتصادي منتج". كما كان لا يُعتق من اليهود سوى النافع منهم، وكان يُنظر لليهود كمادة بشرية وتُحد حريتهم في الزواج حتى لا يتكاثروا. وكان الشباب يجندون لمدد طويلة حتى يتم تحديثهم وتحويلهم إلى عناصر نافعة. ومن الحقائق المرعبة أن البغايا كن يعتبرن من العناصر النافعة ولذا منحن حرية التنقل. وقد أدى هذا إلى زيادة عدد البغايا اليهوديات زيادة واضحة.

قابل للترحيل

ولا يمكن فهم تاريخ الحركة الصهيونية ولا تاريخ العداء لليهود، بما في ذلك النازية، إلا في إطار مفهوم المنفعة المادية هذا. فقد تبنى المعادون لليهود هذا المفهوم وصدروا عنه في

رؤيتهم وأدبياتهم، فراحوا يؤكدون أن أعضاء الجماعات اليهودية شخصيات هامشية غير نافعة، بل وضارة يجب التخلص منها. وتدور معظم الأدبيات العنصرية الغربية في القرن التاسع عشر حول هذا الموضوع، وهناك أطروحة لها أصداؤها أيضاً في الأدبيات الماركسية، بما في ذلك أعمال ماركس نفسه، حيث يظهر اليهودي باعتباره ممثلاً للرأسمالي الطفيلي الذي يتركز في البورصة ولا يغامر أبداً بالدخول في الصناعة. وتظهر نفس الأطروحة في كتابات ماكس فيبر الذي يرى أن رأسمالية اليهود رأسمالية منبوذة، بمعنى أنها رأسمالية مرتبطة بالنظام الإقطاعي القديم ولا علاقة لها بالنظام الرأسمالي الجديد (ومن المفارقات أن اليهودي الذي كان رمزاً للرأسمال المحلى المتجذر، أصبح هنا رمز الرأسمال الأجنبي الطفيلي المستعد دائماً للرحيل والهرب).

وقد وصل هذا التيار إلى قمته في الفكر النازي الذي هاجم اليهود لطفيليتهم وللأضرار التي يلحقونها بالمجتمع الألماني وبالحضارة الغربية وقد قام النازيون بتقسيم اليهود بصرامة منهجية واضحة إلى قسمين:

أ) يهود غير قابلين للترحيل، وهم أكثر اليهود نفعاً:

ب) يهود قابلون للترحيل Transferable disposable ويستحسن التخلص منهم بوصفهم عناصر غير منتجة (أفواه تأكل ولا تنتج useless eaters حسب التعبير النازي المادي الرشيد الطريف) وبوصفهم عناصر غير نافعة لا أمل في إصلاحها أو في تحويلها إلى عناصر نافعة منتجة. (ومما يجدر ذكره والتأكيد عليه أن هذا التقسيم تقسيم عام شامل، غير مقصور على اليهود، فهو يسرى على الجميع، فقد صنف الألمان المعوقين والمتخلفين عقلياً وبعض العجزة والمثقفين البولنديين على أنهم "غير نافعين"، أي قابلين للترحيل ويستحسن التخلص منهم، وقد سويت حالة هؤلاء (بما في ذلك اليهود) عن طريق الترحيل إلى معسكرات السخرة أو الإبادة، حسب مقتضيات الظروف والحسابات النفعية المادية الرشيدة.

ومن المعروف أن من أهم وظائف أعضاء الجماعة الوظيفية القيام بوظيفة ما هي في جوهرها استغلال للجماهير لصالح النخبة الحاكمة. فتقوم الجماعة بتحصيل الضرائب من الجماهير أو امتصاص فائض القيمة منهم من خلال الإقراض بالربا أو التخصُّص في بيع سلعة معينة (مثل الملح)، أما

الخمور فقد كان يحتكرها الحاكم لحسابه. وكان أعضاء الجماعة الوظيفية يحققون بذلك أرباحاً عالية، ولكنهم بعد ذلك كان عليهم دفع الضرائب الباهظة للحاكم. ولذا، فقد كانت معظم الأرباح تصب مرة أخرى في خزائنه - أي أن أعضاء الجماعة الوظيفية اليهودية كانوا في واقع الأمر من أهم مصادر الربح للنخب الحاكمة في الغرب في العصور الوسطى. ومفهوم "الشعب النافع" هو استمرار لنفس هذه الرؤية وإعادة إنتاج لها داخل أطر حديثة.

وقد تقبَّل الصهاينة هذه الأطروحة النفعية المادية تماماً وأدركوا دور أعضاء الجماعات اليهودية داخل نفس الإطار. فنجد أن هرتزل يؤكد أن اليهود في أوربا فائض بشرى غير نافع داخل أوربا، ولكن يمكن تحويله إلى عنصر نافع للحضارة الغربية عن طريق نقله إلى الشرق (فلسطين على سبيل المثال) ليصبح عنصراً استيطانياً، أي أنه سيتم التخلص من اليهود وسيتم تحويلهم إلى عنصر نافع بضربة واحدة من خلال نقلهم وتحويلهم إلى مستوطنين في إطار الدولة الصهيونية الوظيفية المملوكية. ويتحدث ناحوم سوكولوف بنفس الطريقة عن اليهود ويقدم الاقتراحات الكفيلة

بتحويلهم إلى مادة نافعة. وكان مفكرو الصهيونية العمالية (جوردون - بوروخوف- سيركين) يؤكدون ضرورة تحويل الشعب الطفيلي اليهودي إلى عنصر نافع ومنتج من خلال غزو الحراسة والأرض والعمل والإنتاج. ويجب أن نشير هنا إلى ألفريد نوسيج الفنان الصهيوني الذي عاون هرتزل في تأسيس المنظمة الصهيونية وكان أحد زعماء الصهيونية في ألمانيا. وقد امتد به العمر إلى أن استولى النازيون على السلطة واحتلوا بولندا. فتعاون نوسيج مع الجستابو ووضع مخططاً لإبادة يهود أوربا باعتبارهم عناصر غير نافعة. وقد حاكمه يهود جيتو وارسو وأعدموه، وقد فعل رودولف كاستنر، المسئول الصهيوني في المجر، نفس الشيء حينما تفاوض مع أيخمان (المسئول النازي) بخصوص تسهيل نقل يهود المجر (باعتبارهم عناصر غير نافعة قابلة للترحيل والإبادة) في مقابل السماح لبعض الشباب اليهودي بالسفر إلى فلسطين والاستيطان فيها ("شباب من أفضل المواد البيولوجية" على حد قول أيخمان أثناء محاكمته).

والدولة الصهيونية الوظيفية النافعة تدور في نفس الإطار، فهي ستقوم بنفس الأعمال التي تقوم بها الجماعة الوظيفية

في العصور الوسطى، فتتحول الجماعة الوظيفية إلى دولة وظيفية تغرس في الشرق العربي في العصر الحديث. وستقوم هذه الدولة الوظيفية بنفس الأعمال المشينة التي كانت تقوم بها الجماعات الوظيفية، وهي أعمال لا يمكن للدول الغربية المحترمة أن تقوم بها نظراً لأنها دول ليبرالية وديمقراطية تود الحفاظ على صورتها المشرقة فتكل إلى الدولة الصهيونية بمثل هذه الأعمال. ومن هذه الوظائف تزويد دول أمريكا اللاتينية العسكرية بالسلاح، والتعاون مع جنوب أفريقيا في كثير من المجالات، بما في ذلك السلاح النووي، والقيام ببعض أعمال المخابرات والتجسس، والسماح للولايات المتحدة بإنشاء إذاعة موجهة فيها للاتحاد السوفيتي (سابقاً). كما تقوم الدولة الصهيونية بتوفير الجو الملائم والتسهيلات اللازمة للترفيه عن الجنود الأمريكيين. ويبدو أن الدولة الصهيونية الآن أصبحت مصدراً لكثير من المرتزقة في العالم، كما يبدو أنها بدأت في تصدير البغايا لبلدان غربية مثل هولندا (أمستردام) وألمانيا (فرانكفورت).

ولكن أهم وظائف الدولة الصهيونية على الإطلاق هي الوظيفة القتالية (لا التجارية أو المالية) فعائد الدولة الوظيفية

الأساسي عائد استراتيجي، والسلعة أو الخدمة الأساسية الشاملة التي تنتجها هي القتال: القتال في نظير المال– أي أنها وظيفة مملوكية بالدرجة الأولى. وفيما عدا ذلك، فإنها ديباجات اعتذارية وتفاصيل فرعية.

وقد تنبه أصدقاء الصهيونية وأعداؤها على السواء إلى طبيعة هذه العلاقة وطبيعة هذه الوظيفة منذ البداية، فتم الدفاع عن المشروع الصهيوني والترويج له من هذا المنظور، كما تم الهجوم عليه وشجبه من هذا المنطلق. فعلى سبيل المثال، صرح ماكس نوردو، في خطاب له في لندن (في ١٦ يونيه ١٩٢٠) بأنه يرى أن الدولة الصهيونية ستكون بلداً تحت وصاية بريطانيا العظمى وأن اليهود سيقفون حراساً على طول الطريق الذي تحف به المخاطر ويمتد عبر الشرقين الأدنى والأوسط حتى حدود الهند، وكان حاييم وايزمان كثير الإلحاح في تأكيد الأهمية الإستراتيجية (وليس الاقتصادية) للجيب الاستيطاني الصهيوني الذي سيشكل، حسب رأيه، "بلجيكا آسيوية"، أي خط دفاع أول لإنجلترا ولا سيما فيما يتعلق بقناة السويس.

وقد عرض ناحوم جولدمان القضية بشكل دقيق للغاية عام

١٩٤٧ في خطاب له ألقاه في مونتريال بكندا قال فيه "إن الدولة الصهيونية سوف تؤسس في فلسطين، لا لاعتبارات دينية أو اقتصادية بل لأن فلسطين هي ملتقى الطرق بين أوربا وآسيا وأفريقيا، ولأنها المركز الحقيقي للقوة السياسية العالمية والمركز العسكري الإستراتيجي للسيطرة على العالم". معنى هذا أن الدولة الصهيونية لن تنتج سلعاً بعينها ولن تقدم فرصاً للاستثمار أو سوقاً لتصريف السلع أو مصدراً للمواد الخام والمحاصيل الزراعية، وإنما سيتم تأسيسها لأنها ستقدم شيئاً مختلفاً ومغايراً وثميناً: دوراً إستراتيجياً يؤمِّن سيطرة الغرب على العالم، وهو دور سيكون له مردود اقتصادي دون شك - ولكن غير مباشر. وقد بيَّن ب. سبير (في علهمشمار بتاريخ ٢٩ أبريل ١٩٨٦) أن إسرائيل قد جعلت من جيشها الذراع المستقبلية المحتملة للولايات المتحدة، فهي خدمة حربية كامنة جاهزة على أهبة الاستعداد لتأدية الخدمات في أي وقت.

هذا هو المفهوم الغربي لإسرائيل. فالمدافعون عنها في الولايات المتحدة لا يلجئون أبداً إلى الحديث عن المغانم الاقتصادية الثانوية أو المغارم الاقتصادية التافهة، وإنما

يشيرون دائماً إلى الحليف الذي يمكن التعويل عليه، وإلى المغانم الإستراتيجية الأساسية الشاملة الهائلة. وقد عبرت مجلة الإيكونومست (في ٢٠ يوليه ١٩٨٥) عن موقف هؤلاء بقولها: إذا كان من الممكن لأمريكا أن تدفع ٣٠ بليون دولار كل عام ضمن تكاليف حلف الأطلنطي(لتحقيق أهداف إستراتيجية)، فإن من المؤكد أن إسرائيل، وهي المخفر الأمامي والقاعدة المحتملة، تستحق على الأقل مبلغاً تافهاً (نحو ٤ بلايين دولار مثلاً).

الدولة الوظيفية هي دولة يتم حوسلتها (أي تحويلها إلي وسيلة) لصالح الدول الراعية الإمبريالية، ولكن يبدو أن الحوسلة الصهيونية في حالة الحركة الصهيونية لن تتوقف عند الدولة الوظيفية، بل ستمتد لتشمل كل المادة البشرية اليهودية أينما كانت. وفي اجتماع بين هرتزل وفيكتور عمانوئيل الثالث، ملك إيطاليا، أشار الزعيم الصهيوني إلي أن نابليون دعا إلى عودة اليهود إلى فلسطين ليؤسسوا وطناً قومياً، ولكن ملك إيطاليا بيَّن له أن ما كان يريده في الواقع هو أن يجعل اليهود المشتتين في جميع أنحاء العالم عملاء له.

وقد اضطر هرتزل إلى الموافقة علي ما يقول، بل وأن يعترف بأن تشامبرلين، وزير الخارجية البريطاني، كان لديه أيضاً أفكار مماثلة. وكان هرتزل يفكر بأنه إذا وافقت إنجلترا على مشروعه الصهيوني، فإنها ستحصل "وفي ضربة واحدة" على عشرة ملايين تابع (عميل) سري في جميع أنحاء العالم يتسمون بالإخلاص والنشاط، وبإشارة واحدة سيضع كل واحد منهم نفسه في خدمة الدولة التي تقدم لهم العون. "إن إنجلترا ستحصل على عشرة ملايين عميل يضعون أنفسهم في خدمة جلالتها وضمن نفوذها". ثم أضاف هرتزل، مستخدماً الاستعارة التجارية التعاقدية الشائعة في الأدبيات الصهيونية "ثمة أشياء ذات قيمة عالية تكون من نصيب الشخص الذي يحصل عليها في وقت لم تكن بعد قد عرفت قيمتها الحقيقية العالية". وأعرب الزعيم الصهيوني عن أمله في أن تدرك إنجلترا مدى *القيمة والفائدة* التي ستعود عليها من وراء كسبها الشعب اليهودي، أي أن هرتزل مدرك تماماً لوظيفية *الدولة اليهودية والشعب اليهودي* ونفعهم وفائدة توظيف اليهود وحوسلتهم. وقد طبق الصهاينة نفس المفهوم على العرب، فهم قابلون للترحيل (الترانسفير)، ويمكن بقاؤهم

في الضفة الغربية طالما أنهم ذوي نفع. والسلطة الفلسطينية هي دولة وظيفية مهمتها إدارة "عرب المناطق" لصالح الدولة الصهيونية الراعية!

والواقع أن الخطة الصهيونية الخاصة بتسخير الشعب اليهودي جزء أساسي من العقيدة الصهيونية. ففي عام ١٩٢٠، عبَّر ماكس نوردو عن تفهمه العميق للدوافع التي حركت رجال السياسة البريطانيين الذين كانت تواجههم مشكلة التوازنات الدولية. وبعد القيام بحساباتهم، توصل هؤلاء الساسة إلى أن اليهود يعتبرون في الحقيقة "مصدر قوة" وربما "مصدر نفع" أيضاً لبريطانيا وحلفائها، ومن ثم عرضت عليهم فلسطين. وقد طبق الصهاينة نفس المفهوم على العرب، فهم قابلون للترحيل (الترانسفير)، ويمكن بقاؤهم في الضفة الغربية (المقابل الصهيوني لمعسكرات السخرة النازية) طالما أنهم ذوي نفع. والسلطة الفلسطينية هي دويلة وظيفية مهمتها إدارة "عرب المناطق لصالح الدولة الصهيونية".

الإدراك النازى والإدراك الصهيونى الحديث للآخر

الحضارة الغربية الحديثة حضارة داروينية تمجِّد القوة وتجعلها الآلية الوحيدة لحسم الصراعات، كما تجعل

مصلحتها معياراً وحيداً أوحد للحكم على الظواهر. وهي حضارة إمبريالية عنصرية تتمركز حول نفسها ولا ترى الآخر إلا باعتباره مادة استعمالية، وهذا هو جوهر كل من النازية والصهيونية. فإذا كانت النازية قد حوّلت اليهود وغيرهم إلى مادة استعمالية، فإن الصهاينة قد فعلوا ذلك مع الفلسطينيين. وإذا كان النازيون قد فرضوا رؤيتهم على الواقع بقوة السلاح، فإن الصهاينة لم يتوانوا عن استخدام نفس المنهج. هذا هو الإدراك الغربي الداروينى للآخر، وهذا هو أيضاً الإدراك النازي والصهيوني.

ويبدو أن الحضارة الغربية غير قادرة على مواجهة نفسها وعلى مواجهة هذه الحقيقة، ولذا فهم لا يكفُّون عن الثرثرة عن حقوق الإنسان وحقوق المرأة وحقوق الأطفال وحقوق القطط والكلاب... إلخ. أما الإبادة النازية ليهود أوربا، فبدلاً من رؤيتها على أنها ظاهرة متكررة في الحضارة الغربية الحديثة التي بدأت بإبادة السكان الأصليين في أمريكا الشمالية واستمرت حتى العصر الحديث في فيتنام والبوسنة والشيشان (مروراً بإبادة السكان الأصليين في أستراليا ونيوزيلندا وإبادة الملايين في أفريقيا)، نقول بدلاً من أن تدرك

الحضارة الغربية الإبادة النازية باعتبارها ظاهرة متكررة، فإنها تصنِّفها على أنها حدث فريد، ثم تستخدمها كستار من دخان لتخبئة ما يدور من مذابح في عالمنا.

لكن الأعمال الأدبية - في كثير من الأحيان - لا تعكس الواقع، وإنما تصوِّره تصويراً نقدياً. فأدب القرن التاسع عشر، بما في ذلك الأدب الرومانسي، كُتب إبَّان الثورة الصناعية وسيادة المفاهيم النفعية المادية، ومع هذا فقد وضع الأدباء نُصب أعينهم الهجوم على وحشية الثورة الصناعية ولا إنسانية المفاهيم النفعية المادية.

ونفس القول ينطبق على الرواية الخيالية التي كتبها عالِم اللغة البريطاني اليهودي جورج ستانير (بعنوان نقل أ. هـ. إلى سان كريستوبال)، فهي رواية تاريخية خيالية تدور حول حدث خيالي: العثور على هتلر حياً في إحدى غابات الأمازون، والقبض عليه من قِبَل بعض اليهود الذين اقتفوا أثره والذين قرروا محاكمته. والمحاكمة دون شك خيالية، ولكنها مع هذا تصل إلى كبد الحقيقة، إذ يبيِّن هتلر العلاقة الوثيقة بين الإدراك النازي والإدراك الصهيوني للواقع، مشيراً إلى أحد المفاهيم العنصرية الأساسية التي تبناها النازيون،

أي مفهوم التفاوت بين الأعراق والجنس الأرقى، فيقول مخاطباً اليهود الذين يقومون بمحاكمته:

"يجب أن تفهموا أنني لم أختر شيئاً. لم يكن الجنس المتفوق من بنات أحلام أدولف هتلر الذي كان يحلم باستعباد الشعوب الأدنى. أكاذيب. أكاذيب... لقد تعلمت قوتكم الخفية هناك، قوة تعاليمكم الخفية، تعاليمكم أنتم، فأنتم شعب مختار، شعب اختاره الله لنفسه، وعِرْقكم هو العِرْق الوحيد المختار على وجه الأرض... وجعله الإله فريداً دون البشر".

ثم يقتبس هتلر من العهد القديم، ويشير خصوصاً إلى بطولات يوشع بن نون، وهو بطل قومي/ديني يتواتر ذكره في الكتابات الصهيونية، ويوصف بأنه حرق المدن وخربها كليةً وأباد سكانها، نساءً ورجالاً وأطفالاً، حتى الحيوانات هي الأخرى أُبيدت بحد السيف. ولذا، فإن هتلر يرى أن كتاب اليهود المقدَّس تفوح منه رائحة الدم. ثم يُضيف قائلاً "لقد تعلمت أن أي شعب لابد أن يكون مختاراً كي يُحقق مصيره، وألا يكون هناك أي شعب آخر في نفس مرتبته: الأمة الحقيقية سر دفين، جسد واحد خلقه الله بإرادته وخلق دمها

الطاهر، خلقها سر الإرادة والاختيار، أن تهزم أرضها الموعودة وتستعبد كل من يقف في طريقها، وأن تعلن نفسها خالدة أبدية".

والمصطلح النازي الذي يستخدمه هتلر يُذكِّر المرء بالمصطلح الصهيوني، فكلاهما يأخذ المفاهيم الدينية ثم يقوم بعلمنتها وتجنيد الجماهير من خلالها، وبذلك تحوًّل مفهوم الشعب المختار إلى مفهوم الشعب العضوي (فولك) الذي يرتبط أعضاؤه بأرضهم وببعضهم البعض برباط عضوي أزلي، أنه "روح الشعب" أو"المصير الأزلي" أو"إله الشعب" إلى آخر هذه المطلقات والغيبيات العلمانية. ثم يستطرد هتلر قائلاً: "لم تكن عنصريتي سوى تقليد هزلي لعنصريتكم أنتم، تقليد هزيل. ماذا يكون الرايخ الذي سيدوم ألف عام بالقياس إلى صهيون الأبدية؟".

إن مؤلف الرواية يبين أن فكرة الشعب المختار فكرة عِرْقية، فكرة غربية قد يكون لها جذور يهودية، ولكنها أصبحت جزءاً من التراث الغربي. وقد ذكر هتلر في إحدى خطبه (الحقيقية) أنه لا يوجد سوى شعب مختار واحد هو الشعب الألماني. وقد بيًّن أحد أهم الزعماء والمنظرين النازيين، ألفريد

وزنبرج، أثناء محاكمته في نورمبرج أن نظرية التفاوت بين الأعراق هي جزء لا يتجزأ من الفكر الغربي. وأن رؤيته العِرْقية هي نتيجة أربعمائة عام من البحوث العلمية الغربية. ومن المعروف تاريخياً أن هتلر تشرَّب كثيراً من آرائه من الدراسات الإمبريالية/العنصرية التي انتشرت في أوربا آنذاك كالميكروب لتبرير المشروع الإمبريالي الغربي.

ولكن الأهم من هذا أن هتلر في مرافعته الخيالية وضع الإبادة النازية في سياق الحضارة الغربية باعتبارها حضارة إبادية لا تتردد في إزالة الآخر من طريقها (فهو من الناحية العِرْقية يشغل مكانة أدنى، ولذا لا يستحق الحياة): "أنا لم أخلق القبح، ولم أكن أسوأ القبحاء. بل إن الأمر أبعد ما يكون عن ذلك.. كم عدد التعساء الصغار الذين قتلهم أصدقاؤكم (المستعمرون) البلجيك في الغابات - إما بشكل مباشر أو بتركهم يموتون جوعاً أو من مرض الزهري حينما اغتصبوا الكونغو؟ أجيبو عليَّ يا سادة. أم يجب عليَّ أن أذكركم؟ عشرون مليوناً! هذه النزهة الخلوية كانت قد بدأت وكنت أنا في المهد صبياً؟ في لعبة الأرقام السوداء لست أسوأ اللاعبين". ثم يؤكد هتلر أن ستالين ارتكب هو الآخر

جرائم تفوق جرائمه هو كيفاً وعدداً.

وما لم يذكره هتلر في دفاعه عن نفسه في المحاكمة الخيالية وقائع الإبادة المختلفة في التاريخ الغربي الحديث. ولكننا نعرف أنه في أحاديثه الخاصة (الحقيقية) كثيراً ما كان يبدي إعجابه بالمستوطنين الأمريكيين البيض وطريقة "معالجتهم" لقضية الهنود الحمر. وقد صرح هتلر في إحدى خطبه أن الحرب التي تخوضها ألمانيا ضد عناصر المقاومة في شرق أوربا لا تختلف كثيراً عن كفاح البيض في أمريكا الشمالية ضد الهنود الحمر. ومن هنا كان هتلر يشير إلى أوربا الشرقية باعتبارها "أرضاً عذراء" أو "صحراء مهجورة"، تماماً كما كان يتحدث الصهاينة عن "أرض بلا شعب" وعن فلسطين باعتبارها "صحراء ومستنقعات".

بعد أن وضع هتلر الإبادة النازية ليهود أوربا في سياقها الحضاري الغربي العريض، فإنه يضعها في سياق ألماني يهودي: رفض اليهود الاندماجيين للنازية وترحيب الصهاينة بها - التعاون بين الصهاينة والنازيين - الصهيونية في علاقتها النظرية والفعلية مع النازية! فكشف عن كثير من حقائق التعاون بين النازيين والصهاينة. يقول هتلر في

مرافعته الخيالية في نفس الرواية المشار إليها:

"هذا الكتابُ الغريب المسمى الدولة اليهودية (كتاب هرتزل والإنجيل الصهيوني) قرأته بعناية بالغة. إن كلماته جاءت من أعماق بسمارك (والعسكرية البروسية): اللغة، الأفكار وحتى النبرة نفسها. إني أتفق معكم أنه كتاب ذكي صاغ الصهيونية على شاكلة الأمة الألمانية الجديدة. ولكن من الذي خلق إسرائيل في واقع الأمر، هرتزل أم أنا؟ انظروا إلى السؤال دون تحيز؟ هل كان من الممكن أن تصبح فلسطين إسرائيل.. دون مذبحة الإبادة التي قمت بها. إن مذبحتي هي التي أعطتكم شجاعة الظلم التي جعلتكم تطردون العربي من منزله وحقله لأنه كان يقف في طريقكم. هذا هو الذي جعلكم قادرين على تحمل معرفة أن هؤلاء الذين قمتم بطردهم يجلسون يكاد يأكلهم العفن في معسكرات اللاجئين، على بُعد أقل من عشرة أميال (من وطنهم)، مدفونين أحياء في بؤسهم".

ولم يذكر الروائي، على لسان هتلر، معاهدة الهعفراه بين النازيين والصهاينة التي أنقذت الجيب الصهيوني من الهلاك، إذ أنه كان يعاني من توقف الهجرة الاستيطانية ومن تدفق

رؤوس الأموال، الأمر الذي تكفل به النازيون (نظير أن يقوم الصهاينة بكسر طوق المقاطعة اليهودية للبضائع الألمانية). ولهذا قال أحد المعلقين: إذا كان هرتزل هو ماركس الصهيونية (أي منظرها)، فإن هتلر هو لينينها (أي من حول النظرية إلى واقع سياسي).

وما لم يذكره مؤلف الزواية أيضاً أن جابوتنسكي (الأب الروحي لشارون ولحزب الليكود) كان من أشد المعجبين بهتلر وموسوليني. فمجلة الجبهة الوطنية National Front، التي كان يصدرها "الاتحاد العالمي للصهاينة المراجعين" وكانت تعبر عن آراء جابوتنسكي، قالت في عددها الصادر في ٣٠ مارس ١٩٣٣: أن الاشتراكيين والديمقراطيين يصفون حركة هتلر بأنها مجرد قشرة، ويمكننا أن نرى أنها قشرة تغطي ثمرة، والقشرة هي معاداة السامية، أما الثمرة فهي تحقيق الهدف الصهيوني المتمثل في تهجير أعدادٍ غفيرة من يهود أوروبا للاستيطان في فلسطين. وقد أضاف إلياهو كوهين، وهو محامٍ في حزب جابوتنسكي، قائلاً: "لو أن أتباع هتلر خففوا في برامجهم من كرههم لليهود، فإنهم سيحظون بتأييدنا ". وقد قال أحد زعماء الحركة التصحيحية: "نحن

التصحيحيين نكن الإعجاب الشديد لهتلر، فهو الذي أنقذ ألمانيا، ولولاه لهلكت خلال أربعة أعوام وسنتبعه إن هو تخلي عن عدائه لليهود".

وقد أسس أحد أتباع جابوتنسكي ما يسمَّى "عصبة الأشداء" (أي الأقوياء) (بالعبرية: بريت هابر يونيم)، وهي جماعة ذات طابع نازي واضح. وكان من بين هتافات أعضاء العصبة "ألمانيا لهتلر، وإيطاليا لموسوليني، وفلسطين لجابوتنسكي".

وقد أرسلت جماعة ستيرن الصهيونية للحكومة النازية مذكرةً تتصل بإيجاد حل للمسألة اليهودية في أوربا واشتراك أعضاء جماعة ستيرن إلى جانب القوات النازية في الحرب ضد قوات الحلفاء. وتنص المذكرة على أن إجلاء الجماهير اليهودية من أوربا هو شرط مسبق لحل المسألة اليهودية. وقد عبَّر كاتب الوثيقة عن وجود نقط تماثل بين النازية والصهيونية. كما تذكر الوثيقة وجود مصالح مشتركة بين النازيين والصهيونية، وتعبِّر عن تقدير جماعة ستيرن للرايخ الثالث لتشجيعه النشاط الصهيوني داخل ألمانيا وللهجرة الصهيونية إلى فلسطين. وتؤكد الوثيقة ضرورة التعاون بين

ألمانيا الجديدة و"الشعب اليهودي" في المجالين السياسي والعسكري.

وقد يُقال إن هذا شكل من أشكال التطرف الذي لا يعبر عن التيار الأساسي داخل الصهيونية، أو أن جماعة ستيرن كانت مجرد "انحرافٍ" عن الإجماع الصهيوني، ولكن لدينا من الوثائق ما يدل على أن التيار الأساسي في الحركة الصهيونية آنذاك كان هو الآخر نازي الهوى. ففي ٢١ يونيو/حزيران ١٩٣٣، أي بعد وصول النازيين إلى السلطة، أصدرت المنظمة الصهيونية في ألمانيا "إعلان الاتحاد الصهيوني بشأن وضع اليهود في دولة ألمانيا الجديدة"، Ausserung der Zionistischen Vereinigung fur Deutschland zur Stellung der Juden im Neuen Deutschen Staat، والذي حدَّد طبيعة علاقة الصهاينة بالنظام النازي بشكل واضح لا إبهام فيه. وقد اتخذ الإعلان شكل مذكرة أُرسلت مباشرةً إلى الحزب النازي وهتلر وتم من خلالها تحديد المقولات المشتركة بين النازيين والصهاينة. بدأت المذكرة/الإعلان بتأكيد إمكانية التوصل إلى حلٍ يتفق مع المبادئ الأساسية للدولة الألمانية الجديدة، دولة البعث القومي،

ثم طرحت أمام اليهود طريقة جديدة لتنظيم وجودهم. وانتقلت المذكرة بعد ذلك لعرض إطارها السوسيولوجي، فقامت بانتقاد الشخصية اليهودية التي تتسم بالكسل، وبيَّنت أن صعوبة وضع اليهود تنبع من شذوذ النمط الوظيفي الذي يتبعونه، ومن الخلل الكامن في كونهم جماعة تتخذ مواقف فكرية أخلاقية غير متجذرة في تقاليدهم الحضارية الخاصة (أي أنهم قومية عضوية توجد خارج أرضها). وبعد أن تبنت المذكرة هذا النقد النازي لليهود، انتقلت لإيضاح نقط الالتقاء الفلسفية والنظرية بين الصهيونية والنازية، فأكدت أن الصهيونية مثل النازية تمزج الدين بالقومية، فالأصل والدين ووحدة المصير والوعي الجمعي يجب أن تكون كلها ذات دلالة حاسمة في صياغة حياة اليهود. كما أكدت المذكرة أن المنظمة تقبل مبدأ العِرْق، أحد ثوابت الرؤية النازية، كأساس لتصنيف الأفراد والجماعات المختلفة ولإنشاء علاقة واضحة مع الشعب الألماني وحقائقه القومية والعِرْقية. وقامت المذكرة بتعريف اليهود تعريفاً عِرْقياً، مبينةً أن هدف الصهيونية هو التصدي للزيجات المختلطة والحفاظ على نقاء الجماعة اليهودية.

هذا هو الإطار الفلسفي الذي اقترحته المنظمة الصهيونية

لتحديد العلاقة بين الصهاينة والنظام النازي، مؤكدةً على إمكان تحويله إلى ممارسة وإجراءات. وقد طرحت المنظمة الصهيونية نفسها باعتبارها الحركة الوحيدة القادرة على أن تأتي بحل للمسألة اليهودية يحوز رضا الدولة النازية الجديدة ويتفق مع خُططها، حل يهدف إلى بعث اليهود من الناحية الاجتماعية والثقافية والأخلاقية في إطار فكرة الشعب العضوي ويتبع النموذج النازي. ثم يمضي البيان موضحاً الهدف الصهيوني بجلاء فيقول "على تربة الدولة الجديدة، ألمانيا النازية، نريد أن نعيد صياغة بنية جماعتنا بأكملها بطريقة تفيد ألمانيا واليهود في المجال المخصص لهم، فهدف الصهيونية هو تنظيم هجرة اليهود إلى فلسطين".

ولكل هذا، قام النظام النازي بتشجيع النشاط الصهيوني ودعم المؤسسات الصهيونية والسماح للمنظمات الصهيونية بممارسة جميع أنشطتها من تعليم وتدريب على الاستيطان، فضلاً عن نشر مجلاتها، بينما مُنع الداعون إلى اندماج اليهود في مجتمعاتهم وكذلك اليهود الأرثونكس من إلقاء الخطب، أو الإدلاء بتصريحات، أو جمع التبرعات أو مزاولة أي نشاط آخر. وقد قام كورت جروسمان، في كتاب هرتزل

السنوي (الجزء الرابع)، بدراسة الموضوع، ونشره تحت عنوان "الصهاينة وغير الصهاينة تحت حكم النازي في الثلاثينيات". وألحق الكاتب بالمقال ثماني وثائق نازية تحمل كلها توجيهات للشرطة خاصة بتنظيم النشاط اليهودي في ألمانيا النازية. وأول هذه التوجيهات (رقم ٣٦٤٢٠/٨١١٢٤) بتاريخ ٢٠ فبراير ١٩٣٥ أنه "يجب حل المنظمات اليهودية التي تدعو إلى بقاء اليهود في ألمانيا". وقد مُنع مواطن صهيوني (جورج لوبنسكر) عن طريق الخطأ من إلقاء الخطب، ثم صدر توجيه آخر (رقم ١٩١٠٦/١١٣٥١ ب) ليصحح هذا الوضع، وصدر أمر بالسماح له بممارسة نشاطه" لأنه مدافع بليغ عن الفكرة الصهيونية وتعهد بأن يساعد على هجرة اليهود في المستقبل دون أية عوائق".

وهنا لابد أن نسأل عن الصلة بين عمليات تهجير اليهود إلى الخارج وعمليات الإبادة التي نظمها النازيون وراح ضحيتها كثير من اليهود وغيرهم من السلافيين والغجر والعجزة ومعارضي النازية؟ إن ما تجدر ملاحظته هنا هو أن عملية نقل اليهود تلك لم تكن بأيةِ حالٍ نقيضاً لعملية الإبادة، فكلتاهما تصدران عن الإيمان بضرورة التخلص من يهود

أوربا، إذ ينظر إليهم النازيون باعتبارهم "فائضاً بشرياً طفيلياً لا نفع له" وينبغي القضاء عليه أو نفيه خارج أوربا، بينما يرى الصهاينة أن اليهود يمثلون عنصراً غريباً داخل النسيج الأوربي وأن استمرار وجودهم في أوربا هو جذر "المشكلة اليهودية"، ومن ثم ينبغي إفراغ أوربا منهم. وما دام الهدف واحداً، فلا يهم بعد ذلك أن يتحقق من خلال "النقل" أو "القتل".

إن ما أوردناه حتى الآن يعطينا الحق في أن نشير للأيديولوجية الصهيونية ككل باعتبارها أيديولوجية عِرْقية نازية، فقانون العودة الصهيوني (الذي يعتبره بن جوريون العمود الفقري للمستوطن الصهيوني) يفتح أبواب إسرائيل على مصراعيه لأي يهودي يود الاستيطان في أرض فلسطين المحتلة، وينكر هذا الحق الإنساني البسيط على أي فلسطيني اضطر إلى ترك وطنه تحت تهديد السلاح منذ بضع سنوات. كل هذا بهدف تأسيس دولة يهودية خالصة لا تختلف كثيراً في منطلقاتها عن الدولة النازية.

وقد قارن كثير من الكُتَّاب اليهود والإسرائيليين بين قانون العودة والقوانين النازية. فعلى سبيل المثال، أعرب الأستاذ

الإسرائيلي د. كونفيتس - خلال النقاش الذي دار قبل الموافقة على قانونُ العودة - عن مخاوفه من احتمال مقارنة هذا القانون بالقوانين النازية ما دام يُجسِّد مبدأ التمييز بين الأفراد على أساس ديني أو عِرْقي.

وبعد صدور هذا القانون، حذَّرت جريدة جويش نيوزلتر، في عددها الصادر في ١٢ مايو ١٩٥٢، من أن هذا القانون يعيد إلى الذاكرة النظرية العنصرية الخطيرة القائلة بأن الفرد الألماني يتمتع بمزايا جنسيته، بغض النظر عن المكان الذي يوجد فيه.

وفي مقارنة عقدها روفن جراس بين قانون العودة والقوانين النازية، بيَّن أن قانون العودة يمنح امتيازات الهجرة لأيٍّ يهودي بموجب تعريف قوانين نيورمبرج: أي أن يكون جده يهودياً. ويؤكد حاييم كوهين، الذي كان قاضياً بالمحكمة العليا في إسرائيل، أن "من سخرية الأقدار المريرة أن تُستخدَم نفس الأطروحات البيولوجية والعنصرية التي روَّج لها النازيون والتي أوحت لهم بقوانين نيورمبرج الشائنة، كأساس لتعريف الوضع اليهودي داخل دولة إسرائيل". وهناك، على الأقل، حالة واحدة معروفة قامت فيها السلطات

الدينية في إسرائيل بالرجوع إلى السجلات النازية للتأكد من الهوية العنصرية الدينية الإثنية لأحد المواطنين الإسرائيليين.

وإلى جانب قانون العودة، هناك عشرات من الممارسات الصهيونية الأخرى ذات الطابع العنصري الفاقع الذي يبرر استخدام كلمة "نازي". خذ، على سبيل المثال، قوانين الصندوق القومي اليهودي التي تنص على أن هذا الصندوق يقدِّم الدعم لليهود ولليهود وحدهم، كما أن أحد بنوده تقرر أنه لا يمكن تأجير أرض يمتلكها الشعب اليهودي لغير اليهود، مما يعني أن ٩٠٪ من أرض فلسطين المحتلة لا يمكن لغير اليهود (أي العرب) أن يعملوا فيها أو في المستوطنات الزراعية المقامة عليها أو حتى أن يستأجروا شقة في عمارة مقامة على هذه الأرض.

إن الإدراك النازي لليهود لا يختلف كثيراً عن الإدراك الصهيوني للعرب. ولذا، لم يكن من الغريب أن أحد الضباط الإسرائيليين نصح بعض المتدربين أن يستعدوا للحرب في المدن الفلسطينية بأن يتعلموا كيف نجح النازيون في إضعاف جيتو وارسو(هآرتس -٢٥ يناير ٢٠٠٢).

الإدراك النازى لمفهوم الحكم الذاتى

قام الصهاينة وأصدقاؤهم بكتابة تاريخ النازية بطريقة تُعبِّر عن رؤيتهم وتخدم مصالحهم. ولذا، أرى من الهام جداً أن نعيد كتابة تاريخ النازية (بل وتاريخ الحضارة الغربية ككل) من منظور عربي، بدلاً من تلقى التواريخ التي كتبوها، وبدلاً من قبول طريقة تنظيمهم للأحداث وتفسيرها، فيبقون بعضها ويركزون عليه، ويستبعدون البعض الآخر أو يهمشونه. ومن التجارب النازية الهامة، التي تُذكر وكأنها واقعة عرضية لا أهمية لها، تجارب الحكم الذاتي اليهودية التي أقامتها السلطة النازية في كثير من بقاع أوربا. وتحرص التواريخ الصهيونية على إخفاء هذه الوقائع أو التجارب التاريخية لأنها تبيِّن تشابه الرؤية النازية بالرؤية الصهيونية، وتبيِّن أن ثمة تعاوناً تم بين الطرفين. فقد أسس النازيون جيتوات كانت تأخذ شكل مناطق "قومية" تتمتع بقدر كبير من الاستقلال، فكان يتم إخلاء رقعة من إحدى المدن من غير اليهود ثم يُنقل إليها عشرات الآلاف من اليهود. ومن أشهر هذه المناطق جيتو وارسو ولودز وريجا في بولندا ومستوطنة تيريس ينشتات "النموذجية" في بوهيميا في المجر. وقد اكتسبت هذه التجارب في الحكم الذاتي أهمية خاصة هذه الأيام بعد توقيع

الاتفاقيات الأخيرة، لأنها قد تُلقي بعض الضوء على التصور الإسرائيلي للحكم الذاتي الفلسطيني في الضفة الغربية.

ويُعدُّ جيتو وارسو أهم مناطق الحكم الذاتي اليهودي، فقد بلغ عدد القاطنين فيه عام ١٩٤١ حوالي نصف مليون يهودي يعيشون في رقعة صغيرة حولها حائط طوله ثمانية أقدام، وكان له اثنان وعشرون مدخلاً يقف على كلٍّ منها ثلاثة جنود أحدهم ألماني والثاني بولندي مسيحي والثالث بولندي يهودي. وقد كان التعريف الذي تبناه الألمان للهوية اليهودية هو تعريف قوانين نيورمبرج وهو أن اليهودي يهودي بالمولد وليس بالعقيدة (وهو التعريف الذي تبنته دولة إسرائيل فيما بعد).

ويجب النظر إلى تجربة الجيتو هذه في ضوء المخطط النازي ذي الطابع الصهيوني الواضح الذي ينطلق من تصور استقلال اليهود كشعب عضوي منبوذ ومتدنٍ له شخصيته القومية المستقلة (وهذا هو جوهر الإدراك الغربي العنصري لليهود). وحيث أنه يمكن توظيف اليهود وتحويلهم إلى مصدر للعمالة الرخيصة، كان للجيتو مؤسساته المستقلة الخاصة به (عملة خاصة - وسائل نقل خاصة - خدمة بريدية - مؤسسات الرفاه الاجتماعي) التي تسهل هذه العملية. وقد

سُمِحَ لجيتو وارسو بأن يكون له نظامه التعليمي، وبأن يفتح المكتبات لبيع الكتب واستعارتها، وبأن يصدر جريدته اليومية، بل وكان لهم ميليشيا ومحاكم خاصة به، أي أن الجيتو كان بمثابة دويلة صغيرة منعزلة ثقافياً واقتصادياً عما حولها.

وقد كان يدير الدويلة - الجيتو "سلطة يهودية" أو "مجلس كبراء" كانت السلطات النازية تُعيِّن أعضاءه. ولكن استقلالية الدويلة - الجيتو لم تكن كاملة، إذ كان الجيتو يقوم باستيراد كل المواد الخام والطعام والملابس التي يحتاجها من سلطة الاحتلال النازية على أن يسدد ثمن الواردات بالمنتجات الصناعية (الملابس والمصنوعات الجلدية) التي كان ينتجها الجيتو. كما كان على المجلس أن يقدم عدداً من العمال يومياً يبيعون عملهم لتسديد واردات الجيتو. وقد كان العامل البولندي، يهودياً كان أم غير يهودي، يتقاضى رُبع ما يتقاضاه العامل الألماني.

ويبدو أن النازيين قد وضعوا مخططاً لإبادة يهود جيتو وارسو من خلال فرض وضع غير متكافئ عليهم بحيث يمكن استنزافهم لصالح النازيين، إذ أن قيمة السلع التي كان ينتجها الجيتو والخدمات التي يقدمها كانت دائماً دون حد

الكفاف ولا تفي باحتياجات العاملين اليهود الأساسيين، وهو ما كان يعني سوء التغذية داخل الجيتو وتناقص عدد سكانه مع ضمان تدفق فائض القيمة بشكل مستمر إلى النازيين. وقد أدّى عدم تكافؤ العلاقة بين الدولة النازية والجيتو- الدويلة اليهودية إلى أن السكان زادوا فقراً وزادت حاجتهم إلى المواد الغذائية، فكانوا يموتون جوعاً، أي أن الهدف كان إبادة اليهود بالتدريج وببطء دون أفران غاز.

وقد قام أحد الباحثين بدراسة إحصائية دقيقة لهذه الإبادة التدريجية البطيئة مستخدماً جيتو وارسو أساساً لدراسة الحالة. فأشار إلى أنه في الفترة من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٢، أي في خلال ستة وثلاثين شهراً، زاد عدد الوفيات بشكل ملحوظ. فقد كان معدل الوفيات بين أعضاء الجماعة اليهودية قبل الحرب ٣٥٠ كل شهر وحسب، أي أنه كان من المفروض أن يكون عدد الوفيات ١٢,٦٠٠ فقط لو أن المعدل استمر في معدله الطبيعي، ولكن الجوع والمرض (وكذا غارات الحلفاء وأحكام الإعدام) أدّت معاً إلى موت ٨٨,٥٦٨، أي ١٩٪ من مجموع سكان جيتو وارسو البالغ عددهم خمسمائة ألف، مما يعني أنه كان من الممكن إبادة كل سكان الجيتو

خلال ثمانية أعوام دون أفران غاز. ويمكن أن نضيف أن هذه العملية كانت ستتسارع نحو النهاية بسبب زيادة ضعف وهزال سكان الجيتو، ولذا فإن ما بين خمس إلى ست سنوات كانت كافية في تصورنا لإتمام هذه العملية.

وعلاقة الدولة النازية بدويلة - جيتو وارسو كانت علاقة كولونيالية لا تختلف كثيراً عن علاقة إنجلترا بمستعمراتها أو علاقة الدولة الصهيونية بالضفة الغربية. وربما كان الفارق الأساسي هو درجة التحكم، إذ أن جيتو وارسو كان كياناً صغيراً متخلفاً، ومن ثم كان يمكن التحكم فيه بدرجة كاملة أو شبه كاملة، على عكس الضفة الغربية حيث يوجد كيان حضاري مركب يعود إلى أعماق آلاف السنين ويتسم بتجذره، الأمر الذي يجعل مصادر الحياة فيه متنوعة. وكل هذا يجعل التحكم فيه صعباً إن لم يكن مستحيلاً.

أما التجربة الثانية من تجارب الحكم الذاتي التي تهمنا فهي تجربة مستوطنة تيريس ينشتات النموذجية Theres einstadt. التي أُسِّست عام ١٩٤١ واستمرت حتى عام ١٩٤٥. وقد رُحِّل إليها حوالي ١٥٠,٠٠٠ يهودي من وسط أوربا وغربها من المتميِّزين أو المسنين أو اليهود من أبناء

الزيجات المختلطة. وقد أيد زعماء الجماعة اليهودية في تشيكوسلوفاكيا الخطة باعتبار أن هذا كان يعني أن يهود تشيكوسلوفاكيا سيبقون في وطنهم. ويقال أن الهدف النازي من تأسيس هذه المستوطنة النموذجية كان إعلامياً بحيث تقدم للإعلام العالمي باعتبارها مثالاً على "حياة اليهود الجديدة تحت حماية الرايخ الثالث" (وهو اسم أحد الأفلام التي صُورت في المستوطنة).

وقد أدار المستوطنة مجلس من الكبراء يضم القادة اليهود ويترأسه أحد كبراء اليهود كانت تعينه السلطات الألمانية. وقد تمتعت المستوطنة بحريات كثيرة، فقد كان لها نظامها التعليمي ونظامها البريدي المستقل ومكتباتها وهويتها الثقافية. ومن ثم، كانت من مسئوليات مجلس الكبراء الحفاظ على النظام في المستوطنة وتوزيع العمل فيها وتوطين المستوطنين الجدد والعناية بالصحة وبالمسنين والأطفال والإشراف على النشاط الثقافي. كما كان يتبع المستوطنة نظام قضائي مستقل (أي أن تيريس ينشتات كانت تتمتع بالحكم الذاتي). وقد سمحت السلطات النازية لسلطات الصليب الأحمر بزيارة المستوطنة وبالاجتماع بمجلس الكبراء.

وقد رُحِّل حوالي ١٤٠,٩٣٧ يهودياً إلى مستوطنة تيريس ينشتات من بينهم ٣٣,٥٢٩ ماتوا فيها، أي حوالي ٢٥٪، ورُحِّل حوالي ٨٨,١٩٦ إلى معسكرات الاعتقال والإبادة، وكان يوجد فيها ١٧,٢٤٧ حين تم تحرير المستوطنة ولا تختلف علاقة المستوطنة بالسلطات النازية عن علاقة أي دولة في العالم الثالث بالقوة الإمبريالية التي تحكمها، والحريات التي كان يتمتع بها سكان المستوطنة لا تزيد كثيراً عن تلك التي تعرضها الحكومة الصهيونية على سكان الضفة الغربية باسم الحكم الذاتي.

ولعل مزيداً من دراسة مثل هذه "الدويلات المستقلة" ذات الأعلام وطوابع البريد تلقى مزيداً من الضوء على التفكير الصهيوني بخصوص مستقبل فلسطين والفلسطينيين. وهذا أمر يجب أن يضعه الفلسطينيون نصب أعينهم. وعلى كلٍّ، هناك تجارب جنوب أفريقيا في هذا المجال حين أقامت كانتونات السكان الأصليين التي كانت تُسمَّى "البانتوستان" وهي تجارب مماثلة تستحق الدراسة.

الإدراك الغربى والصهيونى لحروب الفرنجة (الصليبين)

على الرغم من أن حروب الفرنجة ظاهرة مرتبطة بالتشكيل

الحضاري الغربي في العصر الوسيط، فقد ساهمت هذه الحروب وبعمق في صياغة الإدراك الغربي لفلسطين والعرب. ولا يملك للدارس إلا أن يُلاحِظ عمق التشابه بين المشروع الفرنجي والمشروع الصهيوني الإسرائيلي، وهذا أمر متوقع لأن كليهما جزء من المواجهة المستمرة بين التشكيلين الحضاريين السائدين في كل من الغرب والشرق العربي، كما أن حملات الفرنجة هي نقطة انطلاق أوربا نحو التوسع والإصرار على بسط سيطرتها على الخارج.

وقد احتوت حملات الفرنجة على أجنة كافة أشكال الإمبريالية الأوربية التي حكمت فيما بعد حياة جميع شعوب العالم (على حد قول أحد المؤرخين الغربيين لحملات الفرنجة). ولهذا، أصبحت حملات الفرنجة استخداماً مجازيًا أساسيًا في الخطاب الاستعماري الغربي، وأصبحت ديباجاتها هي ديباجة المشروع الاستعماري الغربي وأحد مكونات الإدراك الغربي للعالم الإسلامي. وقد رأى كثير من المدافعين عن المشروع الصهيوني، من اليهود وغير اليهود، أنه استمرار وإحياء للمشروع الصليبي أي الفرنجي ومحاولة وضعه موضع

التنفيذ من جديدٌ في العصر الحديث. فقد ألَّف سي.آر. كوندر في عام ١٨٩٧، وهو صهيوني غير يهودي ومؤسس صندوق استكشاف فلسطين، كتاباً عن تاريخ المملكة اللاتينية في القدس أشار فيه إلى أن الإمبريالية الغربية قد نجحت فيما أخفقت فيه الحملات الصليبية أي حملات الفرنجة. والواقع أن تصوره هذا يشبه في كثير من الوجوه تصور الصحافة البريطانية وكذلك تصور بعض أعضاء النخبة الحاكمة في بريطانيا بأن هجوم أللنبي على القدس يساوي حملة صليبية أخرى. وقد صرح لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني آنذاك، والذي أصدرت وزارته وعد بلفور، أن أللنبي شن وربح آخر الحملات الصليبية وأعظمها انتصاراً. ويمكننا أن نقول أن المشروع الصهيوني هو نفسه المشروع الفرنجي بعد أن تمت علمنته، وبعد أن تم إحلال المادة البشرية اليهودية التي تم تحديثها وتطبيعها وتغريبها وعلمنتها محل المادة البشرية المسيحية .

وقد لاحَظ روبرت برنارد سولومون، وهو ضابط إنجليزي ورئيس الاتحاد الصهيوني البريطاني، أوجه التشابه بين المشروعين الفرنجي والصهيوني في دراسة له نشرها في

جويش ريفيو عام ١٩١٢ تحت عنوان "مستعمرات القرن الثاني عشر في فلسطين" حيث أكد أن المشكلات التي واجهها المستوطنون الفرنجة ونجحوا في التغلب عليها تشبه من نواحٍ كثيرة تلك المشكلات التي تواجه المستوطنين الصهاينة في فلسطين ثم أخذ في تعداد هذه النواحي. كما أشار إلى العوامل التي أدّت إلى انهيار ممالك الفرنجة بعبارة "المؤثرات الشرقية التي أدّت إلى الانحلال" ليحذر المستوطنين الجدد منها.

ونظراً للتشابه بين المشروعين الفرنجي والصهيوني، ونظراً لأن كليهما اتخذ فلسطين ساحة لتنفيذ أحلامه، نجد أن الوجدان الصهيوني منشغل إلى أقصى حد بالمشروع الفرنجي، خصوصاً وأن الفرنجة قد رحلوا ولم يتركوا شيئاً خلفهم سوى بعض القلاع التي يزورها السائحون ويدرسها علماء الآثار من الإسرائيليين والعرب. ويحاول الدارسون الصهاينة أن ينظروا إلى مشروع الفرنجة من منظور ما يسمونه "التاريخ اليهودي" وكأن حملات الفرنجة جُرِّدت بالدرجة الأولى ضد اليهود، تماماً مثلما يمنحون مركزية للجماعات اليهودية في كل الأحداث التاريخية. وتتحدث

الكتابات الصهيونية الإسرائيلية عن ضحايا حملات الفرنجة وكأنهم الضحايا الوحيدون، بل وتدعي بعضها دوراً يهودياً مستقلاً في صد الفرنجة، وهو الأمر الذي يتنافى تماماً مع حقائق التاريخ، ومع ما ورد في كتابات بعض الرحالة اليهود المعاصرين مثل بنيامين التوديللي، فإن مدينة صور كانت (في عام ١١٧٠) تضم خمسمائة يهودي على حين كانت كلٌّ من عكا وقيصرية تضم مائتين، وكانت عسقلون تضم مائتي يهودي حاخامي. وتشير موسوعة التاريخ اليهودي إلى أن هذه هي الجماعات اليهودية الكبيرة! ويذكر العالم اليهودي الإسباني موسى بن نحمان (نحمانيدس) أنه وجد في القدس عام ١٢٦٧ يهوديين اثنين فقط.

ولكن أهم جوانب الاهتمام الصهيوني الإسرائيلي بالكيان الفرنجي هو دراسته من منظور الصراع العربي الإسرائيلي، بمعنى عقد الدراسات المقارنة في مشاكل الاستيطان ومشاكل الموارد البشرية والعلاقات الدولية، فضلاً عن محاولة فهم عوامل الإخفاق والفشل التي أودت بالكيان الفرنجي. وهناك من يهتم بدراسة المقومات البشرية والاقتصادية والعسكرية للكيان الفرنجي، وهناك من يهتم برصد العلاقة بين هذا

الكيان والكيان الأوربي المساند له. وقد وجه فريق من الباحثين اليهود اهتمامه لدراسة مشكلات الاستيطان والهجرة.

ولكن الاهتمام لا يقتصر على الدوائر الأكاديمية، فنجد أن شخصيات سياسية عامة مثل رابين وديان وأفنيري يهتمون بمشاكل الاستيطان والهجرة. ففي سبتمبر ١٩٧٠، عقد إسحق رابين مقارنة بين ممالك الفرنجة والدولة الصهيونية حيث توصلً إلى أن الخطر الأساسي الذي يهدد إسرائيل هو تجميد الهجرة، وأن هذا هو الذي سيؤدي إلى اضمحلال الدولة بسبب عدم سريان دم جديد فيها. ويعقد أفنيري في كتابه إسرائيل بدون صهيونية (١٩٦٨) مقارنة مستفيضة بين ممالك الفرنجة والدولة الصهيونية. ولكن أفنيري يخلص إلى أن المقارنة درس لابد وأن يتعلم منه الصهاينة، فإسرائيل مثل ممالك الفرنجة محاصرة عسكرياً لا لأن هذا هو المصير الموعود (الذي لا مفر منه) كما يتصور بعض الصهاينة، وإنما هي محاصرة عسكرياً لأنها تجاهلت الوجود الفلسطيني ورفضت الاعتراف بأن أرض الميعاد يقطنها العرب منذ مئات السنين.

وقد عاد أفنيري إلى الموضوع عام ١٩٨٣، بعد الغزو الصهيوني للبنان، في مقال نشر في هاعولام هزه بعنوان "ماذا ستكون النهاية" فأشار إلى أن ممالك الفرنجة احتلت رقعة من الأرض أوسع من تلك التي احتلتها الدولة الصهيونية، وأن الفرنجة كانوا قادرين على كل شيء إلا العيش في سلام، لأن الحلول الوسط والتعايش السلمي كانا غريبين على التكوين الأساسي للحركة. وحينما كان يقوم جيل جديد يطالب بالسلام، كانت مجهوداتهم تضيع سدى مع قدوم تيارات جديدة من المستوطنين، مما يعني أن ممالك الفرنجة لم تفقد قط طابعها الاستيطاني. كما أن المؤسسة العسكرية الاقتصادية للفرنجة قامت بدور فعال في القضاء على محاولات السلام، فاستمر التوسع الفرنجي على مدى جيل أو جيلين. ثم بدأ الإرهاق يحل بهم، وزاد التوتر بين المسيحيين الفرنجة من جهة وأبناء الطوائف الشرقية من جهة أخرى، الأمر الذي أضعف المجتمع الاستيطاني للفرنجة كما أضعف الدعم المالي والسكاني من الغرب. وفي الوقت ذاته، بدأ بعث إسلامي جديد، وبدأت الحركة للإجهاز على ممالك الفرنجة. فأوجد المسلمون طرقاً تجارية بديلة عن تلك التي استولى

عليها الفرنجة. وبعد موت الأجيال الأولى من أعضاء النخبة في الممالك، حل محلهم ورثة ضعفاء في وقت ظهرت فيه سلسلة من القادة المسلمين العظماء ابتداءً من صلاح الدين ذي الشخصية الأسطورية واستمرت حتى الظاهر بيبرس. وظل ميزان القوى يميل لغير صالح الفرنجة، كما لم يكن هناك ما يوقف هزيمتهم النهائية. وقد ترك هذا الحدث التاريخي بصماته وآثاره على وعي شعوب المنطقة حتى اليوم.

اليهودى كمسلم فى أفران الغاز

وقعت على اكتشاف لا عن طريق الصدفة تماماً ولا عن طريق التخطيط أيضاً، وإنما عن طريق نموذج معرفي وتفسيري مختلف عما هو سائد في الغرب. فالدراسات التي كُتبت عن الإبادة النازية ("هولوكوست" باليونانية و"شواه" بالعبرية وتترجم أحياناً إلى "المحرقة") تتناول هذه الظاهرة كما لو أنها ظاهرة ألمانية مقصورة على الألمان، أو جريمة من قِبَل النازيين الأشرار ضد اليهود الأبرياء. والأدبيات العربية تفترض هذا الإطار وتقع في قبضة إمبريالية المقولات. ويحاول البعض تحدي هذا الإطار فيقولون أن اليهود لم يُقتل منهم

ستة ملايين وإنما مليونان، كما أن اليهود ليسوا ضحايا وإنما يستحقون ما حدث لهم، إلى آخر هذه الأحاديث الصبيانية العنصرية. وقد طرحت تصوراً مختلفاً في موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية إذ أذهب إلى أن الإبادة النازية لليهود (وغيرهم) ليست جريمة ألمانية/نازية وإنما جريمة غربية تنضوي تحت نمط أوسع ناتج عن خريطة إدراكية. فحل الإبادة هو حل طرحته الحضارة الغربية الحديثة (العقلانية المادية) لكثير من مشاكلها، فتمت إبادة سكان الأمريكتين في القرن السادس عشر ولا تزال عملية إبادتهم المباشرة مستمرة في بلاد مثل البرازيل. وقد تمت حروب إبادية أو شبه إبادية أخرى في بلاد الكونغو والجزائر (بلد المليون شهيد). وهذا أمر متوقع، فالتفكير العنصري الغربي يتضمن إنكار حق الوجود للآخر وإن وُجد فهو في مرتبة أدنى لابد وأن يوظف في خدمة العالم الغربي. ويجب أن نذكر أن وعد بلفور كان يهدف إلى تخليص أوربا من آخر اليهود (في هذه الحالة) عن طريق نقلهم إلى فلسطين وتوظيفهم لصالح الحضارة الغربية، وهذا أيضاً ما كان يهدف له هتلر الذي كان يهدف إلى

التخلص من اليهود وغيرهم. وقد حاول النظام النازي أن ينقلهم إلى بولندا وفشل، ثم تبنى مشروعاً لنقل اليهود لمدغشقر ففشل؛ فكأن بلفور هو هتلر عنده مستعمرات، وكأن هتلر هو بلفور بدون مستعمرات يلقي بالآخر اليهودي فيها، فمعاهدة فرساي (بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى) أجهضت مشروع ألمانيا الاستعماري. ولولا هذا لتخلص هتلر من اليهود بالطرق البلفورية المتحضرة بدلا من الطرق النازية الهمجية! فإذا أضفنا إلى كل هذا الفكر الدارويني والنيتشوي والإيمان بالمنفعة كمقياس مطلق وإسقاط قداسة كل شيء لاكتشفنا أن الحضارة الغربية الحديثة هي خلطة حضارية تفرز خريطة إدراكية تجعل من معسكرات الإبادة أمراً منطقياً ومفهوماً، إذ كيف يمكن الإيمان بقداسة أي شيء إذا كان مصدر القداسة قد انسحب من الكون وهجره، وإذا كان كل شيء (مادة في مادة) مجرد أرقام وذرات متجاورة؟ ولعل الفضيحة فاحت لأن عنصرية الحضارة الغربية في حالة ألمانيا لم يتم ممارساتها في أحراش أفريقيا أو غابات آسيا أو سهول الولايات المتحدة قبل أن يعمرها الإنسان الأبيض

كما هو الحال مع عنصرية إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة، وإنما تمت ممارستها داخل المجتمعات الأوربية ذاتها ووقع ضحيتها عناصر بشرية غربية مثل الغجر والسلاف والشيوعيين واليهود وغيرهم، وهي عناصر تم تصنيفها بشكل منهجي على أنها غير نافعة تماماً مثل الأطفال المعوقين والعجزة والجنود الألمان المصابين في الحروب الذين كانوا يطلقون عليهم Useless eaters أي مستهلكون للطعام ليس لهم جدوى اقتصادياً، والذين أُنشئت أفران الغاز ابتداءً للتخلص منهم. وفي أثناء محاكمات نيورمبرج - كما أسلفنا - كان خط الدفاع لمجرمي الحرب النازيين أن تفكيرهم (أي خريطتهم الإدراكية) إنما هو نتاج طبيعي للأبحاث التي أجراها العلماء الغربيون لمدة أربعمائة عام (أي منذ عصر النهضة!).

الجريمة النازية إذن جريمة غربية بمعنى الكلمة تعبر عن شيء أصيل ورهيب وكامن في الحضارة الغربية الحديثة. وهي، مثل الصهيونية، ليست انحرافاً عن جوهر هذه الحضارة وإنما تعبير متبلور عنه. هذا هو التصور الذي

أطرحـه منذ أمـد طويل. وبينمـا كنت أكـمل بعض المداخل الأخـيرة الخـاصـة بالإبادة في مـوسـوعـة اليـهـود واليـهودية والصهيونية، لاحظت إشـارات خفية للضحايا الذين سيقادون لأفـران الغـاز، فـقد ذكـر أحـد المراجع أنـهم كـانوا يـسـمـونـهم تسمية "غريبة"، ولاحظت في مقال عن التدرج الاجتماعي في مـعـسكر أوشـفـتس تكرار كلمـة "مـسلم"، وقـد أصـبـح عندي حـساسـية غيـر عـادية لمثل هذه الإشـارات، فعـادةً مـا تخـبئ المراجع الصـهيونية شيئاً ما محرجاً حينما تفعل ذلك، فقمت بقـراءة عـدة مـراجع ومـوسـوعـات إلى أن وصلت إلى حـقـيقـة مذهلة وهـي أن هـؤلاء الضـحـايا كـانوا يسمـونـهم "ميزلمان Mu Selmann أي "مـسلم" (بالألمانيـة)، وقـد ورد في المـوسـوعـة اليـهودية (Enyclopedia Judaica جـزء١٢ ص٥٣٧-٥٣٨) مدخل "ميزلمان" على النحو التالي:

"مـيـزلمان"، أي مـسلم بالألمانيـة، وهـي إحـدى المفـردات الدارجة في معسكرات الاعتقال والتي كانت تستخدم للإشارة للمساجين الذين كانوا على حافة الموت- أي أولئك الذين بدأت تظهـر عليـهم أعـراض آخـر مـراحل الجـوع والمرض وعـدم

الاكتراث الُعقلي والإرهاق البدني. وكان هذا المصطلح يستَخدم أساساً في أوشفتس ولكنه كان يستخدم في المعسكرات الأخرى.

هذه هي المعلومة، والأمر يحتاج لتفسير. ويمكننا تطبيق النموذج التفسيري الذي نستخدمه على هذه الحالة. فالعقل الغربي حينما كان يدمر ضحاياه كان يرى فيهم الآخر، والآخر منذ حروب الفرنجة (الحروب الصليبية) هو المسلم. ومن المعروف في تاريخ العصور الوسطى أن العقل الغربي كان يربط بين المسلمين واليهود، وهناك لوحات لتعذيب المسيح تصور الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو يقوم بضرب المسيح بالسياط. والتجربة النازية هي الوريث الحقيقي لهذا الإدراك الغربي، كل ما في الأمر أنه تم توسيع نطاق الحقل الدلالي لكلمة"مسلم" لتشير إلى "الآخر" على وجه العموم، سواء كان من الغجر أو السلاف أو اليهود (وهذا لا يختلف كثيراً عن توسيع كلمة "عربي" في الخطاب الصهيوني لتصبح "الأغيار"). ويحاول كاتب المدخل في الموسوعة اليهودية أن يفسر أصل استخدام الكلمة، ولكن تفسيره هو مجرد تفسير

وحسب، فهو يدّعي أن الضحايا سُموا "مسلمين" استناداً إلى طريقة مشيهم وحركتهم: كانوا يجلسون القرفصاء وقد ثُنيت أرجلهم بطريقة "شرقية" وارتسم على وجوههم جمود يشبه الأقنعة. والكاتب، في محاولة التفسير هذه، لم يتخل قط عن عنصريته الغربية أو الصور النمطية الإدراكية، كل ما في الأمر حاول أن يحلِ كلمة "شرقيين" محل كلمة "مسلمين"، لكن المهم أن الضحايا هم الآخر، والآخر ليس غربيا وإنما شرقي أو مسلم.

والواقع أن هذه الإشارة لضحايا الإبادة باعتبارهم "المسلمين" يثير قضيتين إحداهما عملية والأخرى معرفية. فمن الناحية العملية، لابد وأن تتناقل وكالات الأنباء هذه المعلومة حتى يتضح الإدراك الغربي لنا، وحتى نوضح لِمَ لَمْ يتوان الغرب عن حل جريمة أوشفتس عن طريق جريمة دير ياسين وكفر قاسم، فالمهم هو ضرب من سماهم "المسلمين"، أي "الآخرين". ولا شك أن تأكيد هذا المصطلح يقلل من احتكار اليهود لفكرة أنهم الضحية الوحيدة ويثير قضية أن ما ينشر من معلومات هو الذي يخدم صالح فريق بعينه، وإلا فلِمَ

اختفي هذا المصطلح دون أن يشر إليه أحد؟

أما من الناحية المعرفية، فإن هذا المثل يبين مدى هيمنة الخريطة الإدراكية على السلوك. ولذا، فإن علينا حين ندرس الحضارة الغربية أن نعيد تفسير المعلومات والمعطيات المادية التي نرصدها وأن نكتشف تضميناتها الخفية متجاوزين حدود الخريطة الإدراكية الغربية، وبذلك قد نصل إلى دلالات لم يدركها الإنسان الغربي نظراً لحدوده الإدراكية والمفهومة. وقد تأثر الصهاينة بهذه الرؤية العنصرية للآخر باعتباره مسلماً، ففي الإدراك الصهيوني للعرب يتحول العربي إلى ممثل لكل الأغيار، فهو الآخر الآخر إن صح التعبير!

الفصل الخامس
الصهيونية بين الجذور الغربية والديباجات اليهودية

بعد أن صنفنا الصهيونية على أنها حركة غربية ذات جذور اجتماعية وفكرية غربية، يجب أن نطرح السؤال التالي: أين الأبعاد اليهودية لهذه الظاهرة؟ للإجابة على هذا السؤال يجب أن نشير ابتداءً إلى أن الصهيونية حركة لادينية، ولكنها، شأنها شأن حركات مماثلة في الغرب، كان لابد وأن تجند الجماهير من خلال ديباجات تفهمها هذه الجماهير. ولذا، قامت الصهيونية بالاستيلاء على اليهودية تماماً ثم قامت بعلمنتها من الداخل إلى درجة أن الحركات الدينية الأرثوذكسية التي قامت في الأساس لمحاربة الصهيونية انتهى بها الأمر إلى أن تبنت الصهيونية إطاراً مرجعياً نهائياً. وقد نجحت الصهيونية في الاستيلاء على اليهودية وعلمنتها بسبب الخاصية الجيولوجية التراكمية لليهودية، أي وجود أفكار متعارضة بشكل جوهري ولكنها تتعايش داخل النسق الديني اليهودي، كما وجد الصهاينة سوابق في التراث الديني اليهودي تدعم مقولاتهم اللادينية.

الحلولية اليهودية

السبب الأساسي الذي أدَّى إلى نجاح الصهيونية في تحقيق أهدافها هو تصاعُد معدلات الحلولية داخل اليهودية. وتدور الرؤية الحلولية الكمونية حول ثلاثة عناصر: الإله والإنسان والطبيعة. وفي إطار الحلولية اليهودية، يتحول الإنسان إلى الشعب اليهودي، وتتحول الطبيعة إلى الأرض اليهودية (إرتس يسرائيل - أرض الميعاد)، أما الإله فيتحوَّل إلى المبدأ الواحد الذي يحل فيهما معاً. ولا تختلف هذه الرؤية الحلولية الكمونية عن الصهيونية (وفكرة الشعب العضوي) إلا في بعض التفاصيل وفي الطريقة التي تُسمَّى بها العناصر التي تكوِّن دائرة الحلول فيتوحد بهما ويوحد بينهما. فالمبدأ الواحد في التراث الديني اليهودي هو الإله، أما بين الصهاينة اللادينيين فهو العِرْق اليهودي أو روح الشعب.

وقد نجم عن حلول الإله في كلٍّ من الشعب والأرض أن أصبح الشعب مقدَّساً وأصبحت الأرض هي الأخرى مقدَّسة. ويختلف الفريقان العلماني والديني في تسمية مصدر القداسة ولكنهما لا يختلفان قط في أن القداسة تسري في كلٍّ من الشعب والأرض. فالجميع يتفق على أن المبدأ الواحد (الإله أو

روح الشعب) حالّ في المادة، كامن فيها، غير مفارق لها. ومن ثم، يستطيع أعضاء الفريقين الصهيونيين، الديني والإلحادي، أن يترجما الثالوث الحلولي إلى شعار سياسي مثل "أرض يسرائيل لشعب يسرائيل حسب توراة يسرائيل"، وهي صيغة تفترض وجود علاقة عضوية صارمة بين العناصر الثلاثة تمنح أعضاء هذا الشعب حقوقاً مطلقة (فهم داخل دائرة الوحدة العضوية والقداسة والحلول) وتستبعد الآخرين. وتصبح توراة يسرائيل كتاباً مقدَّساً مرسلاً من الإله بالنسبة للصهاينة الدينيين، أو كتاب فلكلور يعبِّر عن روح الشعب بالنسبة للصهاينة الملحدين. وبينما يؤكد الحاخام كوك (الأب الروحي والفكري لجماعة جوش إيمونيم)، على سبيل المثال، أن روح الإله وروح يسرائيل شيء واحد، أي أن الشعب في قداسة الرب، فإن فلاديمير جابوتنسكي يشير إلى الشعب اليهودي بوصفه ربه، ويشير موشيه ديان إلى الأرض باعتبارها ربه. وصياغة كوك الدينية وصياغة جابوتنسكي وديان الإلحادية متشابهتان تماماً في بنيتهما، فكلتاهما تنتهيان إلى شعب مقدَّس له حقوق مطلقة في أرضه المقدَّسة، فهو شعب حل الإله فيه وفي أرضه، حسب صياغة كوك، وهو شعب/إله

وأرض/إله في صياغة الملحدين، والفارق بين الصياغتين أمر شكلي.

وعلمنة الحلولية اليهودية على يد الصهيونية لم يكن أمراً فريداً وإنما كان متسقاً تمام الاتساق مع واحد من أهم إنجازات الغرب الفلسفية في العصر الحديث، أي اكتشاف تَرادُف وحدة الوجود الروحية ووحدة الوجود المادية، بحيث أصبح من الممكن الحديث عن الذات بلغة الموضوع وعن الموضوع بلغة الذات، وعن المقدَّس بلغة الزمني وعن الزمني بلغة المقدَّس، وعن الروحي بلغة المادي وعن المادي بلغة الروحي، وهو الإنجاز الذي وضع أسسه إسبينوزا وعمَّقه هيجل ووصل به إلى ذروته وأشاعه إلى درجة أن الخطاب الفلسفي الغربي أصبح في معظمه خطاباً حلولياً، سواء بين المتدينين أو بين العلمانيين.

وقد وجد الصهاينة أن الاستراتيجية الإسبينوزية الهيجلية التي تفترض ترادف وحدة الوجود الروحية ووحدة الوجود المادية هي أنسب الصيغ للتوجُّه للجماهير اليهودية في شرق أوربا، وهي جماهير كانت لا تزال إما متدينة أو تربطها علاقة وثيقة بالرموز الدينية. وقد أصبحت هذه الحلولية الأرضية

المشتركة بين المتدينين والعلمانيين في الحركة الصهيونية.

وانطلاقاً من هذه الحلولية التي تنكر التجاوز، أعاد الصهاينة تفسير كثير من المفاهيم الدينية حتى يمكن توظيفها. فالأرض في المفهوم الحاخامي التقليدي (المجازي) كانت "صهيون الروحية" التي توجد في القلب، وقد وصفها نيثان برنباوم (بعد أن ترك الصهيونية وأصبح أرثوذكسياً) بأنها ليست وطناً مادياً جديداً بل كيان ديني لم يتوقفوا قط عن حبه والحنين إليه وتذكُّره. وبالنسبة للصهاينة، أصبحت صهيون هي الأرض التي يمكنهم متى شاءوا العودة إليها والاستيلاء عليها بقوة السلاح. والشعب - في التصور الديني - ليس شعباً عِرْقياً مادياً مثل كل الشعوب وإنما جماعة دينية تدين بالولاء للإله من خلال الميثاق ومن خلال الإيمان بمنظومة قيمية. ولذا، فإن عودة هذا الشعب إلى أرضه لا يمكن أن تتم إلا بأمر الإله في نهاية التاريخ. وفي الإطار الصهيوني، أصبح الشعب مجموعة من البشر التي لها حقوق مطلقة منفصلة عن المنظومات القيمية الأخلاقية اليهودية، فهم نوو حقوق مطلقة ولا يختلفون كثيراً عن شعوب أوربا في المرحلة الإمبريالية، أي أنهم شعب عضوي.

وتتجلى الحلولية العضوية في موقف كلٍّ من الدينيين والملحدين من الجيش الإسرائيلي. فقد ذهب الحاخام تسفي كوك، حفيد الحاخام إسحق كوك، إلى أن الجيش الإسرائيلي هو القداسة الكاملة، أنه يمثل حكم شعب الإله فوق أرضه. ولا يختلف الملحدون الحلوليون عنه في موقفهم من الجيش، فهم، عند احتفالهم بعيد الاستقلال على سبيل المثال، يُغيِّرون منطوق المزمور ١١٨/٢٤ الذي يقول "هذا هو اليوم الذي صنعه الرب" بحيث يصبح "هذا هو اليوم الذي صنعه تسهال" أي الجيش الإسرائيلي (مصدر التماسك والوحدة العضوية).

ويجب أن نؤكد مرة أخرى أن الإله الذي يتحدث عنه الدينيون الحلوليون، ليس إلهاً مفارقاً للشعب متعالياً عليه متجاوزاً له، وإنما هو حالٌّ وكامن فيه. ومن ثم، فهو يؤدي إلى قداسة هذا الشعب. ولذا، فإن الاختلاف بين الدينيين والملحدين سيظل سطحياً أو على مستوى الإجراءات العملية ومناطق النفوذ والشعائر. فالإله في النسق الحلولي ليس سوى اسم، أما المسمى فهو العالم المادي الذي يكمن فيه هذا الإله ولا يتجاوزه. وقد اكتسحت الصهيونية يهود العالم حتى أصبح من الصعب على الدارسين أو على كل من يتعامل مع

اليهودية والصهيونية (وضمن ذلك اليهود أنفسهم) أن يُفرِّقوا بين العقيدة الدينية والعقيدة السياسية.

وقد وضع كثير من أعداء الصهيونية من اليهود وغير اليهود أيديهم على هذه الخاصية في الصهيونية باعتبارها حلولية واحدية روحية (أي باعتبارها شكلاً من أشكال الوثنية) تم تحويلها إلى حلولية مادية. وقد أشار بعض الحاخامات إلى دولة إسرائيل باعتبارها العجل الذهبي الجديد الذي يعبده اليهود. كما احتج الحاخام جرسون كوهين بقوله: "إن كثيراً من يهود العالم يتصورون أن إسرائيل هي معبدهم الأساسي، وأن رئيس وزرائها حاخامهم الأكبر".

وقد ظهرت في ألمانيا، في الثلاثينيات، جماعة من المفكرين الدينيين اللوثريين الذين أدركوا الطبيعة العدمية للرؤية الحلولية الكمونية وأدركوا تَورُّط الصهاينة فيها. وقد حذر هاينريش فريك اليهود من فكرة الشعب العضوي (أي الشعب الذي تكمن فيه قداسة دون مرجعية إلهية متجاوزة له) التي يدافع عنها النازيون والصهاينة، وعرَّف كلاً من النازية والصهيونية بأنهما حركتان حولتا الأرضية (الارتباط بالأرض) والدنيوية (الارتباط بالدنيا) - وهي أمور مادية - إلى

كيانات ميتافيزيقية، أي إلى دين. كما أشار فيلي ستارك إلى أنهما ضرب من ضروب المشيحانية السياسية التي تُحوِّل الدنيوي (المدنَّس) إلى مقدَّس، ولذا فهما يُحوِّلان الدم والتربة إلى قيمة مطلقة تحيطها القداسة الدينية، قيمة تضرب بجذورها في المشاعر الأسطورية الكونية، وفي ممالك الأرض بدلاً من مملكة السماء، ومن ثم توصَّل إلى أنه لا يوجد مجال للتفاهم بين المسيحية وعبادة الشعب العضوي اليهودية أو النازية.

الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة

وحتى يمكن توضيح ما نذهب إليه من أن الصهيونية ظاهرة غربية وأن الرؤية الصهيونية للعالم هي نتاج التشكيل الحضاري الغربي مع إضافة زخارف يهودية، وحتى يتسنى لنا فهم نسيج الصهيونية الغربي اليهودي، فقد صككت عبارة "الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة" للإشارة إلى الثوابت والمسلمات النهائية الكامنة في الاتجاهات الصهيونية كافة مهما اختلفت دوافعها وميولها ومقاصدها وطموحاتها وديباجاتها واعتذارياتها. ولا يمكن وصف أي قول أو اتجاه بأنه صهيوني إن لم يتضمن هذه المسلمات، فهي بمنزلة البنية

العامة الكامنة وهي التي تُشكِّل الأساس الكامن للإجماع الصهيوني. ويمكن تلخيصها فيما يلي:

أ) اليهود شعب عضوي منبوذ غير نافع يجب نقله خارج أوربا ليتحوَّل إلى شعب عضوي نافع.

ب) يُنقل هذا الشعب إلى أي بقعة خارج أوربا [استقر الرأي، في نهاية الأمر، على فلسطين بسبب أهميتها الإستراتيجية للحضارة الغربية وبسب مقدرتها التعبوية بالنسبة للمادة البشرية المستهدفة [ليُوطَّن فيها وليحل محل سكانها الأصليين، الذين لابد أن تتم إبادتهم أو طَرْدهم على الأقل (كما هو الحال مع التجارب الاستعمارية الاستيطانية الإحلالية المماثلة).

جـ) يتم توظيف هذا الشعب لصالح العالم الغربي الذي سيقوم بدعمه وضمان بقائه واستمراره داخل إطار الدولة الوظيفية في فلسطين.

وهذه الصيغة الشاملة لم يُفصح عنها أحد بشكل مباشر، إلا بعض المتطرفين في بعض لحظات الصدق النماذجية النادرة. ولكن عدم الإفصاح عنها لا يعني غيابها، فهي تشكل هيكل المشروع الصهيوني والبنية الفكرية التي أدرك الصهاينة

الواقع من خلالها.

ويُلاحَظ أنّ كثيراً من الأُسس التي تستند إليها الصيغة الشاملة قد اختفى بفعل التطورات التاريخية. فيهود العالم الغربي قد تناقص عددهم واندمجوا بشكل شبه تام في مجتمعاتهم، ولم يَعُد هناك مجال للحديث عن "عدم نفعهم". كما أن عملية نَقْل اليهود ونفي العرب اكتملت معالمها إلى حدٍّ كبير، وخصوصاً أن الترانسفير بعد تأسيس الدولة أصبح عملية هجرة تتم في ظلال قانون العودة. أما بالنسبة للسكان الأصليين، فقد تم نفي غالبيتهم عام ١٩٤٨، ولكن بعد عام ١٩٦٧ أصبح من الصعب التخلص منهم. وما تبقَّى من الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة هو دولة وظيفية يدعمها الغرب ويضمن بقاءها وتقوم هي على خدمته وعلى تجنيد يهود العالم وراءها لخدمتها وخدمة العالم الغربي، وهذا ما يُشكِّل أساس الإجماع الصهيوني.

ولم تظهر الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة كاملةً بين يوم وليلة وإنما ظهرت بالتدريج. وكان يُضاف لكل مرحلة عنصر جديد إلى أن اكتملت مع صدور وعد بلفور وتحوَّلت إلى الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة. والواضح أن

الصيغة الصهيونية الأساسية تضرب بجذورها في الحضارة الغربية. وفيما يلي تاريخ موجز لمراحل تشكُّلها واكتمالها:

١ـ تضرب الصيغة بجذورها في موقف الحضارة الغربية من الجماعات اليهودية وفي وضعهم داخلها، وهو موقف صهيوني ومعاد لليهود في آن واحد؛ أو صهيوني لأنه معاد لليهود. فاليهود شعب مختار عضوي متماسك (شعب شاهد ـ جماعة وظيفية)، ووجوده في مجتمع ما ليس له أهمية في حد ذاته وإنما بمقدار ما يخدم الوظيفة الموكلة إليه. وحين يفقد الشعب وظيفته، لابد من التخلص منه عن طريق نَقْله (خروجه أو ربما إبادته). ومن هنا، فإن نقطة الانطلاق (الشعب العضوي المنبوذ) هي الرقعة المشتركة بين معاداة اليهود والصهيونية، وهي صيغة خروجية تصفوية إذ تطالب بإخراج اليهود من أوربا وتصفيتهم، فالعنصر الأول بشقيه هو جوهر عداء اليهود وهو أيضاً المقدمة الأساسية للصهيونية.

٢ـ وأضيف لهذه الصيغة العنصر الثاني (الكامن تاريخياً وبنيوياً في العنصر الأول)، وهو اكتشاف نفع اليهود، ومن ثم إمكانية توظيفهم خارج أوربا (وإصلاحهم). وقد اكتُشف هذا الجزء أو تم تأكيده ابتداءً من القرن السابع عشر، عصر

ظهور الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية. ويُلاحَظ أن ما يميِّز الصهيونية عن معاداة اليهود هو هذا الجزء. فكلاهما يرى اليهود عنصراً غير نافع يوجد داخل الحضارة الغربية ولكنه لا ينتمي إليها ولا حل للمشكلة إلا بإخراج اليهود. وبينما يلجأ أعداء اليهود إلى إخراج اليهود بشكل عشوائي عن طريق طردهم أو إبادتهم دون تخطيط أو ترشيد، فإن الصهاينة يرشِّدون العملية كلها ويرون إمكانية إخراج اليهود بشكل منهجي وتحويلهم إلى عنصر نافع. كما يُلاحَظ أن مكونات هذين العنصرين (المنبوذين - النافعين الذين يمكن توظيفهم) هي ذات السمات الأساسية للجماعة الوظيفية. ومن ثم، فإن اكتشاف نفع اليهود كان أمراً متوقعاً، إذ أن ذلك لصيق ببنية الجماعة الوظيفية وهو سر وجودها وبقائها، إذ لا يمكن أن يكتب لها البقاء في مجتمع إلا إذا كانت "نافعة" و"تلعب دوراً ضرورياً".

٢- تظل الصيغة الصهيونية حتى نهاية القرن التاسع عشر مجرد فكرة، ولكنها تتحول إلى حركة منظمة بعد مرحلة هرتزل وبلفور ومضمونها أن يتم التوظيف من خلال دولة وظيفية على أن تشرف على العملية إحدى الدول الاستعمارية

الكبرى في الغرب التي تُؤمِّن للمستوطنين موطئ قدم وتضمن بقاء واستمرار الدولة الوظيفية الاستيطانية. ومع وعد بلفور، يصبح المكان الذي ستقام فيه الدولة الوظيفية هو فلسطين وتتحول الصيغة الأساسية إلى الصيغة الشاملة.

ولنا أن نلاحظ أن المفهوم الكامن وراء الصيغة الأساسية الشاملة في الصهيونية الغربية مفهوم محوري في الحضارة الغربية، فلم يتم إدراك اليهود وحدهم من خلاله وإنما تم إدراك كل المنحرفين اجتماعياً، فمثلاً كان يتم نَقْل المساجين إلى أستراليا وتوظيفهم هناك بحيث يتحوَّلون إلى عناصر صالحة؛ أعضاء في الحضارة التي نبذتهم ونقلتهم.

والصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة محايدة تماماً، فهي صيغة لادينية نفعية مادية تماماً رغم كل ما قد يحيط بها من ديباجات مسيحية أو رومانسية، فهي ترى اليهود، في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير، باعتبارهم مادة نافعة لا قداسة لها. وهي تنظر لوجود اليهود في العالم الغربي نظرة سلبية لابد من وضع نهاية له. ولذا، فهي صيغة تدعو اليهود إلى إنهاء السلبية الدينية والعودة المادية العلمانية إلى فلسطين دون انتظار أي أمر إلهي (الأمر الذي يتنافى مع

العقيدة المسيحية الكاثوليكية واليهودية الأرثوذكسية).

والصيغة تُعلمن اليهود (فهم مادة نافعة تُنقَل)، كما تُعلمن المكان الذي سيُنقَلون إليه (فهو مجرد حيز)، وتُعلمن سكانه الأصليين (فمصيرهم إما النقل أو الإبادة)، وتُعلمن وسيلة النقل (فهي الإمبريالية).

والصيغة الأساسية الشاملة هي القاسم المشترك الأعظم بين كل الصهيونيات، وهي تصلح أيضاً إطاراً لكتابة تاريخ عام للصهيونية، باعتبارها حركة فكرية سياسية اقتصادية اجتماعية في الحضارة الغربية (لا بين أعضاء الجماعات اليهودية وحسب)، بحيث لا يتم الفصل بين صهيونية اليهود وصهيونية غير اليهود كما هو متَّبع، وإنما يُنظَر إليهما كمرحلتين مترابطتين في سياق تاريخي حضاري واحد.

والصيغة الشاملة هي الأساس الذي يستند إليه ما نسميه "العقد الصهيوني الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية بشأن يهود الغرب"، فهذا العقد يتيح الفرصة أمام يهود الغرب لأن يحققوا من خلال الخروج من العالم الغربي ما فشلوا في تحقيقه من خلال البقاء فيه. وعلى المستوى السياسي، يمكن القول بأن الصيغة الشاملة تعني ربط حل

المسألة اليهودية (المادة البشرية المستهدفة) بالمسألة الشرقية (المجال الذي ستُنقَل فيه لتُوظَّف لصالح الحضارة الغربية).
وقد تم تهويد الصيغة الشاملة من خلال مجموعة من الديباجات بحيث أصبحت "الصيغة الشاملة المُهوَّدة"، وذلك حتى يتحقق لليهود استيطانها.

الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المهودة

"الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المُهوَّدة" هي "الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة" ذاتها بعد إضافة ديباجات ومسوغات يهودية جعل بإمكان المادة البشرية المستهدفة استبطانها. فالصيغة الشاملة تُعلمن اليهود تماماً وتُحوْسلهم إلى أقصى حد، وهي أيضاً تُعلمن الهدف من نقلهم والأرض التي سيُنقَلون إليها. وليس من السهل على المرء قبول أن يتحول إلى وسيلة وأن يُنقَل كما لو كان شيئاً لا قيمة له إلى أرض (أي أرض). ولذا، نجد أن المقدرة التعبوية للصيغة الشاملة تكاد تكون منعدمة إذ أنها تفترض أن ينظر اليهود إلى أنفسهم بشكل براني، وهذا أمر مستحيل بطبيعة الحال.

وقد طوَّر هرتزل الخطاب الصهيوني المراوغ الذي فتح

الأبواب المغلقة أمام كل الديباجات اليهودية المتناقضة التي غطت، بسبب كثافتها، على الصيغة الأساسية الشاملة وأخفت إطارها المادي النفعي حتى حلَّت (بالنسبة لأعضاء الجماعات اليهودية في الغرب بل وبالنسبة لمعظم قطاعات العالم الغربي) محل الصيغة الأساسية الشاملة.

وقد تم إنجاز هذا بأن قامت الصهيونية الإثنية (الدينية والعلمانية) بإسقاط ديباجات الحلولية الكمونية (التي تلغي الحدود بين الإله والأرض والشعب وتخلع القداسة على كل ما هو يهودي) على الصيغة الشاملة بحيث يتحول اليهود من مادة نافعة إلى كيان مقدَّس له هدف وغاية ووسيلة ورسالة. وتجعل عملية نقله مسألة ذات أبعاد صوفية أو شبه صوفية نبيلة. لكل هذا أصبح من السهل على المادة البشرية أن تستبطن الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة وأصبح من السهل التحالف بين الدينيين والعلمانيين: الجميع يتفق على قداسة الشعب ورسالته (ومطلقيته) ويختلفون حول مصدر القداسة وتجلياتها. ورغم كثافة الديباجات وإغراقها في الحلولية، تظل الثوابت كما هي، وتظل الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة كما هي.

وتذهب الصيغة المُهوِّدة إلى أن العالم هو "المنفى" وأن اليهود يشكلون "شعباً عضوياً واحداً" لابد أن يُنقَل من المنفى (فهو شعب عضوي منبوذ) إلى فلسطين "أرض الميعاد". ورغم هذا الاتفاق المبدئي إلا أن الديباجات تختلف، فالشعب العضوي المنبوذ لا يُنبَذ بسبب كونه جماعة وظيفية فقدت دورها أو لأنه قاتل المسيح، وإنما لعدد من الأسباب تتغيَّر بتغيُّر صاحب الديباجة منها أنه شعب مقدَّس مكروه من الأغيار في كل زمان ومكان بسبب قداسته (الصهيونية الإثنية الدينية) أو بسبب تركيبه الطبقي غير السوي (الصهيونية العمالية) أو لأن هويته الإثنية العضوية لا يمكن أن تتحقق إلا في أرضه (الصهيونية الإثنية العلمانية]الثقافية ([أو لأنه شعب ليبرالي عادي يود أن يكون مثل كل الشعوب، وخصوصاً الشعوب الغربية (الصهيونية السياسة). ومهما اختلفت الأسباب، فإن هذا الشعب ينظر إلى نفسه فيرى كياناً عضوياً مطلقاً له قيمة إيجابية ذاتية (بل يجد أنه المطلق وموضع الحلول والكمون).

أما الهدف من النقل فليس التخلص من اليهود أو تأسيس دولة وظيفية تقوم على خدمة الغرب وإنما هو إصلاح

الشخصية اليهودية وتطبيعها وتأسيس دولة اشتراكية تحقق مُثُل الاشتراكية (الصهيونية العمالية) أو الاستجابة للحلم الأزلي في العودة وتحقيق رسالة اليهود الإلهية وتأسيس دولة تستند إلى الشريعة اليهودية (الصهيونية الدينية) أو تحقيق الهوية اليهودية وتأسيس دولة يهودية بالمعنى العلماني تكون بمنزلة مركز روحي وثقافي ليهود العالم (الصهيونية الإثنية العلمانية) أو تحقيق مُثُل الحرية وتأسيس دولة ديمقراطية غربية (الصهيونية السياسية). كما اكتسب المكان الذي سيُنقل إليه الشعب معنى داخلياً إذ تصبح الأرض هي الأرض الوحيدة التي تَصلُح للخلاص (المشيحاني أو الاشتراكي أو الليبرالي)، فهي "أرض الميعاد" الإثنية الدينية أو العلمانية، بل إن خلاص الشعب هو خلاص الأرض، وهو نفسه مشيئة الإله.

ﺫ آليات الانتقال ليست الاستعمار الغربي أو العنف والإرهاب وإنما هي "القانون الدولي العام" متمثلاً في وعد بلفور (في الصياغة الصهيونية السياسية) أو "تنفيذاً للوعد الإلهي والميثاق مع الإله" (في الصياغة الدينية) أو بسبب قوة اليهود الذاتية (في الصياغة الصهيونية التصحيحية). كما أن

النتيجة النهائية واحدة وهي تحويل اليهود إلى مستوطنين صهاينة وطرد الفلسطينيين من وطنهم وتحويلهم إلى مهاجرين. وعلى هذا، فإن عملية نقل اليهود من المنفى إلى فلسطين (سواء بسبب الوعد الإلهي أو بسبب وعد بلفور) تؤدي إلى نقل الفلسطينيين خارج وطنهم (إلى المنفى). ويلاحظ أن الديباجات اليهودية معظمها من أصل غربي لاديني، باستثناء الديباجات الدينية التي تتحدث عن الوعد الإلهي وأرض الميعاد، وحتى هذه موجودة في الخطاب الديني البروتستانتي المتطرف الذي عبَّر عن نفسه في الفكر الاسترجاعي.

وقد تنبَّه كثير من المفكرين الصهاينة إلى وجود الصيغة الشاملة المُهوَّدة أو اليهودية من وجهة نظرهم (رغم أن أحداً منهم لم يُسمِّها)، فيشير حاييم لانداو، على سبيل المثال، إلى أن البرنامج الصهيوني يدور حول فكرة ثابتة واحدة "وكل القيم الأخرى إن هي إلا أداة في يد المطلق"، ثم يحدد هذا المطلق على أنه "الأمة" (أي الشعب العضوي). وقد وافقه موشيه ليلينبلوم، وكان ملحداً، على قوله هذا: "إن الأمة كلها أعز علينا من كل التقسيمات المتصلبة المتعلقة بالأمور

الأرثوذكسية أو الليبرالية في الدين. فلا مؤمنين وكفار، فإن الجميع أبناء إبراهيم وإسحق ويعقوب... لأننا كلنا مقدسون سواء كنا غير مؤمنين أو كنا أرثوذكسيين". والمعنى أن الشعب كله هو مركز الحلول، تجري في عروقه هذه القداسة بشكل متوارث. أما كلاتزكين، فإنه يوضح القضية بما ينم عن الذكاء في مقاله "الحدود" حيث يبين أن اليهودية تعتمد على الشكل لا على المضمون (الشكل يعني في واقع الأمر بنية العلاقات الكامنة وليس الشكل بالمعنى الدارج للكلمة). وهذا الشكل الأساسي - كما يقول - هو تخليص "الشعب اليهودي" للأرض. أما المضامين الروحية أو الفكرية، فهي تختلف بشكل جذري، ولكن هذا لا يهم لأن مضمون الحياة نفسه (أي واقعها) سيصبح قومياً عندما تصبح أشكالها قومية. وقد تنبّه هؤلاء المفكرون الصهاينة - وأولهم ديني متطرف في تَدَيُّنه والآخران علمانيان - إلى أن ثمة فكرة ثابتة، جوهراً ما، "مطلقاً" على حد قول الأول، و"شكلاً أساسياً" أو "قداسة معيَّنة" على حد قول المفكرين الآخرين. كما تنبهوا إلى أن هذا الجوهر هو الثابت وأنه يُغيِّر ما عداه ويُحوِّره ويسمه بميسمه. وقد حددوه بأنه مفهوم الأمة اليهودية.

الفصل السادس
الجذور الغربية للاعتذاريات الصهيونية ونظرية الحقوق

بينا في الفصول السابقة أن الفكر الصهيوني هو فكر غربي حتى النخاع، وأن الرؤية الصهيونية هي إحدى إفرازات الرؤية الغربية الحديثة الإمبريالية. ويتبدى هذا في الاعتذاريات التي يقدمها الصهاينة، و"الاعتذاريات" هي الحجج التي يسوقها المرء ليرفع اللوم عن نفسه وليبرر ما يقوم به من أفعال عدوانية ولنضفي شيئاً من المعنى على فعلته. فهي رغم وجود بعض الأبعاد "اليهودية" الخاصة هي اعتذاريات غربية حتى النخاع. وتستند الاعتذاريات عادةً إلى رؤية للذات (الفاعلة) ورؤية للآخر (المفعول به)، وتتفرع عنها نظرية للحقوق: حقوق الفاعل وحقوق المفعول به. وفي هذا الفصل سنتناول التشابه الملحوظ بين الاعتذاريات الاستعمارية الغربية العامة والاعتذاريات الصهيونية.

الذات الإمبريالية القوية ومحو الآخر

تنطلق الاعتذاريات الصهيونية من الافتراض المحوري في الفكر القومي العضوي والعنصري الغربي الذي يذهب إلى أن

أعضاء الحضارة (الغربية) الغازية أكثر تفوقاً من الناحيتين الحضارية والعِرْقية من أعضاء الحضارات (الشرقية) المغزوة، وأن تخلُّف هذه الحضارات الشرقية أمر وراثي حتمي، ومن ثم من حق الإنسان الغربي أن يوظف العالم بأسره لصالحه باعتباره الأقوى والأكثر تقدماً (وهذا ما نسميه الحداثة الداروينية).

وقد تم الغزو الصهيوني لفلسطين مثلما تم أي استعمار استيطاني إحلالي آخر، أي عن طريق العنف واغتصاب الأرض من أصحابها. لكن المادة البشرية الغازية في حالة فلسطين كانت متنوعة غير متجانسة وكان لها انتماءات حضارية ودينية وثقافية وسياسية مختلفة، كما أن الصهيونية كان عليها أن تبيع صورتها للاستعمار الغربي وللدول الاشتراكية وليهود العالم، ومن ثم تنوعت الاعتذاريات والتبريرات التي يستند إليها الغزو الصهيوني بشكل يفوق الاعتذاريات الاستعمارية المألوفة، لكن مع هذا ثمة عناصر كثيرة مشتركة.

من المعروف أن الغزوة الإمبريالية للشرق خاصة في شكلها الاستيطاني. قامت بتقديم اعتذاريات مفصلة لتسويغ

وجـودها الشـّـاذ فـي كل من آسـيـا وأفـريقـيـا. وجـوهـر هذه الاعتذاريات هو أن الإنسان الغربي هو مركز الكون، فهو مثل اللوجوس المتجسد أو موضع الحلول ومركز الإطلاق والركيزة النهائية للكون والتاريخ والذي يدور حوله ويكتسب معنى من وجوده في مركزه. وانطلاقاً من هذا التصور يتجه الإنسان الغربي نحو إنكار تاريخ السكان الأصليين في الأرض التي سيغزوها ويستوطن فيها. فهي عادةً أرض عذراء بلا تاريخ، غير مأهولة بالسكان (أرض بلا شعب). ومن هنا كان إبادة الملايين في أمريكا الشمالية والجنوبية وغيرها من بقاع آسيا وأفريقيا.

وإذا حدث أن كانت الأرض التي يقال لها "عذراء" مأهولة بالسكان فإن أسطورة الغزو الاستيطان الغربية تحاول تهميشهم، فهم قليلو العدد متخلفون يفتقرون إلى الفنون والعلوم والمهارات المختلفة، يهملون الثروات الطبيعية الكامنة في الأرض. وهم عادةً مجرد رحالة لا يستقرون في أرض ما، وهم شعب لا تاريخ له، فأعضاؤه جزء لا يتجزأ من الطبيعة (كالثعالب والذئاب) ومن ثم لا حقوق لهم. لكل هذا فإن وجود مثل هؤلاء الناس هو وجود عرضي ومن الضروري وضع حل

جذري ونهائي للمشكلة الديموجرافية، أي مشكلة وجود السكان الأصليين في الأرض العذراء، وضرورة اجتثاث شأفتهم تماماً. وهكذا تتحول أسطورة الاستيطان إلى أسطورة إبادية.

وفي مقال بعنوان: "الحصول على وطن قومي" يقارن بن جوريون بين الاستيطان الصهيوني والاستيطان الأمريكي في العالم الجديد، مستحضراً صورة المعارك العنيفة التي خاضها المستوطنون الأمريكيون ضد الطبيعة الوحشية، وضد الهنود الحمر الأكثر وحشية. ومما له مغزاه أنه ساوى بين الطبيعة وبين الهنود، بل وضعهم في مرتبة أدنى إذ هم أكثر وحشية منها. والواقع أن هذه الواحدية الكونية تؤدي إلى تجريد الإنسان وتحويله إلى مجرد جزء من دورات الطبيعة، الأمر الذي يجعل إبادته أو نَقْله أمراً مقبولاً بل مرغوباً فيه.

وأسطورة الاستيطان الصهيونية تنظر للوجود الفلسطيني في فلسطين باعتباره أمراً عرضياً هامشياً، والاعتذاريات الصهيونية مليئة بالحديث عن فلسطين باعتبارها أرض مهجورة مهملة، وكثيراً ما يتحدث الصهاينة عن الفلسطينيين كما لو كانوا جزءاً من الطبيعة بلا تاريخ. وكل هذا ينتهي

بطبيعة الحال بتأكيد حق اليهود المطلق في فلسطين. وتحاول الحركة الصهيونية وضع حل نهائي للمشكلة الديموجرافية فقامت أحياناً بالإبادة (دير ياسين - كفر قاسم) ولكن الطرد كان الشكل الأساسي. وبعد اتفاقيات أوسلو أخذ الحل النهائي شكل عزل السكان الأصليين داخل مجموعة من القرى والمدن ومحاصرتهم بالقوات العسكرية الإسرائيلية والطرق الالتفافية.

والأسطورة الإمبريالية الغربية لا تؤكد نهاية التاريخ وحسب وإنما نهاية الجغرافيا كذلك، فالأرض التي يستوطن فيها الإنسان الأبيض هي أرض وحسب، ليس لها حدود واضحة، ولذا فهي تتسع حسب قوة الإنسان الأبيض الذاتية، كلما زاد عدد المستوطنين وازدادوا قوة اتسعت الحدود. ومن هنا فكرة الرائد والجبهة المتسعة دائماً. والرائد هو الذي يرتاد أرضاً جديدة دائماً، لا يعرف حدوداً ولا قيوداً ولا سدوداً. وارتباط نهاية التاريخ بنهاية الجغرافيا أمر متوقَّع، ففكرة الحدود فكرة إنسانية حضارية غير طبيعية، أما عالم الطبيعة والمادة فلا يعرف الإنسان، ومن ثم فهو لا يعرف الحدود. وأسطورة الاستيطان الصهيونية هي أسطورة

التوسع بالدرجة الأولى، فإرتس يسرائيل ليس لها حدود واضحة، فالعهد القديم يحتوي أكثر من خريطة. والمستوطنون الصهاينة أطلقوا على أنفسهم مصطلح "حالوتسيم"، أي "رواد".

الاعتذاريات الإنجيلية

تم تبرير الرؤية الإمبريالية (خاصةً الاستيطانية) عن طريق القصص الإنجيلية، وهنا يحدث تلاق كامل بين أسطورة الاستيطان الغربية العامة وأسطورة الاستيطان الصهيونية. فالمستوطنون البيض (وضمنهم الصهاينة) ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم من الآباء (البطارقة) الذين تركوا بلادهم ليستقروا في بلاد أكثر اتساعاً، أو في أرض عذراء لم يستوطن فيها أحد من قبل. وهم مثل العبرانيين يخرجون من مصر (أو بابل) أرض المنفى البغيضة، وينسلخون من تاريخها ليعودوا إلى صهيون (الجديدة) بأن "يصعدوا" لها. فإن وجدوها مأهولة فأهلها إذن من الكنعانيين الذين لا حق لهم في الأرض ومصيرهم هو الحل النهائي: الطرد أو الإبادة.

وهذه الأسطورة شكلت الإطار التبريري للمستوطنين البيض في أمريكا الشمالية وجنوب أفريقيا والمستوطنين

الصهاينة في فلسطين، وليست مقصورة على المستوطنين اليهود وحدهم. فعلى سبيل المثال كان المستوطنون البيض في جنوب أفريقيا يقرنون بين أنفسهم وبين المستوطنين الصهاينة. فهم يرون أن اليهود، مثلهم، شعب مختار يحمل رسالة خالدة، وأن كلا الشعبين غُرس في أفريقيا أو آسيا دفاعاً عن هذه الرسالة. كما كان المستوطنون البيض يرون أن المستوطنين الصهاينة يبذلون أقصى جهدهم للاحتفاظ بعزلتهم عن السكان الأصليين تماماً كما يفعلون هم في جنوب أفريقيا. ولعل تغلغل الأساطير والرموز التوراتية في الخطاب الاستعماري الاستيطاني (اليهودي وغير اليهودي) يظهر بشكل واضح في جنوب أفريقيا. حيث يحتفل المستوطنون البيض بيوم الميثاق في ١٦ ديسمبر من كل عام، إذ يعتبرونه اليوم الذي عقد الإله فيه ميثاقه مع بعض الأفريكانز (الفورتركر Voertrekker، أي المستوطنون البيض من أصل هولندي، الذين آثروا الاستقلال عن الإنجليز. وقد عُقد الميثاق قبل المواجهة التي تمت بين البيض والسود في معركة نهر الدم. وقد أصبحت المعركة رمزاً لكل الأفريكانز. ويُعقد الاجتماع في مكان يوجد فيه تلٌّ عالٍ تُبنى عليه سفينة ضخمة

(ترمز لسفينة العهد التي كان يحملها العبرانيون القدامى في تجوالهم) تواجه بريتوريا، فكأن هذا المكان هو قدس الأقداس لقومية الأفريكانز.

عبء الرجل الأبيض

حاول الإنسان الغربي تفسير مركزيته على أساس عِرْقي، فالجنس الأبيض حسب هذا التصور هو مركز العالم، الأمر الذي يعطيه "الحق" في غزو العالم. وقد وصف اللورد بلفور عملية الاستعمار الاستيطاني بأنها تعبير عن حقوق وامتيازات الأجناس الأوربية، واعتبر عدم المساواة بين الأجناس حقيقة تاريخية واضحة. أما ريتشارد كروسمان، فكان يرى أن الاستعمار الاستيطاني الأوربي يَصدُر عن الإيمان بأن الرجل الأبيض سيقوم بجلب الحضارة إلى السكان الأقل تحضراً في آسيا وأفريقيا، وذلك عن طريق احتلال القارتين فعلياً، حتى لو أدَّى ذلك إلى إبادة السكان الأصليين (ولا شك في أنها طريقة غريبة ومدهشة أن تدخل الحضارة إلى شعب عن طريق إبادته). أما ماكس نوردو، فقد اقترح (حتى قبل تبنيه الرؤية الصهيونية وتمشياً مع نظرته العنصرية الاستعمارية) توطين العمال الأوربيين العاطلين

ليحلوا محل الأجناس الدنيا التي لا تستطيع البقاء خلال معركة التطور (وهذا تعبير متبلور عن الحداثة الداروينية).

والمشروع الصهيوني جزء من المشروع الاستعماري الغربي، والصيغة الصهيونية الأساسية صيغة غربية غير يهودية. وليس غريباً أن نجد الصهاينة يؤكدون انتماءهم إلى الجنس الأبيض، صاحب الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية والمشروع الاستعماري المنتصر، حتى يتمكنوا من المشاركة في المزايا والحقوق التي منحها الرجل الأبيض لنفسه، وحتى يساهموا في حَمْل عبئه الحضاري الثقيل. فنجد أن عالم الاجتماع الصهيوني آرثر روبين (١٨٧٦ - ١٩٤٣) يؤيد في دراسته يهود اليوم النظرية التي تؤكد الشبه الجسماني بين الجنس اليهودي وأجناس آسيا الصغرى ولا سيما الأرمن، إذ أنه يفضل (على حد قوله) أن يرى اليهود أعضاء في الجنس الأبيض، ويرحب بأية محاولات نظرية ترمي إلى توجيه الضربات للنظرية السامية التي تَنسب اليهود للعِرْق السامي أو الحضارة السامية. ويرى أن الاختلاف العنصري بين اليهود والأوربيين ليس كبيراً إلى درجة تؤدي إلى التشاؤم من ثمار الزواج المُختلَط بين أعضاء الجنسين.

وثمة اتجاه في التفكير الصهيوني يَقصُر لفظ يهودي على اليهود البيض وحدهم، أي الإشكناز. وقد أفصح روبين عن هذه الفكرة بصراحة بالغة في كتابه آنف الذكر، حيث يناقش أثر الحركة الصهيونية في وعي كثير من اليهود الغربيين، وكيف أن محاولات الاستيطان الصهيونية كانت تستهدف أساساً تجنيد اليهود الأوربيين، لا اليهود الشرقيين، رغم أن تجنيد وتوطين اليهود الشرقيين (من اليمن والمغرب وحلب) (سوريا والقوقاز) في المستعمرات الزراعية كان أكثر سهولة ويسراً.

وقد ذكَّر روبين قارئه بأن الإشكناز، بسبب طبيعة حياتهم في أوربا، وبسبب الاضطهاد الذي تعرَّضوا له، اجتازوا عملية طويلة من الاختيار وصراعاً مريراً من أجل البقاء، وهو صراع لا يستطيع البقاء فيه سوى الأكثر ذكاء والأكثر قوة. ولذلك تمت المحافظة على المواهب العنصرية الطبيعية العظيمة التي يتمتع بها اليهود، بل جرت تقويتها. وقد ساهمت عوامل أخرى أيضاً في تصفية غير الموهوبين، وفي الإبقاء على الأكثر موهبة، الأمر الذي شكَّل ضماناً أكيداً للتقدم الفكري للإشكناز وتفوُّقهم في النشاط والذكاء وفي المقدرة العلمية

على السفاردٍ وعلى اليهود العرب.

لكل ما تقدَّم، يرى روبين أن الحقوق التي يدَّعيها الرجل الأبيض لنفسه لا تنطبق على السفارد، وإنما تنطبق على الإشكناز وحدهم (فهم وحدهم القادرون على حمل عبء الرجل الأبيض، وعلى اغتصاب آسيا وأفريقيا). وهذه الرؤية للمستعمر الصهيوني، بوصفه رجلاً أبيض، موضوع أساسي كامن في الاعتذاريات الصهيونية. فتيودور هرتزل كان يؤمن تمام الإيمان بتفوق الرجل الأبيض، وكان يدرك تمام الإدراك ضرورة التنسيق بين الخطة الصهيونية الاستعمارية والمشروعات الاستعمارية المماثلة حتى لا تتعارض الحقوق المختلفة للبيض. ولذلك، فقد قرر الزعيم الصهيوني، قبل أن يجتمع بتشامبرلين، أن من الضروري قبل مناقشة الخطة الصهيونية، أن يبين لوزير المستعمرات البريطاني أن هناك بقعة ما في الممتلكات الإنجليزية ليس فيها حتى الآن أناس بيض. وقد بيَّن الروائي الإنجليزي والمفكر الصهيوني إسرائيل زانجويل في خطابه أمام المؤتمر الصهيوني السادس (١٩٠٣) أن الاستيطان الصهيوني في شرق أفريقيا سيكون وسيلة لمضاعفة عدد السكان البيض التابعين لبريطانيا هناك.

ولكن يبدو أن المستوطنين البيض هناك (وهم موضع الحلول) لم يقبلوا تعريف اليهودي بأنه رجل أبيض فعارضوا الاستيطان.

وقد حاول الصهاينة تسويغ الاستعمار الصهيوني بالرجوع إلى فكرة التفوق الحضاري الغربي. وانطلاقاً من هذا التصور، تَحدَّث هرتزل عن الإمبريالية بوصفها نشاطاً نبيلاً، يهدف إلى جلْب الحضارة للأجناس الأخرى التي تعيش في ظلام البدائية والجهل. وقد كان هرتزل ينظر إلى مشروعه الصهيوني من خلال ذلك المنظور الغربي حين كتب رسالة إلى دوق بادن يؤكد له فيها أن اليهود، عندما يعودون إلى وطنهم التاريخي، سيفعلون ذلك بصفتهم ممثلين للحضارة الغربية، وأنهم سيجلبون معهم النظافة والنظام والعادات الغربية الراسخة إلى هذا الركن الموبوء البالي من الشرق، وأن الصهاينة سيقومون (بصفتهم من المؤيدين المتحمسين للتقدم الغربي) بمد السكك الحديدية في آسيا التي تُعَدُّ الطريق البري للشعوب المتحضرة.

والاعتذاريات التي تنطلق من مقولة عبء الرجل الأبيض موجَّهة بالدرجة الأولى للدول الإمبريالية ولشعوبها. وفي هذا

الإطار طرحت إسرائيل نفسها باعتبارها دولة وظيفية غربية (بيضاء) نظيفة متقدمة، قاعدة للديموقراطية الغربية تحمي المصالح الإستراتيجية الغربية وتقف بحزم وصرامة ضد القومية العربية (في عصر النظام العالمي القديم) وضد الحركات الإسلامية (في عصر النظام العالمي الجديد).

ويؤكد الكثير من تصريحات الصهاينة أنهم لا يعتبرون أنفسهم كياناً عنصرياً منفصلاً فحسب، بل يعتبرون أنفسهم أعضاء في الجنس الأبيض. وفي عام ١٩١٧، كتب الزعيم الصهيوني بن جوريون مقالاً تحت عنوان "في يهودا والجليل" وصف فيه المستوطنين الصهاينة في فلسطين لا بوصفهم عاملين في هذه الأرض فحسب، بل على أنهم غزاة لها، "لقد كنا جماعة من الفاتحين". أما وايزمان فقد فضّل في كتابه المحاولة والخطأ أن يقارن بين المستوطنين الصهاينة من جهة والمستوطنين الفرنسيين في تونس والمستوطنين البريطانيين في كندا وأستراليا من جهة أخرى، كما أظهر أيضاً تعاطفاً ملحوظاً إزاء المستوطنين في جنوب أفريقيا.

ويتبدّى الاتجاه العنصري، الذي يسوّغ الاستعمار والعنف والإبادة باسم التقدم، في مذكرة بعث بها وايزمان إلى

الرئيس ترومان (في ٢٧ نوفمبر ١٩٤٧) يشرح له فيها أن المجتمع الصهيوني في فلسطين يضم أساساً فلاحين متعلمين وطبقة صناعية ماهرة تعيش على مستوى عال، ثم يقارن بين هذه الصورة المشرقة والصورة الكئيبة للمجتمعات الأمية الفقيرة في فلسطين.

وإذا نظرنا إلى الجانب الآخر لأسطورة عبء اليهودي الأبيض، وهو التفوق التكنولوجي للصهاينة (وليس العِرْقي)، الذي سيجعلهم رسلاً للتقدم يقومون بتطوير المجتمع ودَفْعه من المرحلة الدنيا التقليدية إلى المرحلة العليا الحديثة، فإننا نجد أن كتابات الصهاينة تزخر بها. وقد اقتبسنا بعضاً من كتابات بن جوريون (الصهيوني الاشتراكي) وغيره، في دفاعهم عن الاستعمار الصهيوني، باعتبارهم ممثلين للحضارة الغربية. ولا شك في أن المستوطنين الصهاينة كانوا عارفين بالتكنولوجيا وبوسائل التنظيم والقيم السياسية المعاصرة، كما كانوا جماعة معاصرة فعلاً، وقد نقلوا قيمهم ومؤسساتهم المعاصرة إلى الوطن الجديد، فنظموا النقابات العمالية والأحزاب السّياسية، وأجروا الانتخابات على أساس صوت واحد لكل ناخب. بل إنهم مارسوا أحياناً أشكالاً من

الاشتراكية، من حيث عدالة توزيع الدخل أو الإيمان بأهمية العمل اليدوي ومساواته بالعمل الفكري. ولكن كل هذه الأشكال المعاصرة من التنظيم، وهذه القيم الديموقراطية والاشتراكية، ظلت مقصورة على الصهاينة وحدهم، تُطبَّق على مجتمعهم الصغير (الميكرو) وليس على المجتمع كله. ولم يحاول الصهاينة تحديث المجتمع بأكمله بل على العكس حاولوا أن يوقفوا تطوُّره (وهذا الدور يقف على الطرف النقيض من الدور الذي تلعبه النخبة المعاصرة ذات الأصول القومية).

وقد بذل المستوطنون جهدهم في إبقاء السكان الأصليين في مستوى حضاري متخلف، ومنعهم من تنظيم أنفسهم داخل أُطر معاصرة (نقابات عمال، أحزاب سياسية)، وفضلوا التعامل معهم داخل أطر المجتمع التقليدي وتنظيماته. ولذا، فقد فضلوا التعامل مع كبار الملاك وزعماء العشائر. وقد رفض الهستدروت (اتحاد العمال المستوطنين الصهاينة) السماح للعمال العرب بالانتظام في صفوفه إلا في تاريخ قريب. كما أن الدولة الصهيونية (العصرية الديموقراطية) ترفض الاعتراف بحق تقرير المصير للسكان الأصليين أو

حقهم في المشاركة في النظام السياسي الصهيوني الجديد عن طريق تكوين الأحزاب والاشتراك في الانتخابات، وترفض أيضاً تشكيل دولة تضم كلاً من العنصر السكاني الدخيل والعنصر الأصلي على قدم المساواة.

وإلى جانب هذا، هناك الحقيقة الأساسية، وهي أن جماعة المستوطنين الغزاة تسرق من السكان الأصليين أرضهم، أي تسرق منهم الأساس المادي لأي تَقدُّم، وتهدم نمط حياتهم (الإطار الاجتماعي الذي تتحقق من خلاله نواتهم التاريخية). ولذا، تتغيَّر الأولويات، ويصبح واجب المواطن الأصلي (الجزائري أو الفلسطيني) هو البقاء وليس التقدم. ولعل هذا هو الذي يُفسِّر سرّ رفض موسى العلمي لكلمات بن جوريون الحلوة العذبة حين تقابلا عام ١٩٣٦ في منزل موشي شاريت. فطبقاً لما جاء على لسان بن جوريون بدأ الحديث بترديد النغمة (القديمة) التي أعدها عن المستنقعات التي يجري تجفيفها، والصحارى التي تزدهر بالخضرة، والرخاء الذي سيعم الجميع. ولكن العربي قاطعه قائلاً: "اسمع! اسمع يا خواجه بن جوريون، إنني أفضل أن تظل الأرض هنا جرداء مقفرة مائة عام أخرى، أو ألف عام آخر، إلى أن نستطيع

نحن استصلاحها ونأتي لها بالخلاص". ولم يسع بن جوريون إلا أن يعلق (فيما بعد) بأن العربي كان يقول الحقيقة، وأن كلماته هو بدت مضحكة وجوفاء.

عبء اليهودى الخالص

رغم شيوع أسطورة اليهودي الأبيض وحقه في استعمار فلسطين، فإن هذه الأسطورة لا تحتل مركز الصدارة وحدها في الخطاب الصهيوني، ذلك أن الاعتذاريات الصهيونية، وبخاصة حينما تتوجه إلى يهود العالم، تستند بصفة جوهرية إلى فكرة اليهودي الخالص. واليهودي الخالص غير مرتبط بأي جنس أو حضارة، شرقية كانت أو غربية (فهو يهودي مائة في المائة، على حد قول بن جوريون)، إذ أن اليهود بحسب هذا التصور يشكلون جنساً مستقلاً أو أمة مستقلة، وليسوا مجرد سلالة من سلالات الجنس الأبيض أو الحضارة الغربية. واليهودي، وليس الجنس الأبيض، هو نقطة الحلول والركيزة الأساسية للتاريخ والكون، أي أن مفهوم اليهودي الخالص عودة إلى الحلولية العضوية اليهودية المنفصلة تمام الانفصال عن الأغيار. وفي الواقع، فإن اليهودي الخالص ظهر في إطار محاولة تهويد الصيغة الصهيونية الأساسية

الشاملة، حين أسقطت الصهيونية الإثنية مصطلحات الصهيونية الحلولية اليهودية عليها.

كما أن فكرة اليهودي الخالص، مثلها مثل فكرة الرجل الأبيض المتفوق، تمنح اليهود حقوقاً معينة مقدَّسة وخالدة لا تتأثر بأية اعتبارات أو مطالب تاريخية، ولا يمكن حتى للفلسطينيين أنفسهم أن يكون لهم حقوق أقوى أو حتى مماثلة لحقوق اليهود في فلسطين. ويتضح هذا التصور في كلمات الحاخام جـ. ل. هاكوهين فيشمان ميمون، أول وزير للشئون الدينية في إسرائيل، حيث أكد أن الصلة بين الشعب اليهودي وأرضه مقدَّسة أو هي سر من الأسرار الدينية، وهذا ما يبيِّن أنه يدور في إطار حلولي عضوي. وقد يكون للآخرين، على أحسن الفروض، صلة ما بهذه الأرض (سياسية علمانية خارجية عرضية مؤقتة) في حين أن لليهود، حتى وهم في حالة الشتات، صلة مباشرة بها (صلة سماوية وأبدية، فهي صلة حلولية عضوية).

وفي مجال الدفاع عن هذه الأسطورة، نصح مناحم بيجين بعض المستوطنين الصهاينة عام ١٩٦٩ بأن يصروا على أن فلسطين هي أرض إسرائيل "فلو كانت هذه الأرض هي حقاً

فلسطين وليست أرض إسرائيل، إذن فأنتم فاتحون ولستم مزارعين يفلحون الأرض، أنتم إذن غزاة. وإذا كانت هذه الأرض هي فلسطين فهي إذن تنتمي إلى الشعب الذي عاش هنا قبل أن تأتوا إليها.. لن يكون لكم حق العيش فيها إلا إذا كانت أرض إسرائيل".

وإذا أصبحت فلسطين الأرض المقدَّسة أو أرض يسرائيل تصبح حقوق اليهود الخالدة سارية المفعول فيها، فيصبح بالإمكان الادعاء بأن فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض لأنها دخلت الدائرة الحلولية التي تستبعد الآخر. لقد كان الصهاينة يدركون أن الفلسطينيين يعيشون في فلسطين، وأن اليهود المشردين يعيشون في الأراضي التي وُلدوا فيها. ولكن الرابطة الأبدية بين الأرض والشعب اليهودي هي التي تجعل اليهود مجرد مشردين وشعباً رُحلاً بلا جذور، رغم وجودهم في أوطانهم في كل أنحاء العالم. وهذه الرابطة هي التي تنكر وجود الفلسطينيين وتجعل مطالبهم القومية مسألة هامشية. ولهذا، فإن شعار "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" لابد أن تتم إعادة صياغته على النحو الحلولي التالي: "أرض مقدَّسة بلا شعب مقدَّس لشعب مقدَّس بلا أرض مقدَّسة"

وفي هذه القداسة يذوب الفلسطينيون (شعب غير مقدَّس لا يتمتع بالحلول الإلهي)، وتصبح مطالبهم أمراً هامشياً وتافهاً، وقد تحقَّق كل ذلك دون اللجوء إلى أية نظريات عِرْقية فاضحة.

إن أسطورة الحقوق الأبدية لليهودي الخالص في أرض فلسطين، التي تفترض هامشية السكان الأصليين، هي شكل من أشكال الاعتذاريات يتسمُ بدرجة عالية من الغموض واللاأخلاقية تفوق غموض ولا أخلاقية الاعتذاريات العنصرية التقليدية التي تنسب التفوق الحضاري والعِرْقي للمستغل وتنسب التدني الحضاري العِرْقي للمستغَل؛ فالأساطير التقليدية، في نهاية الأمر، تعترف بوجود الآخر، أما الأسطورة الصهيونية الخاصة بالحقوق اليهودية فهي ترفض الاعتراف بوجوده. وفي إطار الحلولية العضوية، تصبح فلسطين (الأرض المقدَّسة) بلداً بلا سكان، لأن امتلاك فلسطين ليس من حق السكان الأصليين. وليس بإمكان البشر، يهوداً كانوا أم عرباً أن يتساءلوا عن معنى هذا القرار، لأن محور مشكلة فلسطين، وفقاً لما قاله بن جوريون، يتلخص في حق اليهود المشتتين في العودة (فاليهود هم موضع الحلول الإلهي، وهم اللوجوس المتجسد في التاريخ)،

وهو حق مطلق قائم منذ بداية التاريخ حتى نهايته. وكما قال وايزمان "إن أساس وجودنا كله هو حقنا في إقامة وطن قومي فوق أرض إسرائيل]فلسطين [وهو حق نملكه منذ آلاف السنين، ومصدره وعد الرب لإبراهيم، وقد حملناه معنا في أنحاء العالم كله طوال حياة حافلة بالتقلبات". وقد وصلت نظرية الحقوق هذه إلى ذروتها فيما نسميه "الصهيونية الحلولية العضوية"، صهيونية جوش إيمونيم وكاهانا حيث يصبح اليهودي الخالص هو اليهودي المطلق.

والجدير بالذكر أن النطاق الإقليمي المحدود للأسطورة الصهيونية قد جعل كثيراً من الناس، ولا سيما في الغرب، يعتقدون أن الصهيونية ليست عنصرية. وهم على حق في هذا من بعض النواحي، فالنازية على سبيل المثال لم تكن عنصرية إزاء اليابانيين مثلاً. وكذلك الصهيونية في العالم الغربي، فهي ليست سوى أيديولوجيا سياسية وضعها اليهود من أجل اليهود، تخصهم وحدهم ولا تتضمن أي تمييز ضد أي شخص في الولايات المتحدة أو إنجلترا. بل لقد دافع بعض الغربيين عن الدور الإيجابي البنّاء الذي تلعبه الصهيونية بين الأمريكيين اليهود، حيث تزودهم بالشعور بالترابط والانتماء.

وقد تكون هذه النظرة سليمة في حدود هذه الجزئية. ولكن الصهيونية حين نُقلت من أوربا وأمريكا إلى آسيا (مسرحها الحقيقي)، فإن الأمر أصبح جد مختلف، وأفصحت الصهيونية عن وجهها العنصري القبيح وأخذت تمارس أثرها الهدام على المجتمع الفلسطيني. والواقع أن التناقض هنا ليس تناقضاً بين النظرية والممارسة، ولكنه تناقض بين نظرية ونوعين من أنواع الممارسة، أحدهما عرضي مؤقت (في الغرب) والآخر ضروري وجوهري (في آسيا). وفي تصوري أن الحكم على الصهيونية لا يمكن أن يتم في لندن أو باريس، وإنما ينبغي أن يتم الحكم عليها في مجال فعاليتها الأساسية، في حيفا ويافا والضفة الغربية ومئات القرى التي هُدمت. ولو أننا حكمنا على النازية في طوكيو مثلاً لوجدناها أيضاً مجرد أيديولوجيا قومية تدافع عن حقوق وأمجاد الشعب الألماني.

ومما يدعو للسخرية أن بعض المتحدثين بلسان حكومة التمييز العنصري بجنوب أفريقيا، قد وضعوا تقييماً واقعياً للتجربة الصهيونية في آسيا. فقد عنَّف فيروورد، رئيس وزراء جنوب أفريقيا السابق، بعض الصهاينة الذين رفضوا أن يقرنوا بين سياسة النمو المنفصل التي تنتهجها إسرائيل على

أساس من الدين (أو اليهودية الخالصة) والسياسة المماثلة التي تنتهجها حكومة جنوب أفريقيا على أساس عنصري، فقال: "إذا كان التمييز خاطئاً في الحالة الثانية، فهو لا شك خاطئ أيضاً في الحالة الأولى". والواقع أن الاعتذاريات، مهما بلغت من تركيب ودهاء، فإنها لا تغيِّر حقيقة التمييز العنصري في شيء. كما أن الحقوق المقدَّسة التي تَجُبُّ حقوق الآخرين، سواء استندت إلى أساس عنصري أو إلى أساس إلهي أو إثني، فإنها في نهاية الأمر تعد على حقوق الغير وإلغاء لوجوده.

وتعبِّر فكرة اليهودي الخالص عن نفسها في فكرة الدولة اليهودية الخالصة الخالية من أية عناصر غير يهودية وفي التركيز المستمر على قضية اضطهاد اليهود في كل زمان ومكان. وقد حاول وايزمان أن يبلور هذه الفكرة من خلال صورة مجازية إذ قارن بين "اليهودي الخالص" والحيوانات التي تحيا حياة سعيدة في حديقة الحيوان (في جنوب أفريقيا): "ها هي ذي في موطنها، الذي تقل مساحته قليلاً عن مساحة فلسطين، تنعم بالحرية، وتقدِّم لها الطبيعة هباتها بسخاء، ولا تواجهها مشكلة العرب". وحتى لا يترك أي مجال

للشك لدى قارئه، يعمم القضية على كل اليهود: "لا شك أنه أمر رائع أن يكون المرء حيواناً في حديقة الحيوانات بجنوب أفريقيا. فذلك أفضل له كثيراً من أن يكون يهودياً في وارسو أو حتى في لندن". والصورة المجازية التي يستخدمها وايزمان تدل على غبائه الشديد، ولكنها مع هذا ذات دلالة، فالحيوان في حديقة الحيوان يشبه اليهودي الخالص في دولته اليهودية، وهذا ما يفتقده اليهودي في فلسطين ووارسو ولندن!

كما أن التركيز على قضية البقاء اليهودي المهدَّد دائماً إما من خلال الإبادة المباشرة (الهولوكوست ـ أفران الغاز) أو من خلال الاندماج وفقدان الهوية هو تعبير عن مفهوم اليهودي الخالص. وينبع النقد الصهيوني للشخصية اليهودية في المنفى (باعتبارها شخصية جيتوية هامشية طفيلية) من مفهوم اليهودي الخالص هذا.

عبء اليهودى الاشتراكى

وإذا كانت الاعتذاريات التي تستند إلى فكرة اليهودي الخالص فريدة مقصورة على الصهاينة، فإن الاعتذاريات التي تستند إلى فكرة اليهودي الاشتراكي وحقوقه في فلسطين قد تكون أكثر تَفرُّداً وطَرافة. وكما أشرنا من قبل،

انضم كثير من الشباب اليهودي إلى صفوف الحركات الثورية، وقد سبَّب هذا حرجاً شديداً لليهود المندمجين. وقد باعت الصهيونية نفسها باعتبار أنها الحركة التي ستحوِّل الشباب اليهودي عن طريق الثورة. والواقع أن أسطورة الاستيطان العمالية برزت لتحقيق ذلك الهدف. تقوم هذه الأسطورة بتسويغ الاستيطان الصهيوني لا باسم التفوق العنصري أو التقدُّم الحضاري الأزلي أو الحقوق المقدَّسة الأزلية بل على أسس اشتراكية علمية (والاشتراكية في هذه المنظومة هي موضع الحلول، وهي أيضاً اللوجوس المتجسد في التاريخ). ومن ثم، فإن الحقوق اليهودية تستند - حسب هذه الأسطورة - إلى المثل الاشتراكية العليا (ومنها نُبل العمل العبري). ولم يكن هذا المنطق مقصوراً على الصهاينة وحدهم، فثمة اتجاه داخل الحركة الاشتراكية الغربية يُطلَق عليه اصطلاح "الاشتراكية الإمبريالية"، وتضم أولئك الاشتراكيين الذين وجدوا أن من المحتم عليهم (باسم التقدم والأممية) تأييد الإمبريالية الغربية لأنها تعبير عن الرأسمالية الغربية (أعلى مراحل التطور الاجتماعي والاقتصادي الذي بلغه الإنسان). كما أنهم كانوا يرون أن الإمبريالية، بغزوها

آسيا وأفريقيا، ستقضي على كل المجتمعات التقليدية فيها، كما ستقضي أيضاً على التخلف وتجلب الصناعة والتقدم لها. ومن هذا المنطلق، شجع بعض أتباع سان سيمون وكذلك فردريك إنجلز الاستعمار الاستيطاني في الجزائر، كما دافع كثير من الاشتراكيين الهولنديين عن "الهجمة الحضارية" التي شنتها بلادهم على الأندونيسيين.

وقد خرجت أسطورة الصهيونية العمالية من هذه المجموعة من الأفكار، فلم يكن المستوطنون الصهاينة مجرد يهود فحسب بل كانوا أيضاً رواداً زراعيين اشتراكيين وحارثين لأرض أجدادهم. وقد كتب مارتن بوبر لغاندي يقول: "إن مستوطنينا لم يجيئوا إلى فلسطين كما يفعل المستعمرون الغربيون الذين يطلبون من أهالي البلاد أن يقوموا عنهم بكل الأعمال، بل إنهم يشدون بأكتافهم المحراث ويبذلون قوتهم ودمهم من أجل أن تصبح الأرض مثمرة". وقد عاد المستوطنون العبريون الجدد إلى الأرض مثقلين بماضي يهود الشتات بكل ما في ذلك من شذوذ وطفيلية. وتقول النظرية العمالية الصهيونية إن المستوطن الجديد يمكنه، من خلال العمل العبري، أن يُطهِّر نفسه مما علق بها من شوائب

وأدران، فالمستوطنون إنما يحررون أنفسهم حين يحررون الأرض، بحرثها والعمل على ازدهارها "إن هذه الأرض تعترف بنا لأنها تثمر من خلالنا".

ولقد نقل الكاتب الإسرائيلي عاموس إيلون سطراً من أغنية جذابة كان الرواد الزراعيون يرددونها في المستوطنات الإسرائيلية، يصفون أنفسهم فيها بأنهم أول من وصل، "مثل العصافير في الربيع"، إلى الحقول الملتهبة والأرض المقفرة الجرداء. وهذه البراءة الكونية، وهذا الإيمان بقدرة العمل على الشفاء والتطهير، وهذا الالتزام بمبدأ المساواة، تظهر جميعاً في كلمات بن جوريون حين تحدَّث عن مدى أحقية الإنسان في أرض ما، فهذا الحق لا ينبع من سلطة سياسية أو سلطة قضائية (فكل هذه الأمور ليست ذات شأن من وجهة النظر الصهيونية العمالية) وإنما ينبع من العمل. ثم أطلق بن جوريون شعاراً ثورياً أحمر لابد أنه لاقى هوى في القلوب الثورية البريئة: "الملكية الحقيقية والدائمة للعمال". بيد أن نقل المفاهيم من مستواها وسياقها إلى مستوى وسياق آخرين يسفران عن نتائج مختلفة، فمثل هذا الشعار يتسم بالثورية الحقة إذا استخدمه العمال الفرنسيون في الأرض الفرنسية.

ولكن حينما يقوم العمال الفرنسيون بتطبيق الشعار نفسه في الأراضي الجزائرية، فإنه يصبح في التو اغتصاباً للأرض، وخصوصاً إذا كانت المنافسة بين العمال الفرنسيين والجزائريين منافسة غير متكافئة، حيث كان الفريق الأول تسانده مؤسسة عسكرية متقدمة تكنولوجياً.

وقد علق الكاتب الإسرائيلي عاموس كنان على هذا النوع من الاعتذاريات الاشتراكية قائلاً: "إن الصهيونية لم تستطع تحقيق انتصاراتها وإنجازاتها دون الاستفادة من النفاق الذي تنطوي عليه هذه الاشتراكية. فكما أن المسيحية (بمثُلها ومثالياتها) كانت بمنزلة عذر معنوي للصليبيين، فإن الاشتراكية (بمثُلها ومثالياتها) أدّت هذه المهمة للصهاينة".

والاعتذاريات الاشتراكية موجّهة بالدرجة الأولى للقوى والدول الاشتراكية في العالم وللشباب الاشتراكي من أعضاء الجماعات اليهودية. وفي هذا الإطار تطرح إسرائيل نفسها باعتبارها دولة اشتراكية يمقت سكانها الرأسمالية. ويُلاحَظ أنه في الستينيات مع تصاعد قوى التحرر الوطني في آسيا وأفريقيا، كان ضرورياً أن تتلون الاعتذاريات الصهيونية. فطرحت الصهيونية نفسها على أنها حركة تحرُّر الشعب

اليهودي (ممن؟) وهو شعب صغير استُعبد عبر تاريخه ويبحث عن الحرية. وفي الوقت الحاضر يتم الدفاع عن الصهيونية باعتبارها حركة بيئية! وعملية تلوُّن الاعتذاريات الصهيونية دليل على مدى ذكاء الصهاينة وغياب البُعْد العقائدي الثابت، وهو أمر متوقع من أيديولوجية تحملها جماعات هامشية تطالب بإنشاء دولة وظيفية لخدمة الاستعمار الغربي أو أية قوى على استعداد لتزويد هذا الجيب الاستيطاني بالأمن والدعم.

وتعبِّر كل نظرية للحقوق عن رؤية للذات تكملها رؤية للآخر. ويمكن القول فيما يتعلق بالحقوق الصهيونية بأن نظرية الحقوق الصهيونية في فلسطين تعني في واقع الأمر أن اليهود لا حقوق لهم في أوطانهم التي يقيمون فيها، فمن له حقوق مطلقة في مكان ما لا يمكنه الادعاء أن له حقوقاً مطلقة أو نسبية في مكان آخر.

الفصل السابع
تيودور هرتزل : الفكر الاستعماري والعباءة الليبرالية

ناقشنا في الفصول السابقة بعض الأصول الغربية للفكر الصهيوني، وكيف تشكلت الرؤية الصهيونية للواقع في أحضان الإمبريالية والعنصرية والنيتشوية، ومفهوم نفع اليهود، وكيف أدخل الصهاينة بعض الديباجات اليهودية. ويمكننا الآن أن نختبر هذا النموذج التفسيري على بعض الحالات المحدودة لنبين كيف يختبئ الفكر الاستعماري الغربي وراء الديباجات الليبرالية والاشتراكية واليهودية. وقد سادت في أوربا أيديولوجيتان سياسيتان أساسيتان هما: الليبرالية والاشتراكية. وهما أيديولوجيتان تقف كلٌّ منهما على الطرف النقيض من الأخرى. ومع هذا، تبنى فريق من الصهاينة الأيديولوجية الأولى وتبنى فريق آخر الأيديولوجية الثانية.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: كيف يمكن لحملة رؤية واحدة تبني أيديولوجيتين متناقضتين، وكيف يمكن لحملة رؤية عنصرية إقصائية استبعادية، مثل الصهيونية، تبني أيديولوجيتين تنطلقان من فكرة المساواة؟! يمكن تفسير هذا

الوضع بالأسباب التالية:

١- "الليبرالية" و"الاشتراكية" اللتان تبناهما الصهاينة لا ينطبقان إلا على المستوطنين ولذا يمكن أن نطلق عليهما "الليبرالية الاستيطانية" و"الاشتراكية الاستيطانية"، بمعنى أنها "ليبرالية" لا تطبَّق إلا على المستوطنين الصهاينة. أما "الاشتراكية" - كما سنبين فيما بعد - فهي آلية من آليات الاستيطان الإحلالي، تماماً مثل الديمقراطية الاستيطانية. والصهيونية في هذا لا تختلف عن الممارسات الغربية. فجيوش فرنسا كانت تدك القرى الآمنة في الجزائر، بينما كانت شعارات الحرية والإخاء والمساواة ترفرف فوق باريس. والثورة الفرنسية أرسلت لنا بنابليون، والديمقراطية الأمريكية أرسلت لنا بجيوشها لتغزو العراق ثم تبدأ في "إعمار" العراق بالشركات الأمريكية التي ستحصل على العقود السخية!

٢- من الواضح أن العالم الغربي الذي نادى بالليبرالية والاشتراكية وغيرهما من القيم النبيلة، كان يحصر نطاقها بالعالم الغربي، أما بقية العالم (آسيا وأفريقيا وأمريكا الشمالية) فهو مجرد مادة استعمالية يوظفها الغرب لصالحه. والدولة الصهيونية تنتمي لهذا النمط.

٣- عملية تجنيد البشر لا يمكن أن تتم من خلال أيديولوجية عنصرية واضحة المعالم والأهداف. فحينما كان يطلب من الجندي الإنجليزي أن يحمل سلاحه ويذهب إلى مجاهل أفريقيا ليأتي على الأخضر واليابس، فإنهم كانوا يخبرونه أنه يفعل ذلك في إطار عبء الرجل الأبيض وليس من أجل نهب ثروات هذه الشعوب (لا سمح الله!). فكما أن الصهيونية وظفت أيضاً الدين اليهودي في أن تسبغ على نفسها قدراً من الشرعية (الكونية إن صح التعبير)، فإنها قد وظفت أيضاً الأيديولوجيات السياسية لتسبغ على نفسها قدراً من الشرعية السياسية، فهي عملية تطبيع معرفية.

٤- الليبرالية والاشتراكية وغيرهما من الأيديولوجيات والرؤى هي مجرد زخارف أو ديباجات يتم لوي عنقها لتبرير المشروع الصهيوني ولزيادة مقدرته التعبوية، خاصةً وأن الجماهير التي وُجِّه لها هذا المشروع كانت غير متجانسة، قطاعات منها كانت دينية والأخرى علمانية، وبعضها كان اشتراكياً والبعض الآخر ليبرالياً. ولذا، كان لابد من تنويع الأيديولوجيات والديباجات على أن يبقى الجوهر أو الإجماع الصهيوني كما هو. فلا الليبرالية ولا الاشتراكية ساهمتا

بشكل جوهري في تشكيل الرؤية الصهيونية للواقع. فبرغم اختلافاتهما الأيديولوجية الواضحة، إلا أن تأثيرهما ظل سطحياً، فالجوهر هو الإيمان الصهيوني بأن فلسطين أرض بلا شعب، بقعة جغرافية بلا تاريخ، وأن يهود العالم شعب بلا أرض، وأن العنف هو آلية تحقيق الرؤية الصهيونية، أي أن جوهر الرؤية الصهيونية يظل هو الرؤية الاستعمارية الغربية.

صهيونية هرتزل العلمانية الليبرالية

يُطلق على التيار الصهيوني الذي أسسه هرتزل الصهيونية السياسية". وقد وصفت هذه الصهيونية بأنها صهيونية علمانية ليبرالية، بل وبأنها إنسانية. فما هي حقيقة هذا الادعاء؟

تنطلق الصهيونية السياسية من الافتراض القائل بأن معاداة اليهود واليهودية حقيقة موضوعية، فنجد أن هرتزل يقرر أن اندماج اليهود مع بقية الأمم في حكم المستحيل: "لقد حاولنا بإخلاص أن نختلط بالمجتمعات التي عشنا فيها، وكان جل همنا أن نحافظ على إيمان آبائنا.. ولكننا ما زلنا نعامل كالغرباء في وطننا الذي عشنا فيه قروناً"(١). ولكن ما هو تفسير هذه الظاهرة؟ يحاول هرتزل تقديم تفسيرات يتصور

أنها علمية، ففي آونة يشير إلى أن اليهودي إن هو إلا ضيف ثقيل على الأمم التي يعيش بين ظهرانيها، وفي آونة أخرى نجده يفسر سبب كره الأغيار لليهود على أساس قوة اليهود الاقتصادية ونجاحهم الاقتصادي(٢)، بل ويصرح أحياناً بأن السبب الحقيقي هو التخلف الحضاري عند اليهود فهم "نتاج الجيتو"(٣) حيث يجدون أنفسهم مدفوعين للاشتغال بالربا والأعمال المصرفية لأنه غير مسموح لهم بممارسة مهنة أخرى(٤). وجريمة المعادين لليهود هي أنهم لا يفهمون التاريخ أو الظروف التي جعلت من اليهودي يهودياً رغم أنفه. وهذه التفسيرات كلها كانت سائدة في الأدبيات العنصرية الغربية المعادية لليهود.

وحل هذه المشكلة لا يمكن أن يتم إلا عن طريق اتخاذ خطوات عملية مثل الهجرة اليهودية وتأسيس الدولة اليهودية، أي أنه يجب أن يستند الوجود "اليهودي إلى تربية صالحة للنمو السليم ذات أساس جغرافي سياسي(٥) سويّ مختلف عن الأساس الديني القديم" (على حد قول جاكوب كلاتزكين (١٨٨٢ - ١٩٤٨)، وهذا يعني في واقع الأمر تخليص أوربا من اليهود.

وقد حاول الصّهاينة السياسيون فصل الدين اليهودي عن القومية اليهودية، فحاولوا تقديم أساس للقومية أوسع من الأساس الديني "أساس ذابت عليه جميع الفروق الدينية"، ذلك الأساس "هو.. الجنس والقومية"(٦) على حد قول جوتهيل (١٨٦٢ - ١٩٦٣!) الصهيوني الأمريكي الهرتزلي النزعة. وبذا، لم يعد "اعتناق الدين أو القبول بالمعتقد الأخلاقي"(٧) أموراً أساسية لازمة كي يصبح المرء يهودياً (كلاتزكين). ونتيجةً لهذا التعريف لليهود يصبحون "أمة" و"قومية"، وفي أوربا، في القرن التاسع عشر، كان هذا هو المفهوم المحوري، وكانت إعادة التعريف تعني أن اليهود يصبح لهم حقوق قومية، ومن ثم يمكن مساعدتهم على تحقيق أهدافهم.

ويتصور الصهاينة السياسيون أن علمنة اليهودية وهجرة اليهود وتأسيسهم لدولة خاصة بهم سيحسن العلاقات بين اليهود والأغيار ويصالح بين هذين العالمين المتناقضين (على حد قول جوتهيل) (٨). وهكذا تبدو الصهيونية وكأنها حل عقلاني للغاية، بل وتبدو معاداة اليهود واليهودية ذاتها على أنها ظاهرة "طبيعية" تحكم علاقة كل اليهود بكل الأغيار، كما تبدو الهجرة اليهودية على أنها تضحية ليبرالية بالذات يبذلها

اليهود حتى يعم السلام ويسود الوئام.

وتحويل اليهود إلى شعب مثل كل الشعوب، وأمة مثل كل الأمم، هو الأساس الأول الذي تستند إليه الصهيونية السياسية. وكي تكتسب المسألة طابعاً أعمق، نجد أن هرتزل وبنسكر وغيرهما من الصهاينة السياسيين يصرون على أن يكون انعتاق اليهود "انعتاقاً ذاتياً" بالاستناد إلى جهودهم الخاصة، أو كما يقول هرتزل "إن لم يكن الشعب قادراً على مساعدة نفسه بجهوده الخاصة فإنه شعب لا أمل فيه"(٩). هذا الإصرار على الانعتاق الذاتي (الأساس الثاني للصهيونية السياسية) هو في الواقع إصرار على أن اليهود يشبهون بقية الأمم التي كانت آنئذ تطالب بالاستقلال السياسي مستمدة الشرعية من وعيها القومي بذاتها (ومن وحدة اللغة والأرض والتراث القومي)، والتي كانت تتحرك بموجب منطق التاريخ والواقع دون دفع أو تآمر من الخارج. ولكن دعاوى الانعتاق الذاتي ستتهاوى، كما سنرى، عندما يحاول المشروع الصهيوني الخروج من نطاق الفكر إلى حيز التنفيذ.

ولأن الصهاينة السياسيين ليسوا منغلقين على العالم

اليهودي وحده (كما يدعون) ولأن برنامجهم للبعث القومي يتسم بالعملية والليبرالية، نجدهم لا يرفضون الدخول في علاقة مع الأغيار، بل إننا نجد العكس صحيحاً على المستوى النظري، فكل همّ الصهاينة السياسيين هو الانتماء إلى عالم الأغيار والاندماج فيه بعد أن فشلوا في الانتماء إليه والاندماج فيه كأفراد. بل إننا يمكننا القول بأن إحدى السمات الأساسية للصهيونية السياسية هي رؤيتها للمسألة اليهودية على أنها مشكلة سياسية دولية، أي مشكلة يجب على كل الأمم المتحضرة (أي الدول الغربية الاستعمارية) مناقشتها وإيجاد حل لها على حد قول هرتزل(١٠).

وتتكرر الإشارات في كتابات هرتزل "العلنية" إلى هذه النقطة. فالحركة الصهيونية، حسب تصوره، لابد وأن تنشأ تحت رعاية جميع الدول وفي إطار القانون الدولي]أي الغربي الاستعماري .[ويبين هرتزل أنه سيقوم بتنظيم جمعية يهودية صهيونية حتى يتسنى لهذه الجمعية تمثيل القوة الخالقة للدولة في نظر القانون الدولي(١١). وهو لن يحصل على قطعة الأرض المحايدة التي سينشئ عليها دولته إلا بعد أن تظهر "القوى الدولية" الرغبة في منح اليهود السلطة في ذلك(١٢):

أي أنه أدرك أن تحقيق الحلم الصهيوني من خلال الانعتاق الذاتي أمر مستحيل، وقرر دمج المشروع الصهيوني برمته في التشكيل الاستعماري الغربي.

هذه هي صهيونية هرتزل السياسية "العلنية" التي عرفها كلاتزكين في مقاله "الحدود" بأنها تعبير عن روح الإنسان وكرامته الإنسانية(١٣): إنها تعلق آمالها إلى حد كبير على التقدم العام للحضارة، وإيمانها القومي هو إيمان الانسان بشكل عام "الإيمان بقوة الخير والجمال"(١٤).

وقد بلغ تفتح كلاتزكين درجة عالية حتى أنه انتقد دعاة الصهيونية الروحية التي نشأت في شرق أوربا "المتخلف" لأنهم ينظرون إلى الصهيونية السياسية على أنها مجرد "استمرار" للتراث اليهودي وليس "كحركة عالمية مدمرة من جهة ومعمرة من جهة أخرى"(١٥)، كما أشار إلى أن اهتمامهم ينصب على اليهودية وحدها دون اليهود، أي أن اهتمامهم جماعي منغلق وليس فردياً منفتح. ثم يذكر كلاتزكين أن الصهيونية السياسية قد نشأت في غرب أوربا وليس في شرقها، وأن ظهور هرتزل لم يأت نتيجةً لوعي قومي يهودي بل كان نتيجة لوعي إنساني عالمي. "إن الإنسان في

هرتزل وليس اليهودي هو الذي أعاده إلى شعبه"(١٦)، أي أن الصهيونية هي نتاج الحركة العقلانية العلمانية في الغرب في القرن التاسع عشر وليس لها أي علاقة بيهودية الجيتو المتخلفة. ولذا، فإن يهود شرق أوربا يعارضون الاندماج والانعتاق صادرين عن مقولات متخلفة، أما هرتزل، حسب تصور كلاتزكين، فيعارض هذا الاندماج ذاته على أسس نقدية "فقد رأى بكل وضوح ما ينجم عن الاندماج من أنماط وما يلحق باليهود من عار".

كل هذه الادعاءات الليبرالية يمكن تفنيدها بأن نفتح أي صحيفة إسرائيلية ونستمع لتصريحات أي مسئول إسرائيلي. وحتى هذا ليس ضرورياً، فنحن إذا ما عدنا لمذكرات هرتزل (بل ولكتاباته العلنية أحياناً) بحثاً عن النسائم الليبرالية الجمالية الأخلاقية التي يذكرها كلاتزكين لباء بحثنا بالفشل، ولوجدنا عقلاً عنصرياً منغلقاً على نفسه فاشياً في انغلاقه. وهو في هذا لا يختلف كثيراً عن الليبراليين الغربيين الذين كانوا يثرثرون عن الحرية ويرسلون بجيوشهم لتدك القرى الآمنة في آسيا وأفريقيا. وقد يكون من المفيد أن نجوب خلال هذا العقل الصهيوني مدعي الليبرالية نتعرف على خباياه

ونرى الوجه الحقيقي دون القناع، وبذلك نتعرف على أحد المكونات الأساسية للإدراك الإسرائيلي للواقع بكل ضراوته ووحشيته ولاعقلانيته.

هرتزل وبعض الموضوعات المألوفة

ولد تيودور هرتزل في ٢ مايو ١٨٦٠ في بودابست، ونشأ في عصر كان اليهود يتمتعون فيه بحقوقهم المدنية والسياسية ويشيرون بفخر إلى الدماء المجرية التي تجري في عروقهم، وكانت البيئة التي نشأ فيها علمانية إلى حدٍ كبير لا تغلب عليها العناصر اليهودية. وقد تلقى هرتزل تعليمه الابتدائي في إحدى المدارس الفنية ثم تلقى هرتزل تعليمه الثانوي في بودابست - أي أنه لم يلتحق بأي مدارس دينية - وحينما بلغ الثامنة عشرة انتقلت عائلته إلى فيينا، فدخل كلية الحقوق (١٨٧٨- ١٨٨٤) حيث درس القانون الروماني والاقتصاد وفلسفة القانون، ثم قام بسياحات عديدة في ألمانيا وسويسرا وفرنسا وإيطاليا، كما بدأ في ممارسة الكتابة الأدبية فكتب حوالي سبع عشرة مسرحية، إلى جانب عدد من القصص القصيرة والعديد من المقالات. وفي عام ١٨٨٧، عيِّن هرتزل محرراً أدبياً في إحدى المجلات النمساوية. وشهد عام ١٨٨٩

زواجه من الشقراء زرقاء العينين جولي نتشاور، وهي امرأة مقبلة على الحياة تنتمي إلى عائلة يهودية ثرية مندمجة وغير مهتمة بالطقوس أو التقاليد اليهودية. وربما يفسر هذا عدم نجاح زواج هرتزل (الذي بدأ يظهر اهتماماً شديداً بالمسألة اليهودية). ومما زاد الأمور تعقيداً أن أم هرتزل كانت مغرمة به بشكلٍ مرضٍ، حتى أنها كانت تغار عليه من زوجته، مما أدى إلى فشل زواجه في نهاية الأمر. وإبان هذا الوقت، بدأت الموضوعات اليهودية التقليدية المختلفة مثل معاداة اليهودية والاندماج والعودة تظهر في كتاباته. ففي مسرحية الجيتو الجديد يموت بطل المسرحية وهو يصيح منادياً بالخروج من الجيتو، غير أن هرتزل يذكر في المسرحية ذاتها أن أكثر اليهود اندماجاً يعيشون في جيتو غير منظور في عالم الأغيار.

وفي عام ١٨٩١، قبل هرتزل وظيفة مراسل صحفي في باريس لصحيفة نيو فراي برسي وهي من كبرى الصحف النمساوية. وقد كتب هرتزل لصحيفته عن محاكمات دريفوس. ويبدو أنه كان مقتنعاً في بداية الأمر بأن دريفوس كان مذنباً، ولكنه غيّر رأيه فيما بعد. وحينما نشر هرتزل كتابه دولة

اليهود عام ١٨٩٦ لم يتحمس له كثير من اليهود بل ناصبه بعضهم العداء، خاصة الأرستقراطية اليهودية المندمجة، ولم يلتف حوله سوى بعض أعضاء جمعية "أحباء صهيون".
وقضى هرتزل سنوات حياته الأخيرة داعياً للفكرة الصهيونية متنقلاً من عاصمة لعاصمة باحثاً عن حامٍ ونصير لفكرته. ثم قام بتأسيس الحركة الصهيونية ودعا إلى عقد المؤتمر الصهيوني الأول الذي عُقد فعلاً في بازل عام ١٨٩٧ والذي انتخب هرتزل رئيساً له. وفي يوليو ١٩٠٤، مات تيودور هرتزل وهو يضرب اللحاف بيده في هذيان الموت كما لو أنه يضرب على مائدة الاجتماعات معتقداً أنه لا يزال يترأس المؤتمر الصهيوني، أو وهو يتصور أنه في أرض الميعاد يشتري أرضاً من أصحابها "يجب أن تشتري الثلاثة فدادين هذه، هل دونت ملحوظة بذلك: الثلاثة فدادين هذه"(١٧).

وقد كان هرتزل يحاول أحياناً أن يقدم تفسيراً علمياً لمعاداة اليهود واليهودية باعتباره إنساناً غربياً، يرى اليهود باعتبارهم شعباً عضوياً منبوذاً، ليس له مكان داخل التشكيل الحضاري الغربي. ولكنه يحاول أن يسبغ على العداء لليهود هالة دينية فيقول: إن معاداة اليهود شيء مرسل من عند

الإله، أو كما يقول في يومياته: "ثمة عنصر من الإرادة الإلهية ينحو نحو الخير يوجد في معاداة اليهود، إنها ترغمنا]نحن اليهود [على التآلف وتضغط علينا لنتحد وعن طريق وحدتنا ستقود خطانا للحرية"(١٨). بل إن معاداة اليهود - في تصوره - هي التي جعلت من اليهود يهوداً"(١٩)، ولعل هذا هو السبب الذي جعله يقترح الحل الصهيوني للمسألة اليهودية - وهو حل استعماري غربي مبني على تقبُّل كل مقولات العنصرية الغربية الخاصة باليهود. وهذه حقيقة تنبه لها هرتزل نفسه كما تنبه لها معارضوه من اليهود المندمجين الذين كانوا يرون أن المناداة بأن الجماعات اليهودية في العالم إن هي إلا "شعب واحد" دعوة تشكل خطراً على اليهود لأنها تساعد أعداءهم وتوقف الاندماج(٢٠). وقد تنبه أيضاً كثير من المتعاملين مع هرتزل إلى خطورة الدعوة الصهيونية، فعلى سبيل المثال نجد أن دوق بادن الكبير، الذي حاول هرتزل الحصول على دعمه، عبَّر عن خشيته من أن مساندته للمساعي الصهيونية قد يُفهم منها أنها معادية لليهود. وكان هرتزل نفسه يلزم الحذر "خوفاً من المعادين لليهود لأنهم قد يدعمون الحركة الصهيونية بشكل آخر: ليخرج اليهود"(٢١).

وكان يعلم تمام العلم أن المندمجين من اليهود الألمان، الذين كانت لديهم أحاسيس متشابهة لأحاسيس الإنسان الغربي تجاه يهود شرق أوربا، كانوا يرحبون بالحركة الصهيونية لا لإنسانيتها بل لأنها ستحول عنهم تدفق يهود شرق أوربا(٢٢). ولذا، كان من المنطقي أن يذهب الصهيوني هرتزل لمقابلة فياشلاف بليفيه وزير الداخلية الروسي الذي كان مسئولاً عن أحداث كيشينيف ضد اليهود الروس، لأن كليهما كان يؤمن بنفس القيم الأخلاقية (وإن اختلفت النتائج العملية). وبالفعل، ذكر بليفيه للزعيم الصهيوني أنه "متعاطف مع الحركة الصهيونية حينما تقتصر أهدافها على الهجرة" أي تخليص روسيا من اليهود. ثم أضاف قائلاً: "ليس هناك داعٍ لشرح الحركة لي فأنت ستكون كمن يعظ أحد المهتدين"(٢٣). وبعد عدة مفاوضات ومشاورات، أبدى بليفيه استعداد الحكومة الروسية لمساعدة الحركة الصهيومية معنوياً ومادياً فيما تتخذه من خطوات نحو إقلال عدد الروس اليهود، وأخبره كذلك أن هذه المساعدة ستأخذ شكل حماية الصهاينة لدى الحكومة التركية وتسهيل عمل جمعيات الهجرة اليهودية وإعفائها من أعبائها المادية(٢٤).

هرتزل وعيون الأغيار الزرقاء

على الرغم من أن هرتزل في كتابه دولة اليهود كان ينادي بأنه على اليهود أن يصبحوا أمة مثل بقية الأمم، إلا أن هذا الليبرالي كان يتحرك من مكان إلى مكان حاملاً على كاهله عبء عقليته الجيتوية التي كان لا يملك منها فراراً ولا يجد منها ملاذاً، فلم يتمكن قط من أن ينظر إلي نفسه ليرى إنساناً وينظر للآخرين ليرى بشراً، بل كان دائماً يرى يهوداً وأغيار، أي أنه كان يرى العالم من خلال خريطته الإدراكية الصهيونية المتجذرة في الرؤية الغربية. ويتضح هذا في وصفه لمن كان يقابله من الناس، فهو لا يصف في مذكراته سوى كونت أو دوق أو "دبلوماسي بابوي"(٢٥) أو عميل أو صهاينة، ولا يصف بتاتاً بشراً سواء كانوا من الأعداء أو الأصدقاء. فالفرد بالنسبة لهرتزل هو النموذج والإنسان هو القناع الذي يرتدي.

وكان هرتزل لفرط إحساسه بنفسه، يظن أن الآخرين يراقبون حركاته وسكناته، ولذا فهو دائماً كان يرى عيونهم، خاصةً العيون الزرقاء غير اليهودية (باعتبار أن العيون اليهودية الحقيقية – حسب فولكلور العنصرية الذي يؤمن به

الصهاينة - هي عيون آسيوية سوداء). فحينما ذهب هرتزل لزيارة الجنرال الروسي إكساكوف - أحد زعماء حركة البعث السلافي (المعادية لليهود) -كتب عند عودته لمنزله الملاحظة التالية: "وأنا أتحدث معه أسعدني كثيراً أن أنظر في عيونه الزرقاء"(٢٦). وبعد أن قام بزيارة للقيصر الألماني ويلهلم الثاني، عاد إلى منزله ودوّن في مذكراته الملاحظة التالية: "في لحظة دخولي، نظر القيصر لي في ثبات بعينين في زرقة البحر. إن عينيه لهما سمة إمبراطورية حقاً، وأنا لم أر في حياتي عينين مثلهما، فهما تعكسان صورة روح فذة جسورةٍ وباحثة... وقد أبقيت نظري مركزاً على عينيه اللطيفتين الصريحتين الصدوقتين الجسورتين اللتين سحرتاني في الواقع"(٢٧). وكان هرتزل يسعد بهذه العيون الزرقاء وكان أحياناً أخرى يركز النظر فيها، ولكنه كان يشعر في مرات عديدة، بأنه الغريب حينما تنظر إليه تلك العيون خاصة عيني الكونت أويلنبرج: "حينما تواجهه فأنت كمن يواجه إنساناً محكم الغلق وكأنه خزانة حديدية، إنه ينظر إليك مباشرةً ولكن لا يمكنك أن تقرأ شيئاً في عينيه الباردتين الزرقاوين، أو في وجهه المجهد بلحيته الرمادية المدببة. وفجأة تنفتح الخزانة

رغم أنه لم يحرك عضلة واحدة، ولكن التعبير يوجد في عينيه الزرقاوين الجامدتين اللتين تصبحان حنونتين بطريقتهما الخاصة، ولكنها فجأة تنغلق على نفسها مرةً أخرى"(٢٨). وأثناء الحديث تحول الكونت إلى عينين زرقاوين لم ير هرتزل سواهما: "غالباً ما تفتحت أعماق العينين الزرقاوين أثناء حديثي إذ أنه كان من الواضح أنه شعر نحوه بالدفء"(٢٩). وحينما وصل إلى الباب، انغلقت العينان الزرقاوان مرة أخرى مثل النوافذ الحديدية رغم أن الجفون ذاتها ظلت مفتوحة(٣٠).

ولعل هذا الجانب في فكر هرتزل أو في شخصيته يفسر اهتمامه المرضي بالمظاهر وبتفاصيل هيئته وهيئة الآخرين، فحينما نظر إلى الكونت أويلنبرج وقعت عيناه أول ما وقعت على ملابس الكونت (الذي كان يلبس ملابس الصيد). وهو يعتقد أن الكونت يتصرف كما يتصرف هو وأنه يقوم بتفحص ملابسه، ولذا يقول هرتزل: "فكرت بعناية فيما يجب أن ألبس، فارتديت سترتي الطويلة وبنطلوني الرماديين"(٣١). ثم يعالج بعد ذلك بإسهاب الأسباب والظروف التي دعته لاختيار لون ملبسه.

وهذا التركيز على ملابس أهل الغرب (وعلى ملابسه هو ممثل اليهودية الحديثة) ليست مسألة عابرة، بل هي أحد الموضوعات الأساسية في مذكرات هرتزل، فحينما ذهب لمقابلة القيصر (بأعصاب صهيونية مشدودة) ازدادت حساسيته بتفاصيل مظهره ومظهر الآخرين "صعدت السلم في هدوء، وحينما وصلت إلى نهايته رأيت مساعد الضابط يقوم بالحراسة في شكل رائع، إنه جنتلمان يتسم بالأناقة البروسية. راقب صعودي السلم بنظرة ماكرة ولكن يبدو أنه أعجب بتفصيلة معطفي وثنية بنطلوني ويلمعان حذائي"(٣٢).

وحينما استقل هرتزل عربته لمقابلة القيصر الألماني أثناء زيارته للقسطنطينية، دوّن في مذكراته أن الشوارع مليئة بالنظارة وأكد أنهم ولا شك قد لاحظوا عربته. ثم أضاف بلهجة آسفة أنه لم يكن في مقدور عربته منافسة العربات الضخمة الأخرى المليئة برجال البلاط المرتدين ملابس الاحتفالات، والضباط المرصعة أزياؤهم بالذهب(٣٣). ولكنه عزّى نفسه بأن عربته العادية كانت مثقلة بالتاريخ!

ويبدو أن اهتمامه بالمظهر الخارجي لم يكن في علاقته

بالآخرين،وحسب بل وفي علاقته مع نفسه ومع زملائه من الصهاينة، ولذلك فقد اقترح أن يحضر جميع المشتركين في المؤتمر الصهيوني الأول بملابس رسمية كاملة وبمعاطف طويلة وبرباط عنق أبيض، وطالب المؤتمرين بارتداء هذه الملابس "لأن الملبس الكامل له طريقته الخاصة في جعل معظم الناس يشعرون بشيء من الصلابة، وهذه الصلابة ستستميلهم إلى استخدام نبرة متروية واعية"(٣٤). وحينما حضر الزعيم الصهيوني ماكس نوردو إلى المؤتمر دون أن يرتدي حُلة رسمية رجاه هرتزل أن يعود إلى منزله ليرتدي ملابس رسمية وليظهر بالمظهر اللائق. ورفض نوردو في بادئ الأمر، ولكنه حينما رضخ في النهاية عانقه هرتزل تعبيراً عن امتنانه وتقديره. وفي نفس الاجتماع، دخل هرتزل قاعة المؤتمر ورأى المائدة الطويلة الخضراء على المنصة ورأى كذلك كرسي الرئيس المرتفع، وموائد الكتبة المختزلين والصحافة. ولكنه اضطر إلى مغادرتها في الحال حتى لا يفقد سيطرته على نفسه من شدة التأثر(٣٥)، فقد أدرك الزعيم الصهيوني أن اليهود قد أوشكوا على دخول الحضارة الغربية من أوسع أبوابها، من باب الاستعمار الاستيطاني الإحلالي.

هرتزل نبياً وفيلسوفاً

كان هرتزل كثير التفلسف بشكل سطحي في كتاباته وفي مذكراته التي كان يكتبها وهو واعٍ تمام الوعي بأنه مؤسس وزعيم الحركة الصهيونية والمدافع عن الفكرة الصهيونية والشارح لها. وهو يطلب من قارئ كتابه دولة اليهود ألا ينظر إلى مشروعه على أنه مجرد يوتوبيا(٣٦). إلا أن طلب هرتزل هذا لا يطابق الواقع في شيء، فتفكيره مجرد، لا توجد له أية جذور في الواقع، فهو مثل كل المفكرين الصهاينة يعلن هزيمة العقل فيقول: "الناس تتحكم فيهم الأفكار والرؤى البسيطة. وإنه لمن المدهش والمثير أن العالم لا يحكمه سوى قليل من الفهم"(٣٧). والناس حسب تصوره بسطاء سُذج يعيشون ويموتون من أجل أفكار مجردة ورموز مثل العلَم، وذلك إذا ما وجهوا التوجيه الصحيح(٣٨). وعلى أساس هذا التصور السطحي للنفس البشرية - وهو تصور مادي آلي ساذج لا يختلف كثيراً عن أي تفكير عنصري فاشي يشكل أحد أسس الفكر الصهيوني - يبني هرتزل كثيراً من آرائه الفلسفية، فيلغي العالم الموضوعي كليةً ويعطي أهمية غير عادية للعواطف والأفكار ولإرادة المفكر، وهو ما يدل على أنه لفحته

لفحة نيتشوية داروينية. فالفيلسوف الصهيوني يتصور مثلاً أن الوحدة الألمانية قد خلقت خلقاً من الشرائط والأعلام والأناشيد والخُطب والكفاح المرير(٣٩) دون أي ذكر للأساس الحقيقي المتعين للوحدة الألمانية (مثل الأرض والشعب والوحدة الاقتصادية والثقافية). ويقول هرتزل عن الدولة اليهودية إنها لتشبه من بعض النواحي حلماً عظيماً يسير معي أينما ذهبت، يحومْ وراء كلامي العادي، إنه يتغلب عليَّ ويسكرني"(٤٠). وفي نفس الصفحة من مذكراته، يشبه الدولة اليهودية بالكتابات الأدبية "إن لم يكن لهذا التخيل أي تأثير فعال، فسوف ينتج عن هذا النشاط، على الأقل، قصة خيالية عنوانها أرض الميعاد". وحينما يتحدث عن نشاطاته التي ينبغي عليه القيام بها في المستقبل، نجد أنه يبدؤها بذكر الأحلام والأفكار، ثم يضيف إليها بعد ذلك المراسلات والمقابلات، أي أن جذور هذه الفكرة في السماء وفروعها في الأرض: إنها الجدل الهيجلي المثالي الذي يرى الفكرة المغلقة (أو الحلم العظيم) على أنها الحقيقة الوحيدة أما التفاصيل المحسوسة التاريخية فتضمر وتهزل إلى أن تختفي كليةً. وهكذا أصبحت فلسطين جزءاً من "حلم" هرتزل، واختفى

شعبها حين أغمض الزعيم الصهيوني عينيه.

وهذا الوصف ليس من قبيل المجاز، بل هو حقيقة آمن بها هرتزل الذي يقول في إحدى ملاحظاته بتاريخ ١٢ مايو ١٨٩٦ "الأشياء العظيمة لا تحتاج لدعامة قوية، التفاحة يجب أن توضع على مائدة حتى لا تسقط، أما الأرض فتطفو وسط الهواء، ولعلي أستطيع بنفس الطريقة أن أؤسس الدولة اليهودية وأحفظ توازنها دونما حاجة إلى دعائم ثابتة"(٤١). فالإرادة (التي تساندها القوة بطبيعة الحال) تحل محل الواقع التاريخي والإنساني. "حقاً إننا]اليهود [يمكننا أن نفعل كل شيء، ولكن ينبغي أن تكون عندنا الإرادة"(٤٢). إن قوة الإرادة تبني المدن أو كما يقول النبي الفيلسوف السوبرمان: "إذا أشرت بإصبعي إلى بقعة ما وقلت هنا ستوجد مدينة، ستظهر مدينة في التو"(٤٣). وليست المدينة وحدها هي نتاج الإرادة، بل إن الدولة ككل إن هي إلا تعبير عن إرادة فرد واحد قوي من حقه أن يقول "أنا الدولة". وهرتزل كنبي صهيوني يقتبس هذه الكلمات باستحسان ثم يرد قائلاً: "ما الأرض سوى الأساس المحسوس، أما الدولة حتى بعد أن تمتلك هذه الأرض فستظل شيئاً مجرداً"(٤٤). والدولة هي

المطلق الحقيقي المجرد من الواقع، إنها الفكرة غير المحددة (مثل حدود إسرائيل الآمنة)، إنها الفكرة التي توصل إليها هرتزل قبل أن يكتشف الشكل المحسوس الذي ستتخذه(٤٥). والشيء المجرد في نسق هرتزل الفلسفي المثالي أفضل من الأشياء الواقعية أو المتغيرة أو المحسوسة. إن هرتزل النبي السوبرمان الذي يرتفع فوق الواقع - فوق الخير والشر - في إمكانه أن يقول بعد المؤتمر الصهيوني الأول "في بازل أسست الدولة الصهيونية، في بازل خلقت هذا الشيء المجرد الذي لا تراه الغالبية العظمى من الناس

وحينما ينظر هرتزل إلى تاريخ البشرية كله فإنه لا يرى أي وجود محسوس، بل يرى ضوضاء: "الضوضاء هي كل شيء.. إن الضوضاء شيء هام، والضوضاء المستمرة ذاتها حقيقة تستحق الاهتمام. وما التاريخ سوى ضوضاء، ضوضاء السلاح وضوضاء الأفكار المتقدمة إلى الأمام"(٤٦). (وليلاحظ القارئ كيف يخبئ الليبرالي هرتزل ضوضاء السلاح وسط ضوضاء الأفكار، ولعل ضوضاء الأفكار هي ضوضاء الإعلام والصور المتتالية التي تفتت الواقع حتى لا نفهم شيئاً).

وإحساس هرتزل الليبرالي بمقدرة أحلامه على تغيير الواقع لم يكن من قبيل المجاز، إذ يبدو أنه كان يتوهم أن له بعض صفات النبوة (وهذا أمر ليس بمستبعد بالنسبة لفرد ينتمي لأمة الروح والكهنة والأنبياء، رجل ينتمي للسوبر أمة على حد قول آحاد هعام). ففكرة الماشيَّح المنتظر الذي يتوقع اليهود مجيئه لتخليصهم وتخليص العالم قد خلبت لبه ولب من حوله. فقد كانت جماهير شرق أوربا المتخلفة تقابله بحماس شديد وكأنه هو نفسه ذلك المخلِّص. وقد صرح بن جوريون (في إذاعة إسرائيل في يوليو ١٩٦٦) أنه حينما كان عمره عشر سنوات عام ١٨٩٦ انتشرت إشاعة مؤداها أن الماشيَّح المخلص قد وصل - رجل طويل أنيق - حاصل على الدكتوراه وليس أقل من ذلك - الدكتور هرتزل. ورغم نبرة التهكم الخفيفة التي تسري في تصريح بن جوريون إلا أنه أضاف قائلاً: "إن المؤتمر الصهيوني قد عُقد بالفعل بعد ذلك بعام واحد". وتحققت المعجزة رغم كل التحفظات. وحينما ذهب هرتزل إلى أحد المعابد اليهودية في صوفيا خشي أن يعطي ظهره لقدس الأقداس، فهذا محرَّم في التقاليد الدينية

اليـهودية. ولكن أحـد المصلين صـاح عليـه قـائلاً: "لا بأس أن تدير ظهرك لتابوت العهد فـأنت أقدس من التوراة"(٤٧)، وهو أقـدس من التـوراة لأنه المسـيح المخلِّص اليـهـودي. ويكتب له كبيـر الحـاخـامـات فـي صـوفـيـا مـخـبـراً أنه ولا شك الماشيَّح المخلِّص(٤٨). وسـجل أحـد الكُتَّاب العـبـريين مـلاحظاتـه عن هرتزل فـي المؤتمر الصـهـيونـي الأول فوصـفـه بأنه كـان يبـدو وكأنه من نسل بيت داود "بعث من القبور بغتة يحيطه جلاله الأسطوري".. "لقد كـان يقف وكـأنه الماشيَّح ابن داود صـوته يشـبه نفير الماشيَّح"(٤٩). ويكتـب له أحد المعجبين يخبره أن القيمة العددية لاسمه حسب التصورات القبَّالية تساوي القيمة العددية لعـبـارة "ملك ومـسـاعد إسـرائيل"(٥٠). هـذا هـو الجـو الذي كان يتـحـرك فيـه هرتزل وهـذه هـي الجـمـاهيـر التـي كـان يحاول تجنيدها.

وفي بعض الأحيان، كان هرتزل الليبرالي يرفض أن يلعب دور المهرج مدعي النبوة بالنسبة لهذه الجماهير، ولذلك حينما كتب له أحدهم خطاباً من إنجلترا "الليبرالية" مقتبساً فيه بعض الكلمات التي وجدها منقوشة على الثلج والتي تبرهن بما لا يتـرك مـجـالاً للشك على نبـوة هرتزل، علق الزعـيم

الصهيوني ساخراً "الثلج الذي تذروه الرياح لا يمكنه أن يخلق ماشيحاً مخلِّصاً وزعيماً لمؤتمر صهيوني"(٥١). وحين تصور ملك إيطاليا أن هرتزل ليس سوى حاخام يشبه من بعض الوجوه شبتاي تسفي الماشيّح الدجال الذي غرر بجماهير اليهود في القرن السابع عشر ووعدهم بأنه سيقودهم إلى أرض الميعاد (ولكنه انتهى به الأمر إلى اعتناق الإسلام)، حينما تصور جلالته ذلك انزعج الزعيم الليبرالي الصهيوني وأخبره أن حركته الصهيونية حركة قومية لادينية محضة(٥٢).

ولكن انزعاج هرتزل كثيراً ما كان يزول، فهو كان يكتب ويعمل ويفكر متصوراً أنه يستمع إلى حفيف أجنحة الخلاص من حوله كما دوّن في مذكراته(٥٣). ورغم احتجاجه على ملاحظة ملك إيطاليا، إلا أن صورة شبتاي تسفي وصورة الماشيّح مختلطة بصورة موسى كانتا تسيطران على وجدانه، فهو في كتاب الأرض القديمة الجديدة يكتب عن مسرحية موسى وأوبرا "شبتاي تسفي" اللتين ستمثلان على مسرح حيفا القومي. ولعل سيطرة هذه الصورة على وجدانه هي مصدر قلقه الشديد من أن يقبض عليه الأتراك وأن يزجوا به

في أحد السجون كما فعلوا مع شبتاي تسفي من قبل. ولكن خوفه لم يمنعه من أن يهتز قلبه حينما قبَّل يهوديان قدميه في فلسطين تماماً كما هو مفروض أن يفعلوا حينما يظهر الماشيَّح(٥٤).

ويحكي هرتزل نفسه أن الماشيَّح قد أتاه مرة في حلمه على هيئة رجل مهيب وقور وطوقه بذراعيه وطار به على أجنحة الرياح، وأنهما أثناء طيرانهما التقيا بشبح النبي موسى على إحدى السحب المضيئة، فقال الماشيَّح المخلِّص لموسى "لقد صلبت من أجل هذا الصبي". ثم قال لهرتزل: "اذهب، إنني سأحضر في القريب وسآتي بعجائب كثيرة وأفعال عظيمة لشعبي وللعالم بأسره"(٥٥). ولعل إحساس هرتزل العميق (الواعي وغير الواعي) بنبوته هو الذي دعاه إلى تدوين ملاحظات الآخرين عن نبوعته كحقيقة وكإمكانية: "إنني موشك أن أعتقد أنك موسى، لتبق كما أنت فقد تكون مرسلاً من الإله"(٥٦) - "إنهم سيصلبونك وسأكون لك بمثابة مريم المجدلية"(٥٧) - "أنت مثل شبتاي تسفي الذي سحر كل الناس"(٥٨).

ولكن ماشيح الصهيونية السياسية، رغم كل ديباجاته

اليهودية، ماشيح غربي ليبرالي، فحينما وقع في يد هرتزل كتيب علمي شعبي عن الكهرباء كتبه يهودي آخر يحاول التدليل فيه على "أن الكهرباء هي الملك.. الماشيَّح (كذا) لأنها ستقرب بين الناس وستحرر كل الأمم، تردد هرتزل في البداية في اعتناق هذه النظرية ولكنه انتهى به الأمر بأن تقبل التيار الكهربائي على أنه حقاً الماشيَّح المخلِّص الذي ينتظره الجميع والذي سيحرر البشر من عبودية الجسد والروح، فهي ماشيحانية دون ماشيح، وهذا التصور متسق تماماً مع الرؤية الصهيونية. فإحدى المساهمات الأساسية للفكر الصهيوني على الفكر اليهودي الحديث هي رفض فكرة العودة الشخصية للماشيح وإبدالها بفكرة الدولة اليهودية التي تحل محل الماشيَّح (بالنسبة للادينيين) أو التي تمهد الطريق لعودته (بالنسبة للمتدينين المتزمتين). ولكن اختلاف المضمون من مدرسة لأخرى هو اختلاف غير جوهري. وقد أشار أحاد هعام إلى وحدة الفكر الصهيوني حينما نعى هرتزل قائلاً: كان لا يمكن إلا لرجل مثله تنبعث منه شرارة الإعجاز أن يؤسس حركة جماهيرية مثل الصهيونية. في الماضي كان يظن آباؤنا أن الماشيَّح سيحرر أرضنا من أيدي السلطان

وسيجمع كل المشتتين عن طريق قوى مرسلة من الإله، أما الآن فقد أعيد صياغة هذا الاعتقاد في قالب جديد أكثر ملاءمة لمفاهيمنا (الغربية) الجديدة، وهذه المفاهيم مع هذا لا تزال تستند أساساً إلى الإيمان القديم بالعودة الشخصية "للسوبرمان الفرد"(٥٩) (وليلاحظ القارئ تزاوج المفهوم اليهودي القديم بالمفهوم النيتشوي الفاشي المثالي الحديث).

كان هرتزل الديمقراطي الغربي يتحرك من مكان إلى مكان حاملاً على كتفيه يهوديته وفي عقله آلاف الأساطير اليهودية المعلمنة، خاصةً أسطورة العودة وأسطورة الأمة المرتبطة بالأرض (رغم شتات آلاف السنين). ولذا فهو يقول "شعار اليهود هو لنلتق العام القادم في أورشليم"(٦٠).

لقد استخدم هرتزل عبارة دينية بعد أن أفرغها من محتواها الديني. فحتى نهاية القرن التاسع عشر، كانت اليهودية الحاخامية - كما أسلفنا - تحرِّم العودة إلى فلسطين، فالعودة كانت تطلعاً دينياً لا يتم إلا في آخر الأيام. أما هرتزل، فيؤكد أن مهمة الصهاينة هي "إخراج هذا الحلم (الديني) إلى حيز الوجود كفكرة واضحة براقة". وبذا، فإننا نعود مرة أخرى إلى تبرير المصطلح السياسي العملي من

خلال ديباجات يهودية. إن هرتزل نبي يهودي دجال يدعي أنه (مثل موسى) سيقود شعبه إلى أرض الميعاد، ولكنه في الوقت نفسه صحفي نمساوي عملي يؤكد لنا أنه لا يبني قلاعاً من الهواء بل سيبني بيتاً حقيقياً بمواد يمكن أن تراها وتلمسها وتفحصها (ولكن أين هذه المواد؟ وهل كان يعلم النبي اليهودي أن إسرائيل أمة الروح والوحي ستُبنى من جثث الفلسطينيين والنابالم؟). وتظهر سيطرة "الفيبيات اللادينية" على هرتزل بشكل جلي في هذه الواقعة البسيطة: بعد اجتماع سياسي مع دوق بادن الكبير في ١٣ أبريل ١٨٩٦، يذهب هرتزل مع زميله هكلر ويفتحان الخرائط وينظران إلى الحدود المقترحة من الشمال (الجبال التي تقابل كبادوكية، ومن الجنوب قناة السويس). ويبدي كل من هكلر وهرتزل، باستخدامهما الخرائط ودقة تعريفهما للحدود التي يريدانها، روحاً علمية تجريبية. ولكن هرتزل يفاجئنا بإضافة هذه الكلمات "شعارنا هو فلسطين داود وسليمان"(٦١)، كما لو أن هذه الكلمات حقائق بديهية مسلَّم بها من الجميع. ويظهر نفس الخلط بين المشروع الاستعماري والديباجات اليهودية في محادثته مع الزعيم الصهيوني الألماني ماكس بودنهايمر:

لقد تحدثت معه في أمر الطلبات التي نريدها: المساحة من وادي النيل إلى الفرات ونشترط مدة انتقالية تؤسس فيها مؤسساتنا الصهيونية الخاصة وأن يكون هناك حاكم يهودي أثناء هذه الفترة"(٦٢). وحينما يصف هرتزل أرض الميعاد فإنه يستخدم المصطلح العملي/الصوفي أو الاستعماري/اليهودي، فأرض الميعاد توجد في قلوب اليهود ولكنها توجد كذلك في رأسمالهم وعملهم(٦٣). والصوفي العملي هرتزل عليم بالفوائد العملية التي تنجم عن استغلال الأسطورة القديمة فهو يقول: "إن الجماهير اليهودية قد تجد فلسطين مكاناً غير ملائم لقربها من روسيا ولصغر حجمها ولمناخها الذي لم يعتده اليهود، ولكن ارتباطها بالأسطورة العظيمة يجعلها مفضلة على سواها"(٦٤).

إن هرتزل، بسبب إيمانه العميق بالأساطير الصهيونية يرفض أن يدرس الواقع التاريخي الحديث في فلسطين أو يتناساه. وهو في هذا لم يحد عن التقاليد الغربية الاستعمارية التي كانت تنظر إلى شعوب آسيا وأفريقيا باعتبارها شعوباً بلا تاريخ. ولعل انعدام حسه التاريخي يتضح بشكل بيِّن في انطباعاته التي سجلها عن مصر، فهو أثناء زيارته لها استمع

إلى محاضرة عن الري، واسترعى انتباهه وجود عدد كبير من المصريين الذين تبدو عليهم معالم الذكاء. وقد خلص هرتزل من ملاحظاته إلى أن هؤلاء المصريين هم أسياد الغد "ومن الغريب أن الإنجليز لا يرون هذا ويظنون أنهم سيظلون يتعاملون مع فلاحين إلى الأبد. يكفي الإنجليز ٨٠٠٠ جندي لحكم هذه البلاد الكبيرة، ولكن إلى متى يا ترى؟" (٦٥) وهذا التساؤل ينم في الواقع عن فطنة عملية ومقدرة على الملاحظة الذكية. ولكن يبدو أن هرتزل، الذي ينتمي إلى الشعب المختار، لم يستفد كثيراً من ملاحظاته فمعرفته بإمكانيات مصر البشرية لم تجعله يعدل عن أطماعه في شبه جزيرة سيناء أو حتى قناة السويس، كما أنه لم يعمم من ملاحظاته عن الإنجليز ما قد ينتفع به كمستعمر صهيوني. ولكن هرتزل كان أميناً في هذا مع الرؤية الصهيونية التي كانت ترى أن أمة الروح المقدسة لا تخضع لنفس الأنماط التاريخية التي يخضع لها الأغيار أمثال المستعمرين الإنجليز، ولذا فقد تصور أن الاستعمار الصهيوني سيمكنه تحقيق ما لم يتمكن الاستعمار الإنجليزي من تحقيقه، أي إخضاع أهل البلد المحتل. وانطلاقاً من هذه الخريطة الإدراكية، تعامل هرتزل مع ممثلي

القوى الاستعمارية وحدها سواء كان قيصراً لألمانياً أو وزيراً لداخلية روسيا أو ملكاً لإيطالياً أو وزيراً للمستعمرات الإنجليزية، وذلك كي يحصل على فلسطين دون أن يستشير سكان المنطقة. وقد زار فلسطين بالفعل ولكنه لم يشغل باله بدراسة الأحوال هناك ولم يكبد نفسه مشقة الاتصال بسكان البلد الفعليين من العرب. بل يبدو أن الدائرة العنصرية الغربية كانت محكمة الإغلاق لأنه لم يرهم قط، وإلا فلماذا لا يرد أي ذكر لهم (إلا في القليل النادر) في مذكراته، وإذا ذكرهم فإن من العسير أن يحدد المرء على وجه الدقة موقفه منهم. وهو يشير إلى العرب الفلسطينيين بشكل عام - على الطريقة الغربية - على أنهم "السكان الأصليون" دون تحديد أو تعريف لجنسيتهم أو ميولهم الحضارية، كما أن اهتمامه كان ينصب على طريقة التخلص منهم "لتفريغ" أرض الميعاد، فهي أرض بلا شعب، وإن وجد شعب ما فيه فهو وجود عرضي ليس له أي قيمة!

الغازى والسمسار

ثمة تناقض أساسي بين الرؤية المجردة والواقع المحسوس، بين الأسطورة والتاريخ، بين البرنامج السياسي

والديباجات الدينية. وقد درسنا هذا التناقض على أنه تناقض نظري فلسفي، لكنه في الواقع تناقض عملي أيضاً لابد من فهمه لفهم السلوك الصهيوني والإسرائيلي. وهو تناقض غير عادي مختلف عن تلك التناقضات التي تتسم بها كل الظواهر المركبة لأنه استقطاب أكثر منه تناقضاً يتكون من قطبين متعارضين لا يلتقيان. وقد حاول هرتزل أن يتغلب على هذا الاستقطاب عن طريق اللجوء للعنف المباشر تارة، وعن طريق المناورات السياسية والسمسرة تارة أخرى (وهما ضرب من العنف يلجأ إليهما الإنسان الطفيلي الضعيف). كما حاول أن يجعل من الدولة اليهودية قاعدة لقوة إمبريالية كبرى، كوسيلة لحل التناقض (وهذا أيضاً ضرب من العنف غير المباشر لأن إسرائيل في هذه الحالة تستمد عناصر بقائها من قوة إمبريالية أعظم).

إن اللجوء إلى العنف المباشر أمر حتمي لم يستبعده الصحفي الليبرالي هرتزل، فقد نبهه صديقه عالم الاجتماع النمساوي اليهودية لودفيج جومبلوفيتش الذي قدم رؤية صراعية داروينية للتاريخ، أنه لن يمكنه أن يؤسس دولته اليهودي دون عنف أو مكر. ولعله قد يكون من المفيد أن نشير

إلى أن ماكس نوردو الزعيم الصهيوني الألماني قد صرح بأن جابوتنسكي فيلسوف العنف الصهيوني والأب الروحي للأرجون وحيروت والليكود هو الوريث الحقيقي لهرتزل، فكلاهما كان يؤمن بضرورة محو المحتوى الروحي لليهودية، وكلاهما كان يؤمن بالإرادة اليهودية المطلقة التي يمكن أن تملي الرؤية الصهيونية على الواقع العربي، تماماً مثل سوبرمان نيتشه الذي كان لا يؤمن إلا بأخلاق القوة.

إن أنصاف الأنبياء غير قادرين على تحقيق رؤاهم إلا عن طريق العنف، ولذا فإن هرتزل يشير في السنين الأولى من مذكراته إلى "ضرورة تدريب الشباب في الدولة اليهودية على الجندية" ليكونوا جيشاً محترفاً قوامه عُشر السكان. فأقل من ذلك لن يكفي للأمور الداخلية، ولكن يجب أن يدرب الباقون ليكونوا أحراراً أقوياء قادرين على الخدمة كمتطوعين إذا لزم الأمر، ويجب أيضاً أن يكون التدريب عن طريق الأناشيد والدين والمسرحيات البطولية والتكريم"(٦٦). وهو يحلم بتحويل الشعب اليهودي إلى مخترعين ومحاربين(٦٧)، ويرجو من يهود المنفى أن يزوجوا بناتهم من رجال طموحين أقوياء تحتاجهم الدولة اليهودية لأن هذا سيكون فيه إخصاب

لهـا(٦٨) (ألا يذكـرنا هذا بنظريات النازية في تحسين النسل؟)، وهو يتطلع لليوم الذي سيوجد فيه جنرالات يهود(٦٩)، أو كما يقول في كتاب دولة اليهود "إن نسلاً يهودياً عظيماً سينبع من الأرض، سيبعث المكابيون ثانية"(٧٠) (والمكابيون هم جماعة من المحاربين اليهود). ومعظم هذه النبوءات قد تحققت بشكل يفوق توقعات النبي الصهيوني نفسه؛ فجنرالات اليهود قد أصبحوا حقيقة، والمجتمع اليهودي العسكري قد أصبح هو الآخر حقيقة، بل إن الشعب الإسرائيلي بأكمله (وليس مجرد العُشر) قد أصبح جيشاً منظماً يحمل كل فرد فيه رقماً وخوذة يلبسها ليحمي بها حدود أرض الميعاد المطاطة. وعلى حد قول أحد الشعراء الإسرائيليين: كل الشعوب عندها سلاح طيران إلا الدولة الصهيونية، فالدولة الصهيونية سلاح طيران عنده شعب!

ولم يكن هناك حد لإعجاب هذا الليبرالي الصهيوني بالعسكرية البروسية، فهو يقول في مذكراته: "من المؤكد أنه لو عاشت الشخصية اليهودية القومية في حماية ألمانيا القوية العظيمة الأخلاقية التي تحكم بطريقة رائعة، والتي بلغت أعلى درجات النظام، لتأثرت تلك الشخصية بهذه الحماية تأثراً

صحياً"(٧١). وحينما نظر من نافذة القصر الإمبراطوري الألماني فماذا رأى: "طابور طلبة الكلية الحربية يسير فيه الصغار فالأصغر.. فالأصغر.. ضباط المستقبل من ضباط ألمانيا التي لا تكل والتي تريد أن تأخذنا تحت حمايتها"(٧٢). ونحن في القرن العشرين نعرف أن ألمانيا قد بسطت حمايتها على اليهود بطريقة لا تبعث على الرضا ولا راحة البال، فهل خانت النبي الصهيوني مقدراته على التنبوء؟

ولكي نكون أمناء مع أنفسنا ومع هرتزل، يجب أن نذكر أن العنف المباشر لم يكن سوى تيار فرعي في كتاباته، لأنه وهو الصهيوني الليبرالي كان يفضل أنواعاً متحضرة من العنف مثل البيع والشراء والمناورات السياسية والتجارية الهرتزلية التي تمكنه من أن يربح فلسطين دون أن يدفع شيئاً – تماماً مثلما يفعل الحاوي حينما يخرج الأرنب من القبعة.

وكان هرتزل يرى الإنسان مخلوقاً سطحياً ساذجاً لا عقل له يخضع لإرادة العباقرة ويضحي بنفسه من أجل الرموز والطلاسم. ويمكن أن نضيف أن هرتزل كان يتصور أيضاً أن الإنسان حيوان خالٍ من البراءة له ثمن معروف ويعرف ثمن كل شيء وأنه يدور في إطار الأخلاقيات النفعية المادية

وحسب. ويتهم هرتزل اليهود، انطلاقاً من رؤيته المعادية للسامية، بأنهم غير قادرين على تصور أن الإنسان قادر على التصرف دون أن يكون دافعه الأساسي هو المال(٧٣). وحينما نشر كتابه دولة اليهود اتهمه بعض اليهود بأنه قبض مبلغاً ضخماً من شركة أراضٍ بريطانية تود القيام بأعمال تجارية في فلسطين، وعلق هو على هذا الاتهام بقوله: "إن اليهود لا يصدقون أن أي شخص يمكن أن يتصرف مدفوعاً باقتناع أخلاقي"(٧٤). وقد يكون هذا الاتهام صادقاً أو كاذباً، ولكن ليس هذا هو مجال تفنيد مثل هذه الادعاءات الصهيونية المتطرفة بالنسبة لأعضاء الجماعات اليهودية. واستناداً لقراءاتنا لكتابات هرتزل، يمكننا أن نقرر بكل اطمئنان أن اتهاماته لليهود تنطبق عليه هو شخصياً تمام الانطباق، فهو كان يرى أنه يمكن شراء وبيع أي شيء.

لقد كان هرتزل يتصور أن العالم حانوت أو سوق كبير كل العلاقات فيه مبنية على البيع والشراء، فحينما ذهب لمقابلة جوزيف تشمبرلين وزير المستعمرات البريطاني ليطلب منه قطعة أرض، كان يتخيل أن الإمبراطورية الإنجليزية تشبه دكاناً كبيراً للعاديات التي لا يعرف مالكها عدد السلع فيها

على وجه الدقة، وتخيل هرتزل نفسه زبوناً يطلب سلعة اسمها "مكان تجميع الشعب اليهودي"، ويحاول صاحب الدكان أن يبحث له عن مثل هذا المكان/السلعة في بضاعته(٧٥). وفي أحد خطاباته، يتخيل هرتزل أن تشمبرلين كالتاجر الذي يطلب حساباً من تاجر صغير وأنه هو ذاته هذا التاجر الواثق من نفسه كل الثقة إذ أنه يقول: "سأفتح أمامه كل دفاتري وأخبره بلا تحفظ عن جميع ما نملك وما نحتاج إليه وما نستطيع القيام به، وإذا وجد فيما بعد أنه بدعمه لمقترحاتنا هذه سيوسع الإمبراطورية البريطانية فإنني سأعطيه تفاصيل العمل في جلسة شفهية"(٧٦). ولكن الزعيم السمسار، هذا التاجر الصغير، لئيم أي لؤم، وخبيث أيما خُبث، فهو ينوي المتاجرة في عدة بلاد حتى يكسب أحدها في نهاية الأمر ومجاناً. فعلى سبيل المثال، يحاول أن يحصل على امتياز شركة أراضٍ في موزمبيق من الحكومة البرتغالية دون أن يدفع مليماً واحداً، وذلك بأن يعد بسداد الديون وبدفع ضريبة فيما بعد. ثم يوضح هرتزل للقارئ نواياه: "على أني أريد موزمبيق هذه فقط للمتاجرة عليها وآخذ بدلاً منها شبه جزيرة سيناء مع مياه النيل صيفاً وشتاءً وربما قبرص أيضاً وبدون

ثمن"(٧٧). وإذا كانت المضاربات سلاحاً في يد النبي السمسار، فإن هناك أيضاً البقشيش: لقاء كل بيت يُبنى في فلسطين ألفا فرنك تُدفع رشوة أو بقشيشاً لأحد العملاء. وهو يجند الأنصار لثورته الصهيونية عن طريق التلويح بالذهب وهي لغة يفهمها السماسرة وزبائنهم جيداً: "تناولت طعام العشاء أمس مع فيشيني باشا وزوجته وهي امرأة شرقية ذات علاقة مع أخت السلطان، وقد كسبتهما للقضية وجعلته يفهم أنه يستطيع أن يربح بعض المال بذلك"(٧٨).

إن كل شيء في عالم هرتزل يرتكز إلى المال، بل إنه من المؤمنين بأن الدولة اليهودية ذاتها سلعة مربحة ناجحة، فهو يوضح أن الجمعية اليهودية ستعمل مع السلطات الموجودة في الأرض وتحت إشراف القوى الأوربية: "إذا وافقوا على الخطة ستستفيد هذه السلطات بالمقابل، إذ أننا سندفع قسطاً من دينها العام. إن فكرة خلق دولة يهودية فكرة مفيدة للأراضي المجاورة لأن استثمار قطعة أرض ضيقة يرفع من قيمة المناطق التي تجاورها"(٧٩). وقد كان من المنطقي لهرتزل، بتصوره التجاري هذا، أن يحاول أن يرسل لقيصر ألمانيا صور بعض المستعمرين الصهاينة في فلسطين.. ولكنه أرسل

شخصاً ليشتريُ له قطعة فاخرة من القماش "حتى يلف فيها الصور"(٨٠) عملاً بالحكمة القائلة بأن التغليف الجيد يزيد من قيمة السلعة.

ويمكننا نحن العرب أن نشاهد بشيء من التفلسف وبكثير من السخرية منظر هذا التاجر الصهيوني وهو يلهث وراء الصفقات ليبيع فكرته اليهودية. ولكن حينما نجد أنه بدأ في تقدير ثمن فلسطين "فلسطينياً"، فإننا لا نملك إلا الغضب من هذه الرؤية المبتذلة التي تضع على كل شيء سعراً مهما سمت مرتبة هذا الشيء. يفترض هرتزل أن فلسطين هي الأخرى سلعة بل وسلعة غير رائجة لا يود أحد شراءها سوى المعتوهين اليهود(٨١) (على حد قوله). ويقدر هرتزل أن ثمن فلسطين الحقيقي دون مساومة هو مليونان من الجنيهات فقط (حيث أن العائد السنوي منها عام ١٨٩٦ كان حوالي ٨٠ ألف جنيه). وقد وافق كثير من الصهاينة على هذا الثمن الواقعي أو التجاري(٨٢)، إلا أن السمسار السياسي يعرف أن الثمن التجاري يختلف عما يجب أن يُدفع حين يحين وقت البيع والشراء، وهو لهذا السبب يرفع السعر إلى عشرين مليون جنيه تركي دفعة واحدة يدفع منها مليونان لتركيا

والباقي لدائنيها(٨٣). ولكن التاجر داخله لا يهدأ له بال، فهو دائم البحث عن تخفيض في السعر، فقد أخبر تشمبرلين أثناء مباحثاته معه أن حصوله على منطقة العريش من إنجلترا سيمكنه من الحصول على مقاطعة حيفا من الأتراك بثمن أكثر انخفاضاً عن ذي قبل(٨٤)، وبذا فإنه سيوفر دراهمه الصهيونية الموجودة في جيوب اليهود. بل ويبدو أن هرتزل اللئيم كان يحاول الحصول على فلسطين بالمجان، فهو يذهب للسلطان خاوي الوفاض ويدون في مذكراته أنه لو عرضت عليه فلسطين الغالية لشعر بالحرج لأنه "لا يحمل معه كل المبلغ"(٨٥). إن كل ما يريده من السلطان هو وعد ببيع فلسطين له وهذا الوعد سيكون له بمثابة السلة التي يستخدمها المتسولون لجمع التبرعات. وحتى إن لم ينجح التسول، فإن هرتزل لن تعييه الحيلة، فهو يقرر حينذاك أن يقبل الصفقة على أن يطلب بعض الامتيازات من تركيا (مثل احتكار الكهرباء) حتى يتسنى له أن يدفع بيسر(٨٦) - فلسطين بالمجان أو على الأقل بالتقسيط المريح!

إن السمسار الذي يعتقد أن اليهود غير قادرين على تصور أي دوافع للسلوك الإنساني سوى الدوافع المالية يعمم

من تجربته الضحلة العقيمة، ويعتقد أنه من الممكن إغراء سكان فلسطين بالهجرة منها. ولكن هذه نبوءة أخرى للنبي الصهيوني الليبرالي خانه التوفيق فيها!

الدولة اليهودية قاعدة لمن يدفع الثمن

"نحن اليهود نحتاج إلى من يحمينا في هذا العالم، ونحن نريد لهذا الحامي أن يستعيد قوته"(٨٧). هذا هو ما كتبه هرتزل في إحدى العرائض التي تقدم بها للسلطان العثماني، وهو في هذه الكلمات قد وضع النقط على الحروف كما يقولون - فقد وصف بدقة بالغة أهداف الحركة الصهيونية حتى ظهور إسرائيل، ووصف كذلك إلى حدٍّ كبير سياستها الخارجية، إذ أدرك الصهاينة منذ البداية الاعتماد على قوة خارجية تدعم الدولة الصهيونية عسكرياً واقتصادياً وسياسياً، شأنها في هذا شأن أي جيب استعماري استيطاني غربي. وإدراك هرتزل لهذه الحقيقة المحورية هو الذي جعله يدوِّن في يومياته بتاريخ ٢٣ سبتمبر ١٩٠٢ قائمة بالاستعماريين الذين كان يتصور أنه يتلاعب بهم ويحركهم: "الشخصيات الموجودة في لعبة الشطرنج التي ألعبها هم سيسيل رودس (الذي سأقابله بعد عودته من إسكتلندا) وروزفلت رئيس الجمهورية

الجديد (عن طريق جوتيل) وملك إنجلترا (عن طريق أسقف ريبون) والقيصر (عن طريق الجنرال ڤون هس) إلخ"(٨٨).

ولكن الجيب الاستعماري الاستيطاني كي يحصل على الدعم لابد وأن يدفع الثمن: تحويل يهود العالم إلى عملاء لأي قوة استعمارية، وتحويل الدولة اليهودية ذاتها إلى قاعدة. وقد أخبر هرتزل السلطان العثماني عن طريق أحد الوسطاء أنه "سينشر في جريدة دي فيلت التي يعمل بها بسرور وحياد أكيدين (كذا) المراسلات والأنباء التي قد تكون في صالح السلطان"(٨٩). وقد استخدم هرتزل بالفعل الصحافة اليهودية في العالم ضد الأقلية الأرمنية المتمردة ليحوز على رضا السلطان. ولم يتردد هرتزل في أن يكتب إلى باديني رئيس حكومة النمسا الرجعي في عام ١٨٩٦ عارضاً عليه إصدار مجلة تدافع عن مصالح رئيس الحكومة مقابل خدمته للسياسة الصهيونية(٩٠)، كما أنه لم يتردد في أن يعلن دون حياء أن الحركة الصهيونية ستحول يهود العالم إلى عشرة ملايين عميل لإنجلترا إذا ما ساعدتهم الأخيرة على تحقيق الحلم الصهيوني(٩١). ومن المعروف أن هرتزل سبق أن تقدم بعرض مماثل إلى ألمانيا لتحويل اليهود إلى عملاء ألمان.

وهرتزل ينطلق من تصور عنصري ليهود العالم، فهو يراهم على أنهم كتلة بشرية متماسكة، مكونة من أفراد متماثلين هامشيين لا ولاء محدد لهم، ولذلك فهو يتصور أنه من اليسير تحويلهم جميعهم إلى عملاء.

وحتى يهدئ هرتزل من بال البورجوازيات الأوربية التي كان يتعامل معها والتي كان يحاول أن يخطب ودها، قام بعرض سلعة جديدة كل الجدة: تحويل العناصر الثورية في الجماعات اليهودية إلى عناصر رجعية عن طريق رفع الشعارات الصهيونية. ففي حديثه مع دوق بادن الكبير، حاول هرتزل أن يعدد بعض مناقب الصهيونية في روسيا وكيف أبعدت الشباب اليهودي عن الحركات الاشتراكية والثورية(٩٢). وقد أوضح نفس الجانب لقيصر ألمانيا(٩٣). وقد بيَّن هرتزل للجميع أنه إن لم ينجح المشروع الصهيوني فإن "مئات الألوف من اليهود سوف ينحازون إلى الأحزاب الثورية(٩٤) وسيفشل الصهاينة في إبعادهم عن المبادئ الهدامة"(٩٥). وأوضح هرتزل بإسهاب في رسالة كتبها إلى أحد الوسطاء بينه وبين قيصر روسيا كيف تشفي الصهيونية اليهود من النزعة الثورية قائلاً: "إننا اليوم، وفي كل مكان،

نحارب الثوريين، كما أننا نعمل على إبعاد الطلاب والعمال اليهود عن الاشتراكية والفوضوية وذلك بتعريفهم بفكرة قومية مثالية نقية. وهذه الجهود ستظهر في روسيا أيضاً لأنه لولا تأثير الصهيونية لأصبح جميع البائسين من اليهود فوضويين"(٩٦).

ولكن عمالة ورجعية يهود العالم، رغم أنها سلعة مرغوب فيها، لم تكن السلعة الأساسية التي يتجر فيها هرتزل إذ أن هديته الحقيقية لزبائنه كانت الدولة اليهودية ذاتها. لقد كان من المؤمنين بأن الدولة اليهودية لابد وأن تلعب دور العميل والسمسار والقاعدة للقوة الاستعمارية التي ستقوم بحمايتها ودعمها. فمثلاً حينما كان يتحدث مع دوق بادن الكبير رسم له صورة لما ستكون عليه الدولة اليهودية مبيناً له الفوائد الجمة التي ستجنيها الدولة الاستعمارية نتيجة لوجود دولة دخيلة عند مفترق الطرق بين القارتين. قال هرتزل: "سنبني سككاً حديدية في آسيا وسنشق الطريق للأمم المتحضرة، وهذا الطريق لن يكون في يد دولة كبيرة واحدة بل سيكون ملكاً للجميع"(٩٧).

وكما أسلفنا، رأى هرتزل بثاقب نظره العملي أن شعب

مصر كان على وشك أن يثور على مستعمريه وأن الإنجليز سيحتاجون إلى قاعدة أخرى في الشرق كنتيجة لذلك، ولذا وجد أنه من الممكن توظيف هذا الوضع في خدمة المشروع الصهيوني. وكما يقول هرتزل نفسه: "إنه لما يفيدنا أن يضطر الإنجليز إلى مغادرة مصر، فإنهم سيضطرون آنذاك أن يبحثوا عن طريق آخر إلى الهند بدلاً من قناة السويس التي ستضيع منهم أو على الأقل ستصبح غير مأمونة.. آنذاك تصبح فلسطين اليهودية الحديثة مناسبة لهم - الطريق من يافا إلى الخليج الفارسي"(٩٨). وهو يبين أن الدولة اليهودية قاعدة رخيصة الثمن لا تسبب لصاحبها الحرج. ففي خطاب إلى اللورد سولزبري يعرض هرتزل خدماته على الإمبراطورية الإنجليزية في هذه الكلمات: "ستجني إنجلترا مكاسب كثيرة دون مصاريف وبدون أن يعلم العالم شيئاً عن دورها". إذ بينما تمد روسيا خطاً حديدياً إلى آسيا في الشمال سيكون لبريطانيا في الجنوب طريق احتياطي حيادي إلى الهند في حالة قيام مصاعب في قناة السويس. إن أرض الميعاد مفتوحة للجميع، سلعة ميسرة، وطن للإيجار طالما كان في مقدورك أن تدفع الثمن.

الهوامش :

١- د. أنيس الصايغ (محرر)، الفكرة الصهيونية (بيروت: مركز الأبحاث الفلسطينية، ١٩٧١) ص, ١٠٦

٢- المرجع نفسه، ص, ١٠٧

٣- المرجع نفسه، ص, ١٣

٤- المرجع نفسه، ص, ٢٠٩

٥- المرجع نفسه، ص, ٣٦٩

٦- المرجع نفسه، ص, ٢٠٢

٧- المرجع نفسه، ص, ١٢٥

٨- المرجع نفسه، ص, ٣٦٩

٩- المرجع نفسه، ص, ١٢٥

١٠- المرجع نفسه، ص, ١٠٥

١١- المرجع نفسه، ص, ١١٩

١٢- المرجع نفسه، ص, ١١٩

١٣- المرجع نفسه، ص, ٢١٢

١٤- المرجع نفسه، ص, ٢١٣

١٥- المرجع نفسه، ص, ٢١٢

١٦- المرجع نفسه، ص٢١١-, ٢١٢

١٧- المرجع نفسه، ص, ٥٢

١٨- Marvin Lowenthal (Trans. Ed.), Diaries of Theodor Herzl (New York: Grasset and Dunlop, 1962), p. 62. سنشير لهذا الكتاب بعد ذلك بعبارة "اليوميات بالإنجليزية"

١٩- المرجع نفسه، ص, ٥٦

٢٠- الفكرة الصهيونية، ص, ١٠٨

٢١- د. أنيس الصايغ (إعداد) يوميات هرتزل (بيروت: مركز الأبحاث الفلسطينية، ١٩٦٨) ص, ١٨٢

٢٢- اليوميات بالإنجليزية، ص, ٢٤

٢٣- المرجع نفسه، ص, ٣٩٠

٢٤- المرجع نفسه، ص, ٢٣٨

٢٥- المرجع نفسه، ص, ١٣٢

٢٦- المرجع نفسه، ص, ٣٩٣

٢٧- المرجع نفسه، ص, ٢٦١

٢٨- المرجع نفسه، ص, ٢٣٥

٢٩- المرجع نفسه، ص, ٢٣٦

٣٠- المرجع نفسه، ص, ٢٢٧
٣١- المرجع نفسه، ص, ٢٤٧
٣٢- المرجع نفسه، ص, ٢٦٢
٣٣- المرجع نفسه، ص, ٢٦٤
٣٤- المرجع نفسه، ص, ٢٢٤
٣٥- المرجع نفسه، ص, ٢٢٧
٣٦- المرجع نفسه، ص, ١٠١
٣٧- المرجع نفسه، ص, ١٥
٣٨- المرجع نفسه، ص, ٢٢
٣٩- المرجع نفسه، ص, ٦٥
٤٠- المرجع نفسه، ص, ٣
٤١- المرجع نفسه، ص, ١٢٩
٤٢- المرجع نفسه، ص, ٣٢٩
٤٣- المرجع نفسه، ص, ٢٤٢
٤٤- المرجع نفسه، ص, ٢٢٤
٤٥- المرجع نفسه، ص, ١٠٣
٤٦- المرجع نفسه، ص, ٢٣١
٤٧- Herzl and Mess ianiam" Herzl Year"

Book,7,1971, p. 17.

٤٨- المرجع نفسه، ص, ١٧

٤٩- المرجع نفسه، ص١٧-, ١٨

٥٠- المرجع نفسه، ص, ٢٤

٥١- المرجع نفسه، ص, ٢٥

٥٢- المرجع نفسه، ص, ٢٥

٥٣- المرجع نفسه، ص, ١٠

٥٤- المرجع نفسه، ص, ٢٣

٥٥- المرجع نفسه، ص, ١٢

٥٦- اليوميات بالإنجليزية، ص٦٣-, ٦٤

٥٧- المرجع نفسه، ص, ٢٢٦

٥٨- Herzl and Mess ianiam" Herzl Year"

Book,197 , p. 15.

٥٩- المرجع نفسه، ص, ٢٦

٦٠- اليوميات بالإنجليزية، ص, ١١٠

٦١- المرجع نفسه، ص, ٧٢

٦٢- يوميات هرتزل، ص, ١١٣

٦٣- اليوميات بالإنجليزية، ص, ٢٥

٦٤- المرجع نفسه، ص, ٤
٦٥- يوميات هرتزل، ص, ٧٤
٦٦- اليوميات بالإنجليزية، ص, ٣٦
٦٧- المرجع نفسه، ص, ٤٠
٦٨- المرجع نفسه، ص, ٤٠
٦٩- المرجع نفسه، ص, ٤٠
٧٠- الفكرة الصهيونية، ص, ١٣٣
٧١- اليوميات بالإنجليزية، ص, ٢٥٧
٧٢- المرجع نفسه، ص, ٥٦
٧٣- المرجع نفسه، ص, ١٦
٧٤- المرجع نفسه، ص, ١٩٩
٧٥- المرجع نفسه، ص, ٣٧٧
٧٦- يوميات هرتزل، ص, ٢٤٢
٧٧- اليوميات بالإنجليزية، ص, ٢٨٣
٧٨- الفكرة الصهيونية، ص, ٤٣٨
٧٩- اليوميات بالإنجليزية، ص, ١١٩
٨٠- المرجع نفسه، ص, ٢٨٧
٨١- المرجع نفسه، ص, ١٥١

٨٢- المرجع نفسه، ص, ١٠١
٨٣- المرجع نفسه، ص, ١٣٩
٨٤- المرجع نفسه، ص, ٢٤٥
٨٥- المرجع نفسه، ص, ٣٣٤
٨٦- المرجع نفسه، ص, ١٤٣
٨٧- المرجع نفسه، ص, ٣٥٣
٨٨- يوميات هرتزل، ص, ١٩٥
٨٩- المرجع نفسه، ص, ٥٥
٩٠- المرجع نفسه، ص, ٤٢
٩١- المرجع نفسه، ص, ٢٤٥
٩٢- اليوميات بالإنجليزية، ص, ١٠٢
٩٣- المرجع نفسه، ص, ١١٤
٩٤- المرجع نفسه، ص, ١٣٩
٩٥- الفكرة الصهيونية، ص, ١٠٤
٩٦- اليوميات بالإنجليزية، ص, ١٣٢
٨٨- يوميات هرتزل، ص, ٢٥٠
٨٢- المرجع نفسه، ص٦٢-, ٦٣

الفصل الثامن
الصهيونية الاشتراكية

يدّعي دعاة الصهيونية الاشتراكية أن الفكر الاشتراكي من المصادر الأساسية لرؤيتهم للواقع. ولكن الدراسة المتعمقة تبين أن الفكر الاشتراكي الصهيوني يختلف بشكل جوهري عن الفكر الاشتراكي العالمي، فهو فكر اشتراكي قد فُرِّغ من مضمونه الإنساني ومن أي حديث عن العدالة والمساواة. يظهر هذا في كتابات الصهاينة الاشتراكيين، في محاولتهم تفسير ما يسمى "التاريخ اليهودي" والمسألة اليهودية تفسيراً يدّعون أنه "علمي" و"موضوعي"،. ولكننا سنلاحظ أنهم يحاولون الخلوص إلى نتائج استعمارية تم تحديدها مسبقاً. فجميعهم ينطلق من الصيغة الصهيونية الأساسية، ثم يضيفون لها ديباجات اشتراكية نابعة من خصوصية وضع اليهود في الحضارة الغربية، وهم في توفيقيتهم (أو تلفيقيتهم) هذه لا يختلفون عن التيارات الصهيونية الأخرى. بل إنه ليمكننا القول بأن منطلقات الصهيونية الاشتراكية لا تختلف كثيراً عن التيارات الصهيونية الأخرى اللهم إلا في

المصطلح وفي الزخارف الاشتراكية البراقة التي لا تمت بصلة للجوهر الصهيوني أو لما نسميه "الإجماع الصهيوني" الذي ينطلق من نقطتين استعماريتين غربيتين عنصريتين أولاهما: أن فلسطين أرض بلا شعب، وثانيتهما أن يهود العالم شعب بلا أرض. وأهم الصهاينة الاشتراكيين هم موسى هس وأهارون جوردون ونحمن سيركين ودوف بير بورخوف الذين سندرس أفكارهم لنختبر المقدرة التفسيرية لنموذجنا التحليلي: أن الصهيونية، بكل اتجاهاتها، تضرب بجذورها في الحضارة الغربية، وأن البعد اليهودي فيها هو مجرد ديباجات.

موسى هس

رائد الصهيونية العمالية. وُلد في ألمانيا من أب بقَّال وأم كان أبوها حاخاماً. وانتقل هس، وهو بعد في التاسعة، إلى منزل جده حيث تلقَّى على يديه تعليماً دينياً وتعلَّم العبرية. ورغم ذلك، لم يُبد هس أي اهتمام بالقضايا اليهودية إلا في مرحلة متقدمة من عمره. وقد اهتم هس بدراسة التاريخ وكان شديد الإعجاب بالفيزياء والأدب الفرنسي ودرس الفلسفة في

الجامعة ولكنه لم يحصل على درجة علمية.وقد استقر هس معظم حياته في باريس حيث تزوج من فتاة أمية مسيحية تعمل بالدعارة، ولكنه أجّل الزواج إلى ما بعد وفاة والده بعام واحد أي عام ١٨٥٢ لكي يضمن حقه في الميراث. وكان لهس اتصال بالأوساط والمجالات الاشتراكية، كما كان صديقاً لكارل ماركس وفردريك إنجلز، ولكنه اختلف معهما بعد فترة قصيرة، كما كان عضواً في أحد المحافل الماسونية، وساهم بعدة مقالات في المجلات الماسونية. وقد أظهر إعجاباً شديداً في مقتبل حياته بالدين المسيحي والحضارة الغربية، وخصوصاً في ألمانيا، ولذلك فقد كان يؤكد أهمية ألمانيا مثل نوردو وجابوتنسكي، واشترك في الثورة الألمانية عام ١٨٤٨ وحُكم عليه بالإعدام. وقد كان هس واقعاً تحت تأثير روسو وإسبينوزا وماتزيني، ولكن أهم مصادر تفكيره هي الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية.

نشر هس عام ١٨٦٢ كتاباً كان عنوانه الأصلي حياة إسرائيل، ولكنه عدّل هذا الاسم وسماه روما والقدس. وتَردُّده بين الاسمين ذو دلالة، فالعنوان الأول ديني حلولي صريح وله

بُعْد يهودي خالص، أما الثاني فهو حلولي غربي استعماري. وروما التي يشير إليها هس هي روما الثالثة التي كان يشير لها ماتزيني والتي ستؤسَّس عن طريق بعث القومية الإيطالية، فهو يرى أن ثمة علاقة بين بعث روما في أوربا وبعث القدس في الشرق، ويرى أن ثمة علاقة بين الحركة القومية العضوية والحركة الصهيونية. ويتحدث الكتاب عن الثورة الفرنسية كمَعْلَم أساسي في تاريخ الغرب، فهي تشكل بعثاً اجتماعياً سيؤيد المشروع الاستعماري الصهيوني في الغرب، أي أن هس قام في البداية بتصنيف الصهيونية تصنيفاً صحيحاً لا باعتبارها حركة تنبع من داخل ما يُسمَّى "التاريخ اليهودي" وإنما باعتبارها ظاهرة تنبع من حركيات التاريخ الغربي الاستعماري. والكتاب عبارة عن اثنتي عشرة رسالة إلى سيدة حزينة على فَقْد إنسان تحبه، ولعل هذا يفسر عدم ترابط الأفكار كما يفسر العاطفية الزائدة، وهو كتاب سطحي بشكل عام في أطروحاته ورؤيته السياسية.

يتفق هس مع النقد المعادي لليهودية ولما يسمَّى "الشخصية اليهودية". وقد صرَّح في بداية حياته بأن شريعة

موسى ماتت وأن اليهود إذا كان عليهم أن يختاروا ديناً فهو المسيحية فهي أكثر ملاءمة للعصر الحاضر، فهي دين يهدف إلى توحيد كل الشعوب وليس توحيد شعب واحد (كما هو الحال في اليهودية). ورغم أن هس لم يَتنصَّر إلا أنه لم يكن معارضاً تماماً لفكرة التعميد، فالدين اليهودي أصبح، على حد قول هايني، مصيبة أكثر منه ديناً خلال الألفي عام الماضية. بل إن كل الأديان إن هي إلا خطأ إنساني جماعي والدين إن هو إلا تعبير عن حالة مرضية.

ولا يختلف موقف هس من اليهود عن موقفه من اليهودية. ففي أول كتاب له التاريخ المقدَّس للإنسانية، وهو كتاب ذو صبغة مسيحية رومنتيكية، يقول فيه إن اليهود قد أنجزوا مهمتهم الروحية بظهور المسيح برؤيته العالمية. وقد قدَّم تقسيماً لمراحل التاريخ يدور في إطار مسيحي: المرحلة الأولى هي مملكة الإله الأب (التي سادتها المسيحية)، أما المرحلة الثانية والأخيرة فهي مملكة الروح القدس (وهي مرحلة نهاية التاريخ التي سيتحقَّق فيها خلاص الجنس البشري بأسره)، وينشأ مجتمع اشتراكي كامل تُلغَى فيه الملكية الخاصة وحق

الميراث وكحكم مامون إله المال ويؤكد التضامن الإنساني نفسه دون أية عوائق، ومن ثم فهو مجتمع يحقق رسالة اليهودية القديمة ولكن في إطار علماني. وليس بإمكان اليهود الآن إلا أن ينضموا كأفراد إلى الحضارة العالمية، تماماً كما فعل إسبينوزا نبي اليهودية الحقيقي. بل إن اليهود سيعودون تحت راياته وسيُنفَخ في الشوفار اليهودي الذي نُفخ فيه حين طُرد إسبينوزا من حظيرة الدين. والقدس الجديدة بهذا المعنى ستبقى هنا في قلب أوربا وليس في فلسطين.

وفي مخطوطة أخرى بعنوان البولنديون واليهود تنتمي للفترة نفسها (١٨٤٠)، يرى أن البولنديين لهم مستقبل أما اليهود فلا مستقبل لهم لأنهم يعانون من نقص مطلق في الوعي القومي، والبولنديون لن يستسلموا قط لحقيقة تقسيم بولندا على عكس اليهود الذين استسلموا لحقيقة طردهم من فلسطين. ويذهب هس إلى أن اليهود والصينيين حفرية تاريخية لها ماض وليس لها مستقبل، بحيث أصبح الصينيون جسداً بلا روح وأصبح اليهود روحاً بلا جسد. ولذا فهو يرى أن الشعب المختار لابد أن يختفي إلى الأبد، فمن اختفائه قد

تظهر حياة جديدة ثمينة.

وقد صدرت له كراسة عن رأس المال (١٨٤٥)، وهي تزخر بالإشارات المعادية لليهود (ويبدو أن ماركس قرأها قبل أن تُنشر وتأثر بها). يقول هس في هذه الكراسة إن أعضاء جماعة يسرائيل كانوا شعباً من الوثنيين، ربهم الأساسي هو مولك الذي كان يطلب منهم دم الضحايا. ولكنهم، بمرور الزمن، عبروا من مرحلة قرابين الدم (بالعبرية: دم) إلى مرحلة قرابين النقود (بالعبرية: داميم أي "رسوم") وهذه هي أصول عبادة اليهود للنقود إذ حلَّت محل مولك. وفي هذه الكراسة، يشير هس لإله يسرائيل باعتباره يهوه مولك. ويصف شلومو أفنيري هذه العبارات بأنها "فرية دم جماعية"-لا نظير لها في أدبيات معاداة اليهود.

ويُعَدُّ هذا الرفض المبدئي لكل من اليهودية واليهود إحدى المقولات الأساسية الصريحة في صهيونية اليهود وغير اليهود ويُعْداً أساسياً في الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة.

ثم يذكر هس حقيقة ظهور القومية العضوية كإطار مرجعي في الغرب، فيقول: إن حركة التنوير دعوة للعالمية

والإخاء ولكنها يصاحبها زيادة الوعي القومي (في أوربا) وزيادة الإحساس بأن الأمة كيان عضوي متماسك. ومصدر التماسك العضوي للشعوب العضوية هو العرْق، فهو القيمة الحاكمة الكبرى، وهو محرك التاريخ. فالتاريخ إن هو إلا ساحة للصراع العرْقي والطبقي، بل إن الصراع العرْقي هو الغالب. ولذا، تفشل كل محاولات الإصلاح لأنها تتجاهل عنصر العرْق. وهذا التركيز على العرْق أغلق أبواب الغرب تماماً أمام اليهود، إذ لم يَعُد بوسعهم الحصول على تأشيرة دخول الحضارة الغربية عن طريق التنصُّر (كما فعل هايني).

ثم يذكر هس الحقيقة الأساسية في أوربا في عصره وهي أن الشعوب الأوربية اعتبرت وجود اليهود بينها شذوذاً، ولذا سيبقى اليهود غرباء أبداً لا يمكنهم الالتحام العضوي بأوربا، شعباً منبوذاً ومُحتقَراً ومُشتَّتاً؛ شعباً هبط إلى مرتبة الطفيليات التي تعتمد في غذائها على الغير؛ شعباً ميتاً لا حياة له (والمُلاحَظ أن الصور المجازية العضوية تتواتر في كتابات هس كما هو الحال في معظم الأدبيات الصهيونية والنازية والمعادية لليهود).

المخْرَج من هذا الوضع هو الصيغة الصهيونية الأساسية التي تطرح فكرة الشعب العضوي المنبوذ، الذي يمكن حل مشكلته عن طريق توظيفه في خدمة الحضارة الغربية التي نبذته. ويبين هس أن اليهود عنصر حركي نافع، فمبدؤهم الرئيسي أن "موطن المرء حيث ينتفع". هذا هو دينهم، وهو أعظم من كل ذكرياتهم القومية إذ يرى أن اليهود متميزون باجتهادهم الصناعي والتجاري. ولذا، فقد أصبحوا مهمين للأمم المتحضرة التي يعيش فيها اليهود. وأصبحوا أمراً لا يمكن الاستغناء عنه لتقدُّم هذه الأمم (وهذا هو وَصفُنا للجماعة الوظيفية).

ولكن اليهود ليسوا جماعة وظيفية وحسب، إذ يجب أن يُعاد إنتاجهم على هيئة شعب عضوي حتى تتمكن أوربا من أن تجد لهم مكاناً في الأرض وتشرف على مشروعهم الاستعماري. ولذا، فهو يرى اليهود باعتبارهم قوماً ينقصهم الوعي القومي. وحيث إن القومية والعرْق أمران مترادفان في عقل هس وفي وجدان أوربا في القرن التاسع عشر (فالعرْق هو مصدر الوحدة العضوية وهو القيمة الحاكمة المرجعية)،

وحيث إن الانتماء القومي هو في جوهره انتماء عرْقي، نجد أن هس يشير إلى العرْق اليهودي باعتباره من العروق الرئيسية في الجنس البشري التي حافظت على وحدتها رغم التأثيرات المناخية عليها، كما حافظت السمة اليهودية على نقائها عَبْر العصور. وقد قسَّم هس العالم إلى جنسين أساسيين (السامي والآري) يهدف الأول إلى إضفاء الأخلاق على الحياة ويهدف الثاني إلى إضفاء الجمال عليها (وهو التقسيم الذي قبلته أوربا وقبله النازيون فيما بعد).

ولكن التعريف العرْقي ليس التعريف الوحيد وإن كان هو الأساس. والواقع أن ثمة إشارات في الكراسة تدل على أنه يرى أن الوحدة بين اليهود إثنية (ثقافية) أيضاً على طريقة القومية العضوية، فهو يقول إن هويته القومية ترتبط بتراث أسلافه وبالأرض المقدَّسة وبالمدينة الخالدة. ويرى هس أن ثمة ترابطاً عضوياً عميقاً بين الهوية اليهودية والدين اليهودي، فالدين أهم أشكال التعبير عن هذه الهوية، أي أنه يرى الدين مكوناً إثنياً وشكلاً من أشكال الفلكلور. ولذا، فقد اقترح هس عدم إدخال أية تغييرات عليه. واستنكر محاولات اليهود

الإصلاحيين تحويل اليهودية إلى شيء عالمي أو إلى نسخة ثانية من المسيحية، فهي محاولة محكوم عليها بالفشل لأن اليهودية الإصلاحية لا تُبدي أي شكل من أشكال الاحترام للمقومات الأساسية للقومية الدينية التي تشكل جوهر الدين. فاليهودية دين عقيدة ودين عبادة قومية (على عكس المسيحية)، ولذا فهو يشير دائماً إلى "دين اليهود التاريخي"، أي دين يتبدّى في الحياة القومية والتاريخية لليهود، والذي لا وجود له كمجموعة من القيم المطلقة المُتجاوزة لهذه الحياة المُنزَّهة عنها.

ويَقرن هس بين الروح المقدّسة والعبقرية الخلاقة للشعب ويُوحِّدهما، فالواحد هو الآخر. وقد نبعت منها كل من الحياة الإثنية والعقيدة اليهودية، أي أن القومية العضوية أو روح الشعب أسبق من الدين، وما الدين سوى تعبير عن الروح القومية، وهذا يعني أن هس يَصدُر عن صورة مجازية حلولية عضوية ترى ترادفاً بين الدين والقومية، وتجعل الشعب المركز الوحيد للحلول والكمون، ومن ثم فهي حلولية بدون إله. وهكذا تكون قد تمت إعادة إنتاج الجماعة اليهودية في الغرب على

هيئة شعب عضوي لا تقبله أوربا، أي شعب عضوي منبوذ.

وطرح المشكلة على هذا النحو يشير إلى الحل وهو نقل الشعب الذي نبذه العالم الغربي وتوطينه في الشرق ليقوم على خدمة الغرب ومن ثم يصبح اليهود جزءاً من التشكيل الاستعماري الغربي بعد أن فشلوا في الانتماء إلى التشكيل الحضاري الغربي. ويشير هس إلى أنه قد تم تعبيد طريق الحضارة في الصحراء بحفر قناة السويس ومد الخطوط الحديدية التي تصل أوربا وآسيا، أي أن طرق المواصلات جعلت الشرق مفتوحاً أمام الغرب. ثم يشير إلى أن الظروف السياسية في الشرق (أي المسألة الشرقية) بدأت تتهيأ لدرجة تسمح بتنظيم عودة الدولة اليهودية للحياة. ولذا، يمكن أن تقوم إحدى الدول الغربية الاستعمارية (فرنسا الحبيبة مثلاً، المُخلِّص الذي سيعيد لشعبنا مكانته في التاريخ العالمي) بتشييد مستعمرات في أرض الأجداد. "فالأمم المسيحية لا تعارض عودة الدولة اليهودية إلى الحياة لأنهم بهذه الطريقة سيتخلصون من شعب غريب يعيش بينهم بعد أن كان شوكة في جنبهم". والدولة اليهودية يجب أن تكون دولة مستقلة

مُعترَفاً بها من القانون الدولي (أي القانون الاستعماري الغربي) كدولة متحضرة (أي كدولة استيطانية وظيفية تدور في فلك الغرب الذي يضمن بقاءها واستمرارها وتدافع هي عن مصالحه).

ويَتوصَّل هس لفكرة الدولة الوظيفية، فاليهود سيذهبون إلى أرض الأجداد داخل إطار الحضارة الغربية الاستعمارية. لكل هذا، يرى هس أن اليهود ينبغي عليهم ألا يطالبوا الإله بأرض الأجداد من خلال الصلاة، وإنما يجب عليهم أن يتحلوا بالشجاعة ويطلبوا هذه الأرض من الإنسان الغربي، وأن ينسلخوا عن اليهودية وينخرطوا في التشكيل الاستعماري الغربي (ذلك أن هس صهيوني يهودي غير يهودي). ويبين هس مدى نفع الدولة الوظيفية الجديدة، فاليهود يُكوِّنون "مركز اتصال بين القارات الثلاث...]وهم[حملة الحضارة إلى شعوب لا تعرفها... الوسيط بين أوربا وآسيا البعيدة، وذلك كي يمهدوا الطرق التي تقود إلى الهند والصين، لكل المناطق المعزولة التي يجب أن تُعرَّض للحضارة". كما أنهم سيعطون الدولة العثمانية بعض المال الأمر الذي

سيحد من تداعي الإمبراطورية (وهو ما كان يُهم فرنسا آنذاك).

ويَتوصَّل هس إلى مفهوم الصهيونيتين، فيميز بين يهود الشرق ويهود الغرب، فالمشروع الصهيوني لا يعني أن يهاجر يهود الغرب كلهم إلى فلسطين، ذلك أن أغلبية اليهود الذين يعيشون في بلدان متمدنة في الغرب لابد أنْ يبقوا في بلادهم بعد تأسيس دولة يهودية، فقد نجحوا في شق طريقهم بجهد بالغ وحققوا لأنفسهم مركزاً اجتماعياً وسوف لن يتخلوا عن أي نجاح حققوه. ولكنهم، مع هذا، سيساندون الشعب اليهودي من شرق أوربا (أي يهود اليديشية) في مهمته التاريخية، أي أنه حدد لهم دورهم في الحركة الصهيونية باعتباره صهيونية توطينية. "أما في تلك البلاد التي تؤلف الخط الفاصل بين الغرب والشرق، أي روسيا وبولندا وبروسيا والنمسا وتركيا، فالملايين من إخواننا يتضرعون إلى الإله بحماس كي يعيد المملكة اليهودية. لقد حافظ هؤلاء اليهود على بذرة الحياة اليهودية]الحياة الجيتوية [بإخلاص أكثر من إخواننا في الغرب".

لقد توجَّس هس خيفة من البداية من أن المادة البشرية المطلوبة للمشروع الاستعماري قد لا تكون طيعة وقد لا تهاجر، ولذا فهو يقول: "إن عدد اليهود الذين سيسكنون الدولة ليس أمراً مهماً، فاليهود عبر تاريخهم يعيشون في كل مكان، وكل دولة مستقلة لها مواطنون يعيشون في أرض أجنبية" أي أنه لا يطالب بتصفية الدياسبورا.

هذه هي الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة. ولكن هس كان مدركاً أنها في حد ذاتها لا تكفي، ولذا فلابد من زيادة مقدرتها التعبوية بإضافة ديباجات وأبعاد مختلفة، يقول هس إن دولة اليهود الجديدة ستوفر لهم الكرامة والاحترام والشرف، وسيتم تطبيعهم إذ سيُحوِّلهم حصولهم على أرض إلى أفراد، عمال نافعين، وسيُسهم رأسمالهم وعملهم في إعادة الحياة للأرض القاحلة، أي أنهم سيتحولون إلى مادة استيطانية ناجحة بيضاء. ثم يستخدم هس ديباجات إثنية دينية، فيؤكد أن هذا البعث القومي سيؤدي لا إلى إصلاح اليهود وحسب وإنما إلى إصلاح اليهودية نفسها، فعبقرية اليهود الدينية لن يعيدها إلا نهضة قومية (والقومية على كلٍّ

أسبق من الدين). كما أن هذا الجفاف الديني سيختفي عندما تستيقظ الحياة الوطنية المنطفئة. وعندما يتغلغل تيار التطور الوطني القومي التاريخي الحر ثانيةً داخل تلك الشكليات الدينية المتزمتة. "فإذا حققنا هذه الخطوة الرئيسية لأمكننا التغلب على الصعوبات مهما بلغت.... ويمكننا بهذه الروح الوطنية تحرير الشعب اليهودي من الشكليات المميتة للروح". بل إن البعث القومي سيغير شكل التعبير الديني ذاته في المستقبل، فمن المؤكد أن اليهود سيختلفون في تعبيرهم الديني عما هو عليه في الحاضر وعما كان عليه في الماضي. بل إن هس يتنبأ بأنه بعد البعث القومي، وإنشاء دولة يهودية، سيقام سنهدرين منتخب يقوم بتعديل الشريعة اليهودية حسب احتياجات المجتمع الجديد (وهو الأمر الذي حَدَث بالفعل).

وإلى جانب الديباجة الإثنية، هناك الديباجة العمالية الأممية الإنسانية، "واليهودية القومية لا تستبعد النظرة العالمية، بل العكس هو الصحيح، فالعالمية هي النتيجة المنطقية لصفات اليهود القومية". بل إنه "لا يوجد شعب غير اليهود له دين يربط العناصر القومية والعالمية والتاريخية معاً،

فاليهود إذن هم وحدهم شعب الإله". ولقد أصبح تاريخ الإنسانية مقدّساً من خلال اليهودية. فالتاريخ أصبح تطوراً عضوياً ومُوحَّداً يعود في أصله إلى حب الأسرة. وسوف لا يتم هذا التطور إلا إذا أصبحت الإنسانية كلها أسره واحدة يتحد أعضاؤها بالروح القدس وبإبداع التاريخ العبقري. والواقع أن هناك حتمية وراء اختيار اليهود لطريق العدالة في مجتمعهم، فهم طفيليون منبونون يشعرون بالحاجة إلى ظروف عمل عادلة وصحيحة. ولذا، فهم بحاجة إلى أرض حتى يتحولوا من طفيليين هامشيين إلى عمال نافعين، ووجود مثل هذه الأرض التي ستشكل الوطن المشترك شرط أساسي لإدخال علاقة صحيحة بين رأس المال والعمل عند اليهود. وسيزداد تحقيق العدالة في المجتمع إن اعتمد على استغلال الإنسان للطبيعة بدلاً من استغلال الإنسان للإنسان، وسيتحقق هذا من خلال التقدم العلمي. ففي الماضي، كانت الندرة مصدر الصراع الطبقي والعرْقي. ولذا، ومع تحقيق الوفرة من خلال تَقدُّم وسائل الإنتاج والعلم، ستختفي هذه الصراعات وستزول الحاجة لاستغلال الإنسان لأخيه

الإنسان، وسيختفي العداء بين الطبقة الرأسمالية والطبقة المنتجة، بل ستختفي الاختلافات بين النظرة الفلسفية والبحث العلمي، وسيتحد الذات والموضوع تماماً. وسيصبح الفاعل الفلسفي هو نفسه القانون العلمي، أي أن التاريخ والطبيعة سيتحدان وتتحقق الواحدية المادية الكونية في لحظة نهائية مطلقة في سبت التاريخ أي نهايته. ومن الواضح أن المشيحانية تحولت هنا إلى عقيدة هيجلية علمانية.

وفيما يتصل بالسكان الأصليين، فهناك ما يشبه الصمت بشأنهم، وحينما تحدث هس عن الأعراق في أوربا، فقد تحدث عن اختلافها لا عن تفاوتها، ولكنه حينما انتقل إلى الشرق فإنه يؤكد التفاوت فيما بينها حتى يُكسب مشروعه الصهيوني الشرعية الغربية الإمبريالية اللازمة. فاليهود سيجلبون الحضارة للمتخلفين وعليهم أن يعملوا على تثقيف القطعان العربية المتوحشة والشعوب الأفريقية وأن يجعلوا القرآن والإنجيل يتحلقان حول التوراة.

وقد سمع هس، قبل نشر كراسته، عن كتابات كاليشر فنوّه بها وبيّن أنها علامة على البعث القومي الجديد، كما كان

يرى ذلك في الحسيدية (فرَفْضُها الاندماج علامة على حيوية اليهودية الحديثة).

وقد وصف الزعيم الإصلاحي أبراهام جايجر كتابات هس بأنها "ليست الولادة لعصر جديد، بل القبر المفتوح لعهد مضى". وقد ساهم هس في بعض الأعمال التمهيدية للاستيطان، فاشترك في تحقيق مشروع المدرسة الزراعية قرب يافا والذي تبنته الأليانس.

وقد تُوفي هس عام ١٨٧٥، ونُقلت رفاته إلى إسرائيل. وإلى جانب الدراسات التي أسلفنا الإشارة إليها، كَتَب هس في الاشتراكية وله كتاب المادية الدينامية يضم آراءه العلمية المقتبسة عن النظرة الحيوية.

أهارون جوردون

أحد مفكري الصهيونية العمالية وأحد أعمدة الاستيطان الصهيوني في فلسطين. وُلد في بودوليا (روسيا) في بيئة زراعية تركت أثرها العميق فيه، وقد تلقَّى تعليماً دينياً ثم علمانياً، وعمل محاسباً حتى عام ١٩٠٢. وفي تلك الفترة، فَقَد إيمانه باليهودية وبحركة التنوير، وتأثر بأفكار تولستوي

والحركة الشعبوية الروسية، وتبنّى رؤية آحاد هعام الصهيونية ووثنيته اللادينية. وتعرّف خلال ذلك إلى جماعة أحباء صهيون وأصبح من أتباعها المتحمسين. وحينما بيعت الضيعة التي كان يعيش ويعمل فيها عام ١٩٠٤، هاجر إلى فلسطين حيث اشتغل عاملاً زراعياً يدوياً في المستوطنات اليهودية هناك (وكان عمره آنذاك ٤٨ سنة على عكس الأكثرية الساحقة من مهاجري الهجرة الثانية). أنجب جوردون سبعة أطفال لم يبق منهم سوى اثنين. وقد حاولت أسرته أن تُثنيه عن عزمه على الاستيطان ولكنه نجح في إحضارها إلى فلسطين إلا ابنه الأكبر الذي عاد إلى حظيرة الدين اليهودي وانفصل عن أبيه. وفي عام ١٩٠٩، نشر جوردون في مجلة العامل الفتي مجموعة من المقالات يشرح فيها أفكاره وهي مجلة جماعة عمالية معارضة لجماعتي عمال صهيون واتحاد العمل.

ينطلق جوردون من أدبيات معاداة السامية الغربية فيوجه نقداً عميقاً للجماعات اليهودية ولليهودية التي قضت تاريخها معزولة عن الطبيعة، مسجونةً داخل أسوار المدينة، ففقدت حب العمل. فالتلمود يقول إنه عندما ينفذ اليهود إرادة الإله

سيقوم الآخرون بتنفيذ أعمالهم نيابةً عنهم، وهكذا تحوَّل اليهود إلى شعب طفيلي ميت. وإلى جانب هذا، فَقَد اليهود أيضاً مقومات الشخصية القومية المستقلة. فهم طفيليون-لا في العمل المادي وحسب وإنما في المنتجات الثقافية كذلك، فهم يعتمدون على الآخرين مادياً وروحياً. إن الجماعات اليهودية في العالم سلبية في تَلَقِّيها واستهلاكها حضارة الآخرين، فكل الشعوب تعيش من ثمرة عملها إلا اليهود. والحضارة كما يرى نتاج عملية تَطوُّر طبيعية لم يساهم فيها اليهود. ولذا، فإن اليهود المندمجين في حضارة غير يهودية سيكتسبون هوية غير يهودية جديدة ويتحولون بذلك إلى أشخاص غير طبيعيين ناقصين ومنشطرين داخلياً.

والحل الذي يطرحه جوردون هو الحل الاستعماري الصهيوني، أي إسقاط اليهودية كدين وتحويل اليهود إلى مادة استيطانية، ولكنه يضيف إلى هذا المشروع ديباجته الخاصة. يذهب جوردون إلى أن اليهود يوجد أمامهم طريقان لا ثالث لهما: إما الاستمرار في حياة المنفى المريضة أو الخوض في طريق الحياة القومية الصحيحة، والواقع أن

اختيارٌ أحدهما يعني استبعاد الآخر. ولذا، يقترح جوردون على الرواد الصهاينة في فلسطين أن يكونوا آخر اليهود وأن يصبحوا رواد أمة عبرانية جديدة تتكون من رجال ونساء تربطهم علاقة جديدة بالطبيعة. وهو يدعو إلى تصفية الدياسبورا (الجماعات اليهودية) تماماً. وإن تم الاحتفاظ بهم، فيجب أن يكونوا بمنزلة المستعمرات في علاقتهم بالوطن الأم، يزودونه بالمادة البشرية المطلوبة والدعم المالي والسياسي.

وينطلق جوردون من إيمان بالواحدية المادية الكونية التي هيمنت على الفكر الغربي في القرن التاسع عشر، ولذا فهو يرى أن ثمة وحدة كونية بل تماثلاً كاملاً بين الإنسان والطبيعة. غير أنه إذا كان الإنسان مجرد جزء عضوي من الطبيعة، فإن العقل الإنساني يفقد أهميته (فالعقل مركز الذاكرة ووسيلتنا للوصول إلى المعرفة التاريخية). بل إن العقل حسب تصوُّر جوردون يصبح حينئذ مصدر اغتراب الإنسان عن مصادر حياته، لأن المعرفة العقلية تقف على طرف النقيض من الحياة الكونية (وهنا يتضح تأثير نيتشه العميق). وإذا كان العقل هو مصدر اغتراب الإنسان، فإن

المعرفة الحدسية هي التي تقلِّل غربته، وهي التي تجعله قادراً على الامتزاج بالطبيعة وبالقوة الكونية. إن حياة الإنسان مرتبطة بالحياة الخفية للكون. لكن الإنسان الذي ينبغي أن يعود جزءاً من الطبيعة عليه أن يتخلى عن العقل وعن أية حدود تفصل بينه وبين الطبيعة والقوة الكونية التي تسري فيها وفيه، وعليه أن ينغمس في تجربة دينية صوفية حلولية توحد بين الخالق والمخلوق. وهنا نجد أن الدين لا يعلو على الطبيعة وإنما هو جزء لا يتجزأ منها. ونحن، هنا، نجد الثالوث الحلولي وقد تحوَّل إلى ثالوث عضوي: فمن الإله والإنسان والطبيعة ننتقل إلى قوة الكون التي تسري في كلٍّ من الإنسان والطبيعة وتُوحِّدهما.

هذا الحديث الرومانسي عن الطبيعة والكون يُخفي كل المفاهيم الاستعمارية العنصرية الصهيونية الأساسية، فهو يعني أولاً رفض الدين اليهودي، فالحياة الطبيعية الجديدة هي بالنسبة لجوردون بمنزلة الدين لليهودي الورع المخلص، أي أنه سيُسقط المثل الدينية ويتبنَّى المثل الإثنية المطلقة المكتفية بذاتها، أي أنها حلولية موت الإله حيث تصبح الذات الإثنية

هي العبد والمعبود والمعبد. ويقول في تعريفه العامل الكوني: إنه الانتماء العرْقي، وهو مجموعة من القوى العقلية والجسدية التي تؤثر في شخصية كل فرد من أفراد مجموعة هذا الجنس. والواقع أن هذا التعريف هو نفسه الفكرة الجرمانية والسلافية للشعب العضوي. ولذا، فهو يؤكد أن هذا العنصر الكوني لا يمكن أن يتحقق بالنسبة لليهود إلا في فلسطين حيث يرتبط الدم بالتربة، أما في المنفى "فالذات العرْقية تنكمش على نفسها بدون أي مصدر للحياة".

ثم نأتي أخيراً للمفهوم المحوري، مفهوم دين العمل، وهي فكرة تستند إلى بعض أفكار الشعبويين الروس، كما أن لها جذوراً في الفكر الحسيدي وتراث القبَّالاه وبالوضع الاقتصادي في منطقة الاستيطان، وقد أضفى جوردون عليها غلالة عصرية لتصبح إطاراً جيداً للمشروع الصهيوني. إن دين العمل عند جوردون إن هو إلا وسيلة من وسائل العودة للطبيعة الكونية والاتحاد بها، فعن طريق العمل اليدوي يُنشئ الإنسان علاقة عضوية مع الطبيعة (مثل علاقة الرسام بالصورة وليس علاقة المشتري بها) ويصبح العمل الزراعي

(وحَرْث الأرض بالذات) عملاً روحانياً وقيمة أخلاقية في حد ذاته. ولكن الأساسات الصهيونية توجد وراء الحديث الكوني، إذ يقول جوردون إن حياة الإنسان الإبداعية والأخلاقية لا يمكن أن تتم على نحو فردي، بل لابد أن تتم على نحو قومي. فالقومية هي العنصر الكوني فينا، والطبيعة خلقت الشعب كحلقة وصل بين الكون والفرد، إذ أن الشعب هو جماعة طبيعية تُجسدً علاقات كونية حية. والبعث القومي، حسب تصوُّر جوردون، لا يمكن أن يتم عن طريق إعادة التنظيم الاجتماعي ولا من خلال الحركات الجماهيرية وإنما من خلالٌ جماعة متحدة بشكل عضوي وذات علاقة عضوية بالطبيعة. فالصهاينة لم يأتوا للصراع الطبقي وكُره الطبقات ولا من أجل الاشتراكية أو باسمها وإنما أتوا باسم الشعب العضوي اليهودي. ولذا، فإن مضمون الصراع قومي صرف، بالمعنى العضوي للكلمة الذي يستبعد الآخرين تماماً. وإن كان ثمة اشتراكية، فهي اشتراكية استيطانية (إن صح التعبير) مقصورة على اليهود وحدهم. لكل هذا، يرى جوردون أن البعث القومي اليهودي لن يتم إلا عن طريق دين العمل

الجماعي على الأرض المملوكة ملكية جماعية حيث يعود الشباب اليهودي للأرض المقدَّسة ليحرثوها ويزرعوها بأنفسهم دون أن يسمحوا لأي عامل عربي بأن يدخلها لأن العامل اليهودي أو العبري سيعمل بشكل ذاتي في مزارعه أو مصانعه الخاصة. أما إذا عاد ليعمل في مصانع أو مزارع الآخرين دون استقلالية، فإنه سيفشل في تحقيق أهداف المشروع الصهيوني. والعمال اليهود، إلى جانب ذلك، لن يعيدوا بَعْث أنفسهم وتطبيعها وغَسْل أدران المنفى عنها إن لم يعملوا بأنفسهم، فالشخصية اليهودية التي أحضروها معهم لابد أن يتم التخلص منها.

وإن لم يعمل اليهود بأنفسهم، فإنهم لن يحلوا محل الغريب. ولو حصل الصهاينة على كل سندات ملكية الأرض التي يطالب بها الصهاينة الدبلوماسيون (الاستعماريون)، أو براءة الاستيطان الدولية التي يطالب بها الصهاينة السياسيون، فإن البلد مع هذا سيظل في يد من يعمل فيه، أي في يد العرب. ولذا، لا ينبغي الاكتفاء بشراء الأراضي من العرب وإنما يجب إحلال اليهود محلهم، فبدون العمل العبري

سيظل المُستوطَن الصهيوني في أيديهم. ولهذا، يرى جوردون أن الطبقة العاملة اليهودية هي عماد المشروع الصهيوني. ولا شك في أن منطق جوردون الرومانسي في مجال تأليه العمل لعب دوراً كبيراً في تجنيد شباب اليهود الثائرين في أوربا، ولكن جوردون في مَعرض مواجهته مع العرب لا يكتفي بالمنطق الرومانسي وإنما يتحدث كذلك عن حق اليهود الأبدي في الأرض الفلسطينية، وهو حق ينسخ كل الحقوق الأخرى، ثم يضيف: وخصوصاً أن العرب لم يخلقوا أي شيء طوال فترة استيلائهم على الأرض المقدَّسة، أي أنه ينظر إلى العربي من خلال مقولة العربي المتخلف كي يبرر الاستيلاء الصهيوني على الأرض.

وقد كان جوردون من أوائل من نظَّموا الإضرابات ضد المزارع اليهودية التي استأجرت عرباً، وكان من بين سكان مستوطنة داجانيا التي نظمت إضراباً وطلبت عزل المدير الذي عينته المنظمة الصهيونية. وقد استجابت المنظمة لمطالب المضربين وتمت إدارة المزرعة على أساس تعاوني وأخذت الحياة فيها شكلاً جماعياً، وكانت هذه بداية الحركة

الكيبوتسية. وقد قضى جوردون آخر أيامه في داجانيا. وبرغم أنه لم يشغل أي منصب رسمي في الحركة الصهيونية، إلا أنه أثَّر فيها تأثيراً عميقاً.

نحمن سيركين

أحد مفكري الصهيونية العمالية. وُلد في روسيا لعائلة من الطبقة الوسطى عُرفت بالتدين، وتلقَّى تعليماً تقليدياً ثم دخل مدرسة روسية ودرس بعد ذلك الاقتصاد في ألمانيا. انضم في شبابه لجماعة أحباء صهيون، وحضر المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ولكنه ظل من دعاة الصهيونية الإقليمية حتى عام ١٩٠٩.

رجع إلى أحضان المنظمة الصهيونية ممثلاً عن حزب عمال صهيون. وقد هاجر إلى الولايات المتحدة حيث استقر وكتب العديد من المقالات، كما أصدر مجلات باللغتين اليديشية والعبرية للدعوة للأفكار الصهيونية، ونشر رسالته للدكتوراه عام ١٨٩٨ في كراس بعنوان المسألة اليهودية ودولة اليهود الاشتراكية. وقد ساهم سيركين خلال الحرب العالمية الأولى في تأسيس المؤتمر اليهودي الأمريكي وفي الدعوة له،

وأيد فكرة الفيلق اليهودي وسافر كعضو في لجنة الوفود اليهودية إلى مؤتمر السلام في فرنسا عام ١٩١٧.

تبنَّى سيركين الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة وأدخل عليها ديباجة اشتراكية، فطرح رؤية للتاريخ اليهودي تستند إلى افتراض أن اليهود كانوا يكوِّنون دولة مستقلة ذات تاريخ مستقل. ويبدأ التاريخ اليهودي سيرته الحزينة من المنفى حين وجد اليهود أنفسهم في الجيتو، ولكنهم مع هذا حافظوا على هويتهم القومية المستقلة داخله وهو ما أدَّى إلى ازدواج الشخصية اليهودية. فهناك شخصية للخارج يتعامل اليهودي من خلالها مع الأغيار، وأخرى للداخل يتعامل من خلالها مع اليهود (وازدواجية المعايير هي إحدى أهم سمات الجماعات الوظيفية).

ثم فُرض الانعتاق فجأة على اليهود، الأمر الذي أدَّى إلى اندماجهم وتنازلهم عن هويتهم القومية، وأصبح اليهود جزءاً من الحركة الليبرالية التي تدافع عن حقوقهم. ولكن البورجوازية خانت المُثُل الليبرالية بعد ذلك وتراجعت عنها، وزادت حدة الصراع الطبقي، الأمر الذي أدَّى إلى زيادة حدة

كُره اليهود، وخصوصاً بين الفلاحين والطبقات الوسطى. فالفلاحون مهددون بالاختفاء من المجتمع الإقطاعي ويرون اليهودي طليعة المجتمع الجديد الذي يتهددهم. أما الطبقات الوسطى، فهي مهددة بالهبوط في السلم الاجتماعي، كما أنها تنتمي إلى طبقات الملاك ولكنها لا تملك شيئاً ولا حتى عملها، وهي طبقة لا شخصية لها. ولذا، فإنها برغم عدائها للرأسمالية تناضل نضالاً ثورياً يأخذ شكل كُره عنصري لليهود. والطبقة الحاكمة والكنيسة ورأس المال على استعداد لاستخدام هذا الاتجاه بين الفلاحين وأعضاء الطبقة الوسطى ولصالحهم، ومن هنا فإن معاداة اليهود كانت موجهة على الدوام من قبَل معظم طبقات المجتمع ضد الفئات اليهودية كافة وبدرجة واحدة.

وقد كان الحل الاشتراكي المنطقي يتمثل في أن ينضم اليهود للبروليتاريا التي ستُنهي الصراع الطبقي فتنتهي بالتالي ظاهرة معاداة اليهود. وهنا يطرح سيركين عدة أسباب صهيونية ذات ديباجة اشتراكية ليبيِّن استحالة هذا الحل:

١- لاحَظ سيركين أن الأحزاب الاشتراكية لا تأخذ الظروف الخاصة بالمسألة اليهودية بعين الاعتبار ولذلك فهي عاجزة عن أن تطرح حلولاً لها. بل إن بعض الأحزاب الاشتراكية تتبنى مواقف معادية لليهود.

٢- يُورد سيركين أسبابه الأخرى لطرح الصهيونية (أو "الاشتراكية اليهودية" كما يسميها) كحل وحيد للمسألة اليهودية وكلها تدور حول فكرة الخصوصية أو التفرُّد اليهودي.

٣- ينتقد سيركين الاشتراكيين اليهود الذين تبنوا المُثُل الاندماجية أو الأممية كما ينتقد طرحهم لهويتهم القومية. ولكنه، حين يحاول تحديد هذه الهوية القومية اليهودية، يلاحظ أن اليهود سُلِبَت منهم الخصائص القومية الظاهرية، فهم مشتتون يتحدثون جميع اللغات واللهجات ويعيشون بدون ملكية وطنية، ثم يضيف أنهم مع هذا كانوا (في الماضي) أمة مميَّزة "كان مجرد وجودها سبباً كافياً لأن تكون".

٤- يذهب سيركين إلى أن الوجود اليهودي هو رمز الضمير الإنساني، وبذا تصبح القومية اليهودية قيمة في

ذاتها.

٥- يرى سيركين أن اليهودي هو البروليتاري الأزلي. ومن هنا، فإن الاشتراكية اليهودية ليست معادلة للاشتراكية المسيحية وإنما هي معادلة للاشتراكية البروليتارية، والخصوصية اليهودية هي في جوهرها اشتراكية. ولذا، فإن الصهيونية بطبيعتها هي حركة احتجاج يهودية ثورية كبرى يقوم بها كل اليهود، ولذا فهي ملك للجميع. ومن وجهة نظره، يؤكد سيركين أن الصهيونية لا تتعارض مع الصرا ع الطبقي وإنما تتجاوزه وحسب. فهي ستفيد الطبقة العاملة أساساً ولكنها تتبنّى الطبقات الأخرى كافة، وخصوصاً أن التاريخ اليهودي يجسد كثيراً من القيم الثورية.

ثم يتوجّه سيركين إلى طبيعة المجتمع الصهيوني الاستيطاني ليبين أن ثمة ظروفاً خاصة تجعل من الضروري أن يتخذ هذا المجتمع شكلاً اشتراكياً:

١- يُشير سيركين إلى وضع المهاجرين اليهود الطبقي فهم بقالون وباعة متجولون وحرفيون غير قادرين على التكيف مع الأوضا ع الاجتماعية والاقتصادية الجديدة في روسيا،

ولذا فإن هذه الجماهير تفكر في الهجرة بحثاً عن عمل وعن بناء اقتصادي اجتماعي جديد. ولجذب هذه الجماهير، لا يمكن أن يُطرَح عليها مجتمع مَبني على التفاوت لأن هذا سيعني عقداً اجتماعياً للعبودية الاجتماعية الجديدة. وبالتالي، لابد أن يكون المجتمع الجديد الذي يطمحون إليه مبنياً على المساواة، وخصوصاً أن هذه الجماهير كانت متجهة إلى الولايات المتحدة حيث توجد الفرص الاقتصادية النادرة ونوع من الحراك الاجتماعي الأكيد.

٢- ستسود دولة اليهود الاشتراكية ثقافة لا دينية تنبع من الإثنية اليهودية، ولذا فستكون بمنزلة الحصن الذي يحمي القومية اليهودية المهددة بالتآكل في المجتمع الاشتراكي والغربي باتجاهاته الاندماجية. إن الثقافة البروليتارية اليهودية ستُمثِّل تحدياً لليهودية الإصلاحية (ومع هذا، لم يذكر سيركين شيئاً عن بعث اللغة العبرية). وهذه الثقافة العمالية ستربط بين الطموح العالمي لدى العمال ورؤى الأنبياء اليهود في العهد القديم.

٣- يضيف سيركين إلى كل هذه الأسباب المؤدية إلى

"حتمية" الصهيونية العمالية سبباً أخيراً هو أن اليهود المتأثرين برؤية الأنبياء لم يُصلُّوا طيلة حياتهم من أجل العودة ليؤسِّسوا دولة مثل كل الدول، أي أن حتمية الاشتراكية الصهيونية تضرب بجذورها في أحلام اليهود عبر التاريخ وتصبح مثل العهد مع الرب علامة تميُّز وانفصال.

٤- يبين سيركين أن طبيعة المشروع الاستيطاني الصهيوني تتطلب أن يتم هذا المشروع بالطريقة الاشتراكية الجماعية لأن مشروعاً ضخماً لتغيير اقتصاد فلسطين وتركيبها السكاني يتطلب وَضْع خطط بعيدة المدى، والمشروع الحر بطبيعته لا يمكنه أن يقوم بذلك.

٥- ويتطلَّب هذا المشروع الضخم تمويلاً كبيراً لا يستطيع رأس المال اليهودي الصغير أن يقوم به. ولذا نادى سيركين بما سماه "التراكم الاشتراكي"، أي أن تقوم المنظمة الصهيونية بتمويل المشروع الاستيطاني عن طريق تجميع رأسمال قومي، وتظل ملكية الأراضي ملكية عامة وتُوظَّف الأموال لا للربح وإنما للاستثمار الاجتماعي وعلى أساس التعادل.

٦- ثم يقدم سيركين ديباجة اشتراكية أيضاً للطبيعة الإحلالية للمشروع الصهيوني باعتباره مشروعاً استيطانياً غربياً أبيض، فدولة يهودية رأسمالية تعني أن آليات السوق والعرض والطلب ستتحكم فيها، الأمر الذي سيؤدي إلى انخفاض الأجور " إلى درجة تجعل قبول أي يهودي أوربي لها مستحيلاً "، ولذلك سيقوم العمال من المواطنين الأصليين (أي العرب) بملء الفراغ، وسيقضي هذا على الجانب الإحلالي من المشروع الصهيوني.

٧- يربط سيركين بين حركة التحرر القومي والاشتراكية، وبالتالي بين الصهيونية والاشتراكية، ويرى أن الصهاينة سيشكلون حركة هجرة ذات طابع تقدمي وسيتصلون بالحركات القومية المماثلة بين الشعوب غير الإسلامية في الدولة العثمانية التي يجب تقسيمها على أسس قومية بحيث تكون فلسطين من نصيب اليهود. كما يرى أن "إرتس يسرائيل" قليلة السكان ويمكن تفريغها من سكانها حتى يتسنى توطين اليهود الذين تود الدول الغربية التخلص منهم. وإذا قاوم العرب عملية التفريغ فسيكون هذا أكبر علامات

تخلّفهم ورفضهم الوعي البروليتاري ورفضهم أيديولوجيا تقدمية اشتراكية، الأمر الذي يعني أحقية نقلهم.

وبرنامج سيركين هو نفسه الصيغة الصهيونية الأساسية مع إضافة الديباجة الاشتراكية، ذلك أن قبول ظاهرة معاداة اليهود وحل المشكلة اليهودية عن طريق الاستعمار، وتفريغ أوربا من يهودها، وتفريغ فلسطين من عربها، والاعتماد على الأثرياء اليهود، والتحالف مع القوى الإمبريالية وضرورة اللجوء للعنف، وغير ذلك من الثوابت، موجود بعد إضافة ديباجات اشتراكية وإثنية.

وقد قام سيركين بزيارة فلسطين في العشرينيات، وكانت المقاومة العربية للغزوة الصهيونية قد بدأت، وقبل موته في نيويورك سمع عن الإضرابات العنيفة التي وقعت عام ١٩٢٤. وقد أثَّر فكر سيركين في كثير من الصهاينة الاشتراكيين والأحزاب الصهيونية العمالية.

دوف بوروخوف

أهم منظري الحركة الصهيونية العمالية ومؤسس حركة عمال صهيون وزعيمها. وُلد في روسيا وتلقى تعليماً علمانياً،

وكانت نشأته في مدينة كان يُنفَى إليها الثوريون الروس، وكان أبوه عضواً في جمعية أحباء صهيون، الأمر الذي ترك أثراً عميقاً فيه، فقد ظل طوال حياته يحاول الجمع بين الصيغة الصهيونية الأساسية والديباجات الاشتراكية. وكان عضواً في الحزب الاشتراكي الديموقراطي، ولكنه استقال عام ١٩٠٦ ليكوِّن حزب عمال صهيون. وفي العام نفسه، نشر بوروخوف مقاله الشهير "برنامجنا". كما وضع برنامج الحزب بالاشتراك مع إسحق بن تسفي (وهذا الحزب هو أول حزب صهيوني يصل للصيغة الصهيونية التي تجعل الاشتراكية الأداة الوحيدة للاستيطان). وقد قُبض عليه عام ١٩٠٧، وحينما أُفرج عنه ذهب إلى لاهاي حيث أسَّس الاتحاد الدولي لأحزاب عمال صهيون، وشغل منصب الأمين العام للاتحاد حتى وفاته. وقد تَنقَّل في أنحاء أوربا داعياً لصهيونيته ذات الديباجة الاشتراكية، كما شرح معظم أفكاره في كتاب الحركة العمالية اليهودية في أرقام (١٩١٨)، أجرى أبحاثاً في اللغة اليديشية ودراسات اجتماعية عديدة. وقد انتقل إلى الولايات المتحدة بعد اندلاع الحرب العالمية حيث قام بنشاط

فعال لا فيّ صفوف حزبه وحسب بل في صفوف المؤتمر الأمريكي اليهودي. وقد ساهم في تأسيس الفيلق اليهودي مع كلٍّ من بن جوريون (العمالي) وجابوتنسكي (اليميني)، وظل طوال حياته يتعاون مع كل الصهاينة بغض النظر عن انتمائهم الطبقي أو العقائدي.

وعندما قامت ثورة كيرنسكي، عاد بوروخوف ليشارك في مؤتمر الأقليات متخذاً موقفين متعارضين يعبِّران عن التناقض المبدئي في تفكيره. ففي أغسطس ١٩١٧، طالب في مؤتمر لحزب عمال صهيون في روسيا بتوطين اليهود في فلسطين على أسس اشتراكية! ولكنه في سبتمبر من العام نفسه، قدَّم بحثاً أمام مؤتمر الشعوب في كييف عنوانه "روسيا: كومنولث الأمم".

ويتلخص إنجاز بوروخوف الفكري في أنه زاوج بين الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة وديباجات اشتراكية ثورية مُستمدة من الأفكار اليسارية السائدة في شرق أوروبا بين صفوف المثقفين والعمال. ويُقسِّم بوروخوف البشرية من وجهة النظر الاجتماعية والاقتصادية إلى أمم ثم طبقات،

ويرى أن الأمم ككيانات حضارية عضوية تتسم بقدر عال من الثبات وتوجد قبل الطبقات. ولذا، فإن الأمم باقية أما الطبقات فتتغير. وقد تعرَّضت الأمم إلى تأثيرات وتغيرات شتى، والأمة العضوية هي النقطة المرجعية النهائية والقيمة الحاكمة الكبرى وهي تظل دون تغيُّر يُذكَر في أساسياتها الحضارية.

ويفسر بوروخوف مسألة انقسام البشر إلى أمم وطبقات على أساس وجود علاقات إنتاج تُقسِّمهم إلى طبقات، وظروف إنتاج تُقسِّمهم إلى أمم. وظروف الإنتاج هي الاختلافات الجغرافية والأنثروبولوجية والتاريخية بين المجموعات البشرية المختلفة. كما أن عملية تطوُّر قوى الإنتاج نفسها يمكن أن تأخذ عدة أشكال تبعاً لاختلافات ظروف الإنتاج.

يَنتُج عن هذا أن ثمة أمماً تخضع للاضطهاد، فهي لا تسيطر على ظروف الإنتاج الخاصة بها. وسيُلاحَظ في هذه الحالة أن الرموز القومية والجوانب الثقافية الخاصة بهذه الأمة ستكتسب، مستقلة، أهمية بالغة، ويُوجِّه جميع أعضاء هذه الأمة جهودهم نحو تقرير المصير (أي السيطرة على

ظروف الإنتاج الخاصة بهم، وهذا طرح عمالي لإشكالية العجز بسبب انعدام السيادة) بدلاً من الصراع الطبقي (أي التناقضات داخل علاقات الإنتاج). وكل طبقة، داخل الأمة، لها اهتمامها الخاص بظروف الإنتاج، وخصوصاً عنصر الأرض (فهي القاعدة الإستراتيجية للصراع الطبقي). حينئذ تظهر حركة قومية ثورية تستوعب التركيب الطبقي للمجتمع ولكنها لا تَحجُب بالضرورة الوعي الطبقي، ويسميها بوروخوف "قومية الطبقة التقدمية الحقيقية" أو "قومية البروليتاريا الثورية المنظمة للشعوب المضطهدة"، وتطرح برنامج الحد الأدنى الذي يهدف إلى ما يلي:

١- تأكيد ظروف الإنتاج الطبيعية للأمة.

٢- تأمين قاعدة طبيعية لعمل البروليتاريا وللنضال الطبقي. وبالتالي يظهر تركيب طبقي صحيح وصراع طبقي سليم، وبعدها تقوم البروليتاريا بنضالها الثوري على أساس سليم داخل التشكيل القومي الجديد.

ثم ينصرف بوروخوف لتعريف المسألة اليهودية داخل هذا الإطار، فيقرر أن ما يميِّز اليهود كشعب (أو نصف شعب أو

شبه شعب) هو أنهم شعب "لا أرض له". وكما يرى بوروخوف، فإن هذا الوضع الشاذ نتج عنه ما سماه بنظرية "الهرم المقلوب". فكل شعب يتكون من فئات اجتماعية وطبقات تأخذ شكل الهرم الذي يتكون من قاعدة عريضة تساهم في العمليات الإنتاجية الأساسية. وكلما بَعُدت العمليات الاقتصادية عن هذه العمليات الأساسية، قلَّ عدد العاملين فيها حتى نصل إلى قمة الهرم. ويجد بوروخوف أن هذا الهرم الاجتماعي مُشوَّه تماماً عند اليهود إذ يوجد في صفوفهم عدد كبير من المحامين والأطباء والمفكرين وغيرهم ممن ينتمون إلى الطبقة الوسطى والعمليات الإنتاجية الهامشية، مع قلة قليلة (إن وُجدت) من الفلاحين بالإضافة إلى بروليتاريا صغيرة الحجم نسبياً. وكل هذا يرجع إلى عدم وجود ظروف أو أحوال إنتاج خاصة باليهود، ولذا فهم يظلون بمعزل عن بعض قطاعات الإنتاج التي تظل حكراً على الأمة التي تستضيفهم. وبظهور الرأسمالية وازدياد التطور الصناعي والتنافس الرأسمالي، بدأت الجماهير اليهودية تتحول من حرفيين إلى بروليتاريا. ولكن، بسبب وجودهم المنعزل، وبسبب ظاهرة

معاداة اليهود المنتشرة في صفوف البورجوازية والبروليتاريا المسيحية، كان العامل اليهودي لا يجد عملاً إلا عند الرأسمالي اليهودي الذي كان يستثمر رأسماله عادةً في الصناعات الاستهلاكية (لأسباب أوضحها بوروخوف).

ولكل ما تقدَّم، فإن تحوُّل الحرفيين اليدويين اليهود إلى بروليتاريا صناعية كان يتم ببطء شديد وأحياناً كان يتوقف كليةً. ونظراً لأن البروليتاريا اليهودية كانت تعمل في الصناعات الاستهلاكية فحسب، فلم يكن بإمكانها أن تشل الاقتصاد إن قامت بإضراب عن العمل. وبالتالي، لم يكن بإمكانها الدفاع عن نفسها أو المطالبة بحقوقها.

واستجابة لهذا الوضع الشاذ، طُرحت حلول عديدة من بينها الاندماج والديموقراطية السياسية أو الثورة البورجوازية. ولكن بوروخوف بيَّن أنها عملية مركبة تؤدي إلى إعتاق اليهود في المرحلة الأولى، ثم تزيد من حدة المنافسة القومية في مرحلة لاحقة الأمر الذي يزيد حدة معاداة اليهود. ولهذا، رفض بوروخوف الاندماج كحل للمسألة اليهودية.

ثم يقدم بوروخوف تحليله لاستجابة الطبقات اليهودية

المختلفة للمسألة اليهودية وللحل الصهيوني:

١- طبقة البورجوازية الكبيرة في الغرب: وهي طبقة لا تَحصرُ نفسها في السوق المحلية، وليست لها أية مشاعر قومية، فهي ذات نظرة عالمية ويمكنها حل مشكلتها عن طريق الاندماج. ومع هذا، يُشكِّل تَدفُّق يهود شرق أوربا الفقراء على غرب أوربا مصدراً كبيراً لقلقهم، فهو يهدد عملية الاندماج التي يطمح إليها أعضاء هذه الطبقة بل يهدد مواقعهم الطبقية ومكانتهم الاجتماعية. وهذه الطبقات الغنية القوية تمقت الجماهير اليهودية الضعيفة ولكن معاداة اليهود تُذكِّرها بقرابتها لها، وهو ما حَوَّل المسألة اليهودية بالنسبة لها إلى عبء مفروض عليها. ولذا، فهي تبذل جهداً غير عادي لتَجد مخرجاً أميناً يبعد هذه الجماهير عنها. وتبحث عن حل يهودي للمسألة اليهودية كوسيلة للتخلص من الجماهير اليهودية. ولكل هذا، تكمن داخل صدر اليهودي الغربي المندمج نفسان: نفس الأوربي المعتز بنفسه، ونفس اخوانه اليهود الشرقيين (دون أن يكون هناك خيار في ذلك).

٢- يهود أوربا الشرقية من البورجوازيين الكبار: وهؤلاء

مختلفون عن أقرانهم من أثرياء الغرب لأنهم يتأثرون بشكل أكثر مباشرة بحالة اليهود الراهنة.

٣- الطبقة الوسطى: وهي طبقة أكثر ارتباطاً بالدعوة القومية لأن مصالحها تعتمد على السوق التي تستطيع الجماهير اليهودية ارتيادها امتداداً للغة القومية والمؤسسات الثقافية، وعلى هذا، فإن هذه الطبقة تُعتبَر سنداً للصهيونية الإثنية وهي لذلك لا تبحث عن حل جذري بل تَقْبل الحلول الليبرالية، وتدافع عن الثقافة اليهودية بل عن الدولة اليهودية. ولكنها، ما دامت تحافظ على مواقعها الطبقية، تبقى خارج الدائرة اليهودية.

٤- البورجوازية الصغيرة المنهارة والبروليتاريا: وهذه طبقة معزولة وتبحث عن سوق يحررها من عزلتها، ومشكلتها هي "مشكلة شعب منفي يبحث عن مكان يجد فيه أمناً اقتصادياً"، أي أن هذه الطبقة وحدها هي الشعب العضوي المنبوذ الذي يشكل جوهر المسألة اليهودية.

من هنا كانت الهجرة اليهودية. وقد بدأت الجماهير اليهودية بالفعل تهاجر بأعداد كبيرة إلى الولايات المتحدة.

ولكن الهجرة، كما قال هرتزل من قبل، لا تحل المسألة اليهودية، فهي تترك اليهود عاجزين في بلاد غريبة وهم يضطرون إلى التجمع لتسهيل عملية التكيف مع البيئة الجديدة. ولكن التجمع يعزلهم مرة أخرى ويعرقل عملية التكيف ويفرض عليهم المحافظة على تقاليدهم الاقتصادية السابقة (ميراثهم الاقتصادي) ويتركزون فيها، ويتحولون بسبب ذلك إلى المراحل الأخيرة من الإنتاج وهو قطاع البضائع الاستهلاكية (أي أنهم يتحولون مرة أخرى إلى ما يشبه الجماعة الوظيفية). ومن ثم، فإنهم يظلون عاجزين عن الهيمنة على ظروف الإنتاج ويكونون أول ضحايا الأزمة الرأسمالية، ولذا فإن حاجة اليهود لتنمية قواهم الإنتاجية المستقلة تظل مسألة قائمة تتطلب حلاً.

ويقترح بوروخوف الحل، وهو في جوهره الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة حيث تتحول الهجرة إلى استعمار واستيلاء على الأرض. ولكن بوروخوف يضيف ديباجة اشتراكية إذ يصبح الاستيلاء على الأرض هو حصول الشعب اليهودي على قاعدة إستراتيجية وعلى ظروف إنتاج

مقصورةً عليه وحده وخصوصاً الأرض، الأمر الذي سيُمكِّنه من أن يتواجد في المستويات الدنيا من العملية الإنتاجية وأن يعيد الهرم المقلوب إلى وضعه الطبيعي على قاعدته. وهذا المطلب تشترك فيه كل الطبقات اليهودية من أعضاء الأمة اليهودية العضوية التي تعاني من عدم السيطرة على ظروف الإنتاج.

ثم يُورد بوروخوف المزيد من الأسباب الدالة على حتمية الحل الاشتراكي الصهيوني للمسألة اليهودية، أي ضرورة الاستيلاء على أرض واستعمارها حتى تشكل قاعدة للإنتاج. أما بالنسبة للاشتراكية، فيُورد بوروخوف أن المشروع الصهيوني يحتاج إلى قوى تقوم بتنظيم حركة الجماهير اليهودية المهاجرة وتوجيهها، وهو أمر مُلقى على عاتق البروليتاريا اليهودية. ولكنه مع ذلك كان يعترف بأن الهدف النهائي للصهيونية هدف بورجوازي، وهو إيجاد حكم سياسي إقليمي ذاتي، وإيجاد دولة يهودية يتم دمجها في المجتمع الدولي، كما أنه كان يدرك أن بناء الدولة لا يمكن أن يتم إلا بأموال بورجوازية وتنازلات سياسية ومساندة دولية

(إمبريالية) لا يمكن إلا للبورجوازية اليهودية وحدها أن تحصل عليها. ولكنه، مع هذا، كان يجد أن ذلك يشكل خطوة نحو الاشتراكية، على اعتبار أنه سيُطبِّع ظروف الإنتاج والصراع الطبقي بالنسبة للطبقة العاملة اليهودية، كما أن دور العمال يمكن أن يتركز في حماية الدولة الصهيونية وفي محاولة فرض سمات تقدمية عليها.

ولكن، إذا كان المطلوب هو الأرض، فلماذا فلسطين بالذات (وكان بوروخوف من معارضي مشروع شرق أفريقيا)؟ يجيب بوروخوف عن هذا السؤال بديباجات اشتراكية مصقولة. فالعمال اليهود حسب قوله ينظرون إلى استعمار فلسطين ونمو البروليتاريا كظاهرتين متلازمتين ومرتبطتين إحداهما بالأخرى، فالوعي الطبقي "لعمالنا" لا ينطلق من المصالح الأنانية الضيقة التي تتعارض مع مصالح الأمة في مجموعها، ولذا فهم طليعة الشعب اليهودي. ويضيف بوروخوف الأسباب التالية لضرورة الاستيلاء على أرض فلسطين دون أي أرض أخرى:

١- هذا البلد لا يمثل أي إغراء بالنسبة للمهاجرين من

شعوب أخرى، ولذا فهو لن يجذب سوى المهاجرين الكادحين من اليهود.

٢- يجب أن تكون الأرض التي سيتم الاستيلاء عليها مغرية بالنسبة للرأسمالي اليهودي الصغير والمتوسط بحيث يجد فيه وفي البلاد المجاورة سوقاً لمنتجاتها.

٣- يجب أن يكون هذا البلد متخلفاً شبه زراعي.

٤- يجب أن يكون البلد ذا مستوى ثقافي متدن وذا نمو سياسي منخفض.

ومن وجهة نظر بوروخوف، فإن فلسطين تتوافر فيها هذه المواصفات المادية، فهي بلد شبه زراعي، كما أن الشعب الذي يقطنها ليس ذا طابع اقتصادي أو حضاري مستقل فهم منشقون ومفتتون، كما أنهم لم يتبلوروا في كيان اجتماعي متماسك الأمر الذي يجعلهم غير قادرين على التنافس مع رأس المال اليهودي والطبقة العاملة اليهودية. كما يمكن استيعابهم وصهرهم في الشعب اليهودي، فبإمكانهم الوقوف أمام قوى التقدم الاشتراكية.

وفلسطين، علاوة على كل هذا، جزء من الإمبراطورية

العثمانية وهو ما يعني أن المستوطنين اليهود سيدخلون حرباً تقوم ضد السلطان التركي المتخلف. وقد كان بوروخوف يتصور أن رأس المال اليهودي سيهاجر إلى "الأرض" بشكل عفوي، وذلك ليبني هناك صناعة راسخة، ثم تهاجر في أعقابه آلاف مؤلفة من العمال اليهود.

وعملية الاستيطان هذه هي التي ستحل مرض "الطاقة الفائضة" عند اليهود، مأساة البروليتاريا اليهودية ومصدر عذابها. ويبدو أن موقف بوروخوف من الجماعات اليهودية في العالم يشبه موقف هرتزل، فهو يرى ضرورة إفراغ أوربا من فائضها، ولكن ذلك لن يؤدي بالضرورة إلى تصفية الدياسبورا تماماً. ولذا، نادى بوروخوف بأن يقوم الصهاينة بالصراع على جبهتين: في الداخل (أي في فلسطين) ضد الأتراك والسكان الأصليين، وفي الخارج لتحسين أحوال اليهود. وفي عام ١٩١٧، وفي خطبة له أثناء انعقاد مؤتمر الفرع الروسي لعمال صهيون في كييف، عمّق بوروخوف الديباجات الإثنية، فأكد أهمية الجوانب الحضارية اليهودية مثل "العودة إلى أرض الآباء" و"أساس النشاط الخلاق" للبعث

اليهودي.

ورغم أن كتابات بوروخوف كانت تتسم أحياناً بشيء من الصدق والذكاء، وخصوصاً إذا كانت في مجال الوصف المباشر، إلا أن معظم تحليلاته وتفسيراته غير دقيقة. وعلى سبيل المثال، لم يهاجر رأس المال اليهودي بشكل تلقائي إلى فلسطين وإنما كان يهاجر في فترات الركود الاقتصادي في أوربا وحسب (كما هو الحال دائماً مع رأس المال)، كما كان ينزح عن فلسطين حينما تتاح له فرصة اقتصادية أفضل خارجها. وهذه الهجرة لم تتم إلا بعد سقوط فلسطين في فلك الإمبريالية الإنجليزية، ولذا فقد كان رأس المال اليهودي جزءاً من رأس المال العالمي. ولم يهاجر العمال اليهود إلى فلسطين، كما تصور بوروخوف، فمعظم المهاجرين كانوا من البورجوازيين أو من البورجوازيين الصغار وهو ما اضطر كثيراً منهم إلى التحول إلى عمال. ومن الواضح أن التطور في روسيا وبولندا لم يكن نحو مزيد من انفصال الطبقة العاملة اليهودية، فاشتراك اليهود في الثورة البلشفية كان بنسبة عالية جداً تتخطى نسبتهم القومية. كما أن اليهود

نجحوا في الاندماج في المجتمع الأمريكي رغم تركُّزهم في مستويات الإنتاج العليا وعدم سيطرتهم على ظروف الإنتاج الخاصة بالمجتمع الأمريكي. ولعل الخلل الأساسي في أطروحات بوروخوف يرجع إلى إصراره على وحدة اليهود القومية بدلاً من رؤيتهم كجماعات مختلفة تخضع لحركيات تاريخية وظيفية ودينية مختلفة.

ولعل أكبر خطأ وقع فيه بوروخوف هو استهانته بالوجود العربي في فلسطين واكتفاؤه بالإشارات العابرة إليه، وهو في هذا كان ضحية التجريد الصهيوني الذي كان دائماً يشير إلى "الأرض" (أو الأرض المقدسة أو إرتس يسرائيل) التي تنتظر ساكنيها الغائبين آلاف السنين وكأن التاريخ توقَّف كليةً. وقد قُدِّر لهذه المشكلة التي كان يُتصوَّر أنها هينة وعرضية أن تترك أثرها العميق لا في الدولة الصهيونية فحسب بل في يهود العالم جميعاً. بل يمكننا أن نقول إن طريقة حسم هذه المشكلة العرضية هي التي ستحدد مصير المستوطنين اليهود في المنطقة.

إن منطق كلٍّ من جوردون وسيركين وبوروخوف وغيرهم

من الصهاينة الاشتراكيين هو المنطق الاستعماري الغربي، مختبئاً وراء ديباجات اشتراكية. وكتاباتهم تنتمي إلى مدرسة تسمى "الإمبرياليون الاشتراكيون" الذين كانوا ينادون بتأييد المشروع الإمبريالي الغربي لأنهم سيقومون بغزو الشرق المتخلف وسيدخلون عليه التكنولوجيا الغربية المتطورة مما يؤدي إلى ظهور الاشتراكية، أي أنه من هذا المنظور التاريخي نكتشف أن الإمبريالية تؤدي إلى الاشتراكية.

الفصل التاسع
ديفيد بن جوريون : الزعيم والرؤى

إذا كان من الممكن القول بأن الرؤية الصهيونية للواقع بكل تناقضاتها قد تجسدت في فرد واحد، فإن هذا الشخص هو ولا شك ديفيد بن جوريون (١٨٨٦- ١٩٧٣)، فهو لم ينظِّر للصهيونية وحسب وإنما ساهم في تحويل الرؤية إلى حقيقة واقعة بكل وحشيتها ودمويتها. ولد ديفيد جرين (الذي غيَّر اسمه فيما بعد إلى بن جوريون أي "ابن الشبل") في بولندا في بلدة بلونسك التي تقع في منطقة الاستيطان اليهودي في روسيا. وقد نشأ نشأة يهودية تقليدية، فكان يذهب إلى المدرسة اليهودية مرتدياً معطفاً أسود طويلاً، وقضى سنى حياته الأولى يدرس التوراة والتلمود، وكتب الصلوات المختلفة في المدارس الحاخامية، وفي طفولته هذه سمع عن ظهور "الماشيَّح المخلِّص" في شخصية صحفي نمساوي يسمَّى تيودور هرتزل سيعود بشعبه إلى أرض الميعاد. وكان أول كتاب عبري يقرأه هو كتاب حب صهيون لمابو.

بدأ بن جوريون نشاطه الصهيوني وهو بعد صبي في سن

الرابعة عشرة إذ كان أبوه عضواً في جماعة أحباء صهيون. وقد تأثر بن جوريون بأفكار بورخوف، فانضم إلى جماعة عمال صهيون عام ١٩٠٤ وكان من بين المعارضين لمشروع شرق أفريقيا في مؤتمر الحزب. وبعد عامين، انضم إلى إحدى جماعات "الدفاع" اليهودية التي نظمت في روسيا بعد حادثة كيشينيف. هاجر بن جوريون إلى فلسطين عام ١٩٠٦ حيث بدأت أفكاره الصهيونية في التبلور، فطالب بالتأكيد على مركزية المستوطنين الصهاينة وعلى تهميش الجماعات اليهودية في العالم، وكان من دعاة بعث اللغة العبرية وإهمال اليديشية. وفي عام ١٩١٢، التحق بن جوريون بجامعة استانبول لدراسة القانون على أمل أن يمكنه هذا من المساهمة في تحويل فلسطين إلى وطن يهودي داخل الإمبراطورية العثمانية. وبعد تخرجه، عاد إلى فلسطين حيث بدأ حياته عاملاً زراعياً وحارساً ليلياً. وحينما نفته السلطات التركية بسبب نشاطه الاستيطاني، ذهب إلى الولايات المتحدة حيث أسس جماعة الرائد وساهم في تكوين الفيلق اليهودي التابع للجيش البريطاني وعاد معه إلى فلسطين عام ١٩١٨

(ومعه مجموعة كبيرة من "الاشتراكيين" الصهاينة). اشترك بن جوريون مع كاتزنلسون في تأسيس الهستدروت، واقترح ألا يكون الهستدروت نقابة عمال وحسب بل مؤسسة استيطانية، ولذلك أُسِّس على شكل "شركة عمال" تساهم في الأعمال الزراعية وفي الاستثمارات الصناعية والبناء. وقد تولى بن جوريون رئاسة الهستدروت من عام ١٩٢١ حتى عام ١٩٣٢. وفي عام ١٩٣٠، ساهم في إنشاء حزب الماباي كما انتُخب عضواً في اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية عام ١٩٣٧. وفي عام ١٩٤٨، تبنت المنظمة الصهيونية بمبادرة من بن جوريون برنامج بلتمور الذي كان هدفه المعلن لأول مرة هو إنشاء دولة إسرائيل (وليس مجرد وطن قومي كما كان الادعاء الصهيوني من قبل). وفي عام ١٩٤٨، أشرف بن جوريون على تكوين رئاسة الحكومة المؤقتة قبل إعلان نهاية الانتداب، وقام بنفسه بإعلان بيان قيام إسرائيل، وكان ممن نصحوا بعدم الإشارة إلى حدود الدولة لأن الجيش الإسرائيلي وحده هو الذي سيعين الحدود، كما أنه أيَّد عدم إعلان الدستور حتى يمكن إرضاء العناصر الدينية التي

تحالف معها الماباي لتشكيل وزارة، وطالب بجعل القدس عاصمة الدولة الجديدة. وقد تولى بن جوريون منصب رئيس الوزارة عدة مرات كان آخرها عام ، ١٩٦٣ وكانت حادثة لافون مسئولة عن استقالته عام ١٩٥٥، كما أنها اضطرته للدخول في معارك سياسية مختلفة. وقد تملص بن جوريون من مسئولية محاولة التخريب الفاشلة في مصر وألصق التهمة ببنحاس لافون. وحينما أثيرت فضيحة لافون مرة أخرى في الستينيات، استقال بن جوريون من الماباي وكوّن حزب رافي هو وأعوانه. وحينما انضم رافي للحكومة، دخل بن جوريون، هو وجماعة من أتباعه، الانتخابات تحت اسم القائمة الرسمية، ففاز الحزب بأربعة مقاعد في الكنيست، شغل بن جوريون أحدها، ولكنه استقال بعد سنة واحدة واعتزل السياسة.

وقد قضى بن جوريون أيام حياته الأخيرة في كيبوتس سدي بوكر يكتب تاريخاً لليهود في العصر الحديث، وشرحاً للتوراة. ولبن جوريون عدة مؤلفات من أهمها: إسرائيل : سنوات التحدي و بعث إسرائيل ومصيرها و إسرائيل : تاريخ

شخصي و بن جوريون ينظر إلى العهد القديم.

والموضوعات الأساسية في كتابات بن جوريون هي الموضوعات الأساسية في معظم الكتابات الصهيونية من ذم للاندماج إلى تشجيع على العزلة القومية، وهي مؤشرات أكيدة على طبيعة الرؤية الصهيونية والإدراك الصهيوني للذات وللآخر، التي نبعت من مصادر غربية عديدة من بينها أدبيات معاداة السامية (معاداة اليهود) والرؤية النيتشوية الفرويدية.

وباء الاندماج وجحيم المنفي

يصف بن جوريون الصيغة الاندماجية القائلة: "كن يهودياً في منزلك ... مواطناً خارجه". ويصفها بأنها حل مضلل ويائس(١) يشبه "الوباء"(٢). وتتسم كل أفكار بن جوريون بالاختزالية المفرطة، فهو مثلاً يرى تاريخ اليهود على أنه عبارة عن صراع بين قوتين: الاستقلاليون الذين يقاومون خطر المؤثرات الأجنبية(٣) والاندماجيون الذين يرضخون لها. أما الاندماجيون فكان نصيبهم النسيان والذوبان في الأمم الأخرى، ولم يبق سوى كتابات وتنبؤات أولئك الذين حافظوا على إيمانهم بإسرائيل، ورفضوا الاستسلام للقدر الذي

أنزلهم بهم التاريخ(٤). ورفض "الجالوت" أو المنفى هو نقطة بدء عند بن جوريون، ففي رؤيته الميلودرامية الأسطورية للواقع والتاريخ، والتي لا يوجد فيها سوى خير خالص يتصارع مع شر خالص، نجد أن المنفى والتشتيت هما الجحيم (وأن أرض الميعاد هي بالطبع الفردوس المفقود أو الدائرة التي يجب أن يعود لها اليهودي). وقد حل مرض النفي الخبيث(٥) ووقعت الكارثة باليهود بعد ثورة بركوخبا(٦) التي باءت بالفشل، والتي تشتت بعدها اليهود في بقاع الأرض متعرضين للاحتقار والاضطهاد والطرد المستمر وللإغراءات العديدة ليتركوا دينهم(٧). واليهود يتعذبون في أوربا وفي غير أوربا، كما أن شقاءهم لم يبدأ بالنازيين ولن ينتهي بسقوطهم، بل سيستمر دون انقطاع(٨). ومرض الجالوت الخبيث لا يصيب اليهود في أجسادهم وحسب، بل يصيبهم في أرواحهم ونفوسهم أيضاً. ولذا فقد ظن يهود الولايات المتحدة الحاصلون على حقوقهم السياسية والمدنية كاملة أنهم مواطنون أسوياء، ولكنهم في الواقع مرضى منفيون داخل دولتهم(٩). بل إن بعض الإسرائيليين الذين يعيشون داخل

حدود الدولة اليهودية هم أيضاً منفيو الروح.

ورؤية بن جوريون الاختزالية تنكر بشكل كاسح أي إنجاز لأعضاء الجماعات اليهودية وتعطي صورة كاريكاتورية مشوهة لهم، وهي صورة عنصرية لا تقل في عنصريتها عن الصورة التي يقدمها بن جوريون للأغيار. والصورة التي يقدمها بن جوريون لكل من اليهود والأغيار لا علاقة لها بالواقع. فيهود العالم خارج فلسطين اندمجوا في مجتمعاتهم وأنتجوا وأبدعوا، شأنهم شأن أي أقليات إثنية أو دينية أخرى، والأغيار ليسوا مجرد ذئاب تتحين الفرصة لافتراس اليهود، فتواريخ أعضاء الجماعات اليهودية تبين أنه، في كثير من المراحل التاريخية والأقاليم الجغرافية، تفاعل أعضاء الأغلبية مع أعضاء الجماعات اليهودية والعكس، كما كان الحال في إسبانيا الإسلامية والولايات المتحدة المعاصرة.

ويصف بن جوريون بشيء من التفصيل مرض المنفى في إحدى محاوراته مع موشى بيرلمان الكاتب الإسرائيلي. وأولى سمات الحياة في الدياسبورا حسب تصور بن جوزيون هو أن اليهود يعيشون كأقلية تعتمد بشكل أو بآخر على إرادة

الأغلبية، عاجزين عن اتخاذ أي قرار. كما أنهم ثانياً يعيشون حياة اقتصادية هامشية، إذ لا تجد بينهم عمالاً ولا فلاحين، فمعظمهم يشتغلون في المدن بعيداً عن مراكز الحيوية في أي حضارة، وهم أمة من البقالين والموظفين الذين يعملون بالأعمال الفكرية(١٠). كما أن الدياسبورا (أي يهود العالم) الراغبون في الحفاظ على يهوديتهم يقعون في صراع بين ولائهم لحضارة الأغلبية السائدة وولائهم لحضارتهم اليهودية التي تمتد جذورها إلى الماضي، ولذا يعيش يهود المنفى في ازدواج دائم(١١). وبدلاً من أن ينظر بن جوريون إلى أرقام الإحصائيات الخاصة بالهجرة اليهودية، وهي أرقام كانت في متناول يده كرئيس للوزارة الإسرائيلية، يكتفي بالإشارة إلى التلمود الذي جاء فيه أن أي يهودي قادر على العودة لأرض الميعاد ويستمر في الحياة خارجها يعد كافراً ويكون كمن هجره الإله، كما أنه يشير لحكماء اليهود القدامى الذين قالوا إن المكوث خارج أرض إسرائيل طواعية تعد خطيئة دينية. ويخلص بن جوريون من كل هذا إلى أن حياة اليهود في الدياسبورا مستحيلة وأن "الحياة اليهودية الكاملة لن تتحقق

إلا في دولة يهودية مستقلة، حيث يمكن للشعب اليهودي أن يصيغ حياته حسب حاجاته وقيمه، مخلصاً لشخصيته وقيمها، ولتراثها الماضي ولرؤيتها للمستقبل"(١٢). ورؤيته هذه لا تنبع من التوراة أو التلمود كما يدعي، وإنما من المفهوم الغربي الخاص بالعشب العضوي المنبوذ، الذي عليه أن "يخرج" من أرض "المنفى" (أوربا) ليعود إلى وطنه القومي (فلسطين).

ولكن ماذا لو رفض أعضاء هذا الشعب العضوي المنبوذ قبول هذا التعريف؟ وماذا لو رفضوا الهجرة من أوطانهم الحقيقية التي يعيشون على أرضها إلى وطنهم الصهيوني الوهمي؟ رداً على هذا يقول بن جوريون لو كان الأمر بيده لأرسل بعض الشباب اليهودي متنكرين ليرسموا الصلبان المعقوفة على المعابد اليهودية، حتى يلقوا الرعب في نفوس اليهود الذين يتمتعون بالحياة في المنفى ليهاجروا إلى أرض الميعاد. وبالفعل حينما كان بن جوريون وزيراً للخارجية وعضواً في المنظمة الصهيونية العالمية قام عملاء المنظمة بإطلاق النار على يهود العراق حتى يهاجروا منها إلى

إسرائيل.

الخلاص بالعنف

يتفق هرتزل وبن جوريون على أن حالة اندماج اليهود مع غيرهم من الشعوب قد باءت بالفشل، كما يتفقان على أن التشتت حالة يجب أن يوضع لها نهاية، ولكن بينما عرف هرتزل أنه لا سبيل إلى نجاح المشروع الصهيوني دون الاعتماد على إحدى القوى العظمى، ظن بن جوريون - على مستوى النظرية - أن اليهود يمكنهم الانعتاق ذاتياً دون مساعدة خارجية، ولذا هاجم في برنامجه "الثوري" حالة الاتكال والسلبية التي تتسم بها حياة اليهود في الدياسبورا. فاليهودي في الدياسبورا، كما هو حال معظم اليهود، بطل، ولكن بطولته بطولة سلبية تأخذ شكل الاستسلام للقدر، كما أنه يتملكه إحساس بالعجز الإنساني، وإيمان بأن الخلاص لن يأتي إلا عن طريق الخالق(١٣). إن المنفى بالنسبة لبن جوريون يعني الاتكال، الاتكال السياسي والمادي والروحي والثقافي والفكري "وذلك لأننا غرباء وأقلية محرومة من الوطن ومقتلعة ومبعثرة عن الأرض وعن العمل والصناعة الأساسية،

واجبنا هو أن ننفصل كليةً عن هذا الاتكال وأن نصبح أسياد قدرنا، علينا أن نستقل"(١٤). ويلخص بن جوريون برنامجه الثوري في أنه لا يرفض الاستسلام للمنفى وحسب بل يحاول أيضاً إنهاءه على التو(١٥)، وهو يعتقد أن هذا هو حجر الزاوية: "القضية الحقيقية الآن كما كانت في الماضي تتركز فيما إذا كان علينا أن نعتمد على قوة الآخرين أم على قوتنا"(١٦). على اليهودي من الآن فصاعداً ألا ينتظر التدخل الإلهي لتحديد مصيره، بل عليه أن يلجأ للوسائل الطبيعية العادية(١٧) اللادينية (مثل الفانتوم والنابالم مثلاً).

والانعتاق الذاتي من المنفى الداخلي والخارجي يكون عن طريق العودة للطبيعة وللأرض: "إن أية أمة مستقلة لابد أن تضرب جذورها في أرض الآباء، تزرعها بأصابعها وتشارك في كل عمل يتطلبه وجودها"(١٨). وفي الطبيعة وحدها يمكن لليهودي أن يستعيد إنسانيته، كما يمكنه أن يسترجع قواه الخلاقة. ويقتبس بن جوريون باستحسان كلمات بنسكر (الزعيم الصهيوني الروسي) التي ألقاها في أول مؤتمرات جماعة أحباء صهيون: "إن حالة اليهود لن تتغير إلى الأحسن

إلا إذا نجحنا في العثور على مكان جديد نعيش فيه حياة جديدة، كل أمة تعيش على تربتها، ولكننا حتى الآن استنفدنا قوانا كحمالين للبضائع من مكان لآخر، ومن رجل لآخر، فلنعد الآن إلى أمتنا القديمة ولنستبدل مسطرة التاجر وميزانه بالمذراة والمحراث"(١٩). لن يقضي على شخصية اليهودي الهامشية التجارية، شخصية السمسار، سوى العمل في الزراعة، ولذا فإن بن جوريون يتخيل أن العودة لأرض الميعاد هي عودة للطبيعة تنم عن رغبة في الاتحاد بالوجود. يقول: "نهيق الحمير في الحظائر، نقيق الضفادع في البرك، رائحة الزهور المتبرعمة، همس البحر البعيد، ظلال البيارات الآخذة في الإظلام، سحر النجوم في السماء عميقة الزرقة، السماوات البعيدة والمتألقة في نعاس ... كل شيء أصابني بالنشوة. آه إنني في أرض إسرائيل. طوال الليل جلست وناجيت السماء الجديدة"(٢٠). وكل يهودي يبتعد عن تلك الأرض وعن هذه الطبيعة يحمل في قلبه ذكرى هذه الأرض. بل إن بن جوريون يعتقد أن هذه العودة للطبيعة وللبراءة هي المعنى الأساسي للصهيونية.

ولكن هل هذه الطبيعة حقاً بدائية؟ وهل هي حقاً أرض فراغ تنتظر الفيلسوف الصهيوني الرومانسي ليذهب إليها، لتشحذ قواه الخلاقة وليفرض إرادته عليها وليرغمها أن تمنحه ثمارها؟ وهل هي - في حقيقة الأمر - طبيعة تمكّنه من التأمل في هدوء وتساعده على التركيز، وتدفعه إلى أن يفكر بشكل بسيط وواضح؟ (٢١) كل هذه الأسئلة يجيب عليها بن جوريون بالإيجاب نظرياً، ولكنه عملياً يعرف، كما يعرف غيره من الصهاينة، أن أرض الميعاد تمور بالعرب وأن على كل حجر توجد بصمة عربية ولذا كان لابد من التأمل والزراعة المسلحة، كان لابد من الحالوتسيم (الرواد). ولذا نجد أن الفيلسوف الصهيوني الحالم، يتحول فجأة إلى فيلسوف نيتشوي دارويني شرس ويقول "الهجرة الشعبية]أي اليهودية [لا تعمل حساباً للتاريخ، بل تنساب إلى المكان الذي خلقت فيه ظروف مواتية لاستيعابهم"(٢٢). إن عدم أخذ التاريخ أو الظروف القائمة في الحسبان مسألة جوهرية بالنسبة لبن جوريون، فهو في المقال الذي اقتبسنا منه يتحدث بإسهاب عن الإرادة ودورها ويصف الحالوتسيم بأنهم

محاربون يكرسون كل قواهم لتحقيق أهدافهم، أبطال داروينيون نيتشويون حقيقيون.

وتكتسب كل العبارات الرومانسية النيتشوية معنىً واضحاً ومحدداً للغاية، حين يقارن بن جوريون الصهاينة الرواد بالمستعمرين الأول في أمريكا الذين ذهبوا إلى العالم الجديد مسلحين برؤية ظنوها إلهية، تماماً مثل الصهاينة. ثم يتحدث بن جوريون عن أحزانهم ومتاعبهم التي تحملوها، ثم عن المعارك الضارية التي خاضوها ضد الطبيعة الوحشية والهنود الأكثر وحشية، وعن التضحيات التي قدموها قبل أن يفتحوا القارة للهجرة والاستيطان(٢٣). والطريقة التي تحدث بها بن جوريون عن العالم الجديد تبين أنه يعتبر أن الهنود إن هم إلا جمادات أو جزء من الخلفية الطبيعية التي يجب على الرواد هزيمتها وتعديلها لتلائم احتياجات المهاجرين من أنصاف الأنبياء. ويعترف بن جوريون نفسه أن الاستيطان في أرض الميعاد الخاوية الطبيعية البدائية مرتبط تمام الارتباط بالسلاح. فيكتب واصفاً حياة الرواد في هذه الكلمات: "كنا ننتظر مجيء الأسلحة ليلاً ونهاراً، ولم يكن لنا حديث إلا

الأسلحة، وعندما جاءتنا الأسلحة لم تسعنا الدنيا لفرط فرحتنا، كنا نلعب بالأسلحة كالأطفال ولم نعد نتركها أبداً ... كنا نقرأ ونتكلم والبنادق في أيدينا أو على أكتافنا"(٢٤).

ويبين بن جوريون أن التعليم الزراعي في إسرائيل يتخذ حتى الآن طابعاً عسكرياً إذ أن له هدفين: واحد زراعي والآخر عسكري(٢٥)، كما أنه يعلن الدور الذي يلعبه الجيش الإسرائيلي في عملية الريادة والاستيطان: "لقد أثبت الجيش كفاءته في عملية الريادة، فقد درب آلاف الشبان والشابات على الحياة في المزارع كما شيد الكيبوتسات على الحدود مع قطاع غزة وفي النقب والخليل"(٢٦).

والعنف عند بن جوريون، كما هو الحال عند مناحم بيجين، وكما هو الحال في بعض التيارات الفلسفية الغربية، يكتسب بعداً خاصاً ويصبح غاية في حد ذاته، بل ووسيلة بعث حضاري. يقول بن جوريون: "بالدم والنار سقطت يهودا وبالدم والنار ستقوم ثانية"(٢٧). وعبارة بن جوريون مبنية على تصور جديد للشخصية اليهودية على أنها شخصية محاربة منذ قديم الأزل: "إن موسى أعظم أبنائنا هو أول قائد

عسكري في تاريخ أمتنا"، ومن هنا يكون الربط بين موسى النبي وموشي ديان مسألة منطقية بل وحتمية، كما أنه لا يكون من الهرطقة الدينية في شيء أن يؤكد بن جوريون أن خير مفسر ومعلق على التوراة هو الجيش، فهو الذي يساعد الشعب على الاستيطان على ضفاف نهر الأردن، مفسراً بذلك كلمات أنبياء العهد القديم ومحققاً لها(٢٨). وكتابات بن جوريون تزخر بإشارات إلى بركوخبا (البطل اليهودي) والمكابيين والغزو اليهودي لأرض كنعان وبطولات اليهود عبر العصور. بل إن خطابات بن جوريون الخاصة تعبر عن أحلامه العسكرية فهو يذكر في رسالة إلى ابنه أن الدولة اليهودية المزمع إنشاؤها في فلسطين سيكون فيها أحسن جيش(٢٩).

وبن جوريون هو المسئول عن إنشاء القوة العسكرية الصهيونية، فقد كان من المنادين بفكرة اقتحام الحراسة (أي عدم إسناد حراسة المنشآت الصهيونية لغير اليهود، أي العرب) وأسس لذلك جماعة الحارس ثم الهاجاناه وكان من بين المنادين بتسليح المواطنين اليهود. ولكنه كان يحاول دائماً

ألا يصطدم بالقوة الإمبريالية الحاكمة، أي إنجلترا. وحينما اضطر أن يفعل ذلك فإنه حاول أن يبقي الاصطدام عند حده الأدنى لمعرفته بأن العدو الأساسي إنما هو العرب. وحينما أنشئت الدولة، قام بحل كل المنظمات العسكرية الصهيونية مثل الأرجون والبالماخ وضمها إلى الهاجاناه وحولها جميعاً إلى "جيش الدفاع الإسرائيلي". وقد شغل بن جوريون منصب وزير الدفاع في جميع الوزارات التي رأسها، كما ساهم في صياغة سياسة إسرائيل الخارجية وتأكيد دورها "كحارس للمصالح الإمبريالية (نظير الحماية الإمبريالية التي تحصل عليها). وفي إطار هذا، عقد تحالفاً مع فرنسا عام ١٩٥٥ وجهز لحرب عام ١٩٥٦ ليضرب الحكومة المصرية التي كانت آنئذ تمد الثوار في الجزائر بالمساعدة، وقد استمر هذا الخط الأساسي للسياسة الخارجية الإسرائيلية حتى وقتنا الحاضر.

ونظراً لأهمية العنف بالنسبة لبن جوريون وإسرائيل، نجد أن الجيش الإسرائيلي لا يقوم بالدفاع عن إسرائيل وحسب، بل إنه المكان الذي تولد فيه الحضارة الإسرائيلية ذاتها: "إن الجيش مدرسة للشباب الناشئ"، دار حضانة لتفرد الأمة،

لحضارتها وشجاعتها، "وهنا، في الجيش، يجب أن يجند معلمونا بكل ما أوتينا من قوة"(٣٠). والجيش هو أكبر معهد تعليمي في أرض الميعاد، فالمهاجرون يلتحقون بهذا المعهد حال وصولهم إلى إسرائيل، حيث يكتسبون الخبرات ويتعلمون العبرية ويطرحون عنهم قصور المنفى، ليصبحوا مواطنين إسرائيليين عاديين(٣١).

وبعث العنف هو بعث للشخصية اليهودية الحقيقية التي طمست معالمها سنين طوال من المنفى، والعنف هو سبيل اليهودي الوحيد للتخلص من المنفى الروحي، وهو أيضاً ضرب من العودة الروحية. ولذلك، صرح بن جوريون مرة بأن أسوأ مقلب يمكن أن يفاجئنا به العرب هو أن يواقفوا على عقد صلح (٢/٢/٧٠م)، أي يجب أن يستمر العنف إلى أن تتم فبركة الشخصية اليهودية الجديدة. ويبدو أن بعث الشخصية العسكرية اليهودية كان كاملاً إذ أن بن جوريون يؤكد أن الجيش هو الجهاز الوحيد في إسرائيل الذي يتمتع باحترام الجميع وبتقديرهم العميق(٣٢). لقدْ نجح الصهاينة في تشييد الدولة التي يتأمل بنوها في الطبيعة ويلهون بالسلاح

كالأطفال.

بن جوريون والأساطير الصهيونية

مثل كل الصهاينة، يدعي بن جوريون أنه علماني الرؤية، إذ يقول: كنت مصمماً على أن تكون إسرائيل دولة علمانية تحكمها حكومة علمانية وليست دينية، وحاولت أن أبقي الدين بعيداً عن الحكومة والسياسة بقدر المستطاع(٣٣). ولكننا، كما هو الحال مع كل الصهاينة، نكتشف أن بنية رؤيته لادينية ولكنها غيبية موغلة في الغيبية، تستند إلى مجموعة من الأساطير اليهودية التي تمت علمنتها.

وأولى هذه الأساطير هي فكرة الشعب المختار ذي الرسالة الخاصة والوضع الفذ بين الأمم. يقول النبي الملحد: "لا يوجد في تاريخ أي أمة ما يوازي مصير اليهود الفريد في نوعه. وحياتنا كان لها وضع خاص، ليس فقط منذ أن بدأت حياة المنفى بل قبل ذلك عندما كنا نعيش في بلادنا"(٣٤). "إن الشعب اليهودي شعب صغير مؤمن بأن عليه أن يؤدي رسالته الرائدة للعالم أجمع، تلك الرسالة التي بشر بها جميع أنبياء إسرائيل ... هذا الشعب أعطى للعالم حقائق ووصايا

أزلية أخلاقية عظيمة"(٣٥).

وإذا كان اليهود أعظم الناس طرأ في الأخلاق، فهم أكثرهم بطولة أيضاً: "في عصرنا هذا، أظهر الملايين بطولات فائقة خلال الحرب العالمية الثانية، ولكن لا يوجد في تاريخ البشرية ما يمكن مقارنته بقوة مقاومة شعبنا وبصلابته التي لم تهتز طيلة القرون"(٣٦). ونتيجة للنفي، اهتزت الشخصية اليهودية بعض الشيء "فقد يكون هناك بعض الشوائب في دولة إسرائيل الفتية، إلا أن هذا لا يمكن أن يضعف من تألق إنجازاتنا". ويعتقد بن جوريون أن المجتمع الإسرائيلي (بكل دباباته وأسلحته وجيشه)، بدأ في التحول إلى "مجتمع نموذجي"(٣٧).

وقد تنبأ الأنبياء اليهود بأن الأمم الأخرى ستتعلم من الشعب المختار وستقتفي خطاه(٣٨)، وأن هذا سيكون في نهاية التاريخ حينما يعود الماشيح. ولكن بن جوريون كان قد بدأ يرى علامات العصر الماشيحانية، فقد بدأ "الشعب اليهودي" يصبح بالفعل "نوراً للأمم" وأكبر دليل على هذا علاقة إسرائيل بأفريقيا والمساهمات الإسرائيلية وتطوير

أفريقيا، وقد أضاف بن جوريون "أن الشعب الوحيد الذي يثق فيه الأفريقيون هم الإسرائيليون "فهم يشعرون بأن طريقتنا في التعامل أكثر أخوية وأكثر إنسانية"(٣٩). فهل يتصور بن جوريون أن الأفارقة لا يعرفون شيئاً عن البطش الصهيوني بالفلسطينيين أو عن تعاون الدولة الصهيونية مع دولة الأبارتهايد في جنوب أفريقيا؟!

والفكرة الماشيحانية، كما يقول بن جوريون، تمتد جذورها في وعي الشعب اليهودي حتى قبل رحيلهم عن مصر، وعبر عنها الأنبياء اليهود في أقوالهم. ولا يمكن فهم مسار التاريخ اليهودي الحديث، وهجرة الآلاف من اليهود إلى فلسطين، دون أخذ هذه الفكرة الماشيحانية في الحسبان. ونظرية بن جوريون في التاريخ اليهودي تتناسى كل تعقده وتنوعه لتقدمه على أنه تعبير أحادي عن هذه الفكرة الماشيحانية وعن الرغبة في العودة، ولعل هذا يفسر لماذا يسبب يهود الولايات المتحدة، الرافضون العودة، شيئاً من الأرق لنبي الميلودراما الصهيونية.

وأسطورة العودة - كما بينا - مرتبطة بالفكرة

الماشيحانية، فالعودة تصاحب ظهور المخلِّص في نهاية التاريخ. ويلاحظ النبي اللاديني أن الكتب الدينية اليهودية مليئة بإشارات إلى رغبة اليهود في العودة، وأنه لا يمكن ممارسة بعض الطقوس الدينية إلا في أرض إسرائيل(٤٠)، كما أن كتب العهد القديم تتحدث عن مقابلة إبراهيم لربه وأن الإله وعد إبراهيم في سفر التكوين بأرض فلسطين. ولكن بن جوريون، باعتباره ملحداً، يسارع بالقول: "لا يهم إن كانت هذه القصة تسجيلاً حقيقياً لحادثة تاريخية أم لا، المهم هو أن اليهود اعتقدوا صدقها منذ آلاف السنين"(٤١)، ولأن الحلم هو الحقيقة، والأسطورة هي التاريخ، تصبح الخرافات البرنامج السياسي. يقول بن جوريون في نبرة هادئة تنم عن الثقة والموضوعية والحياد: "إن فلسطين ليست مثل البلاد الأخرى، فحق ملكيتها ليس مقصوراً على ساكنيها وحدهم، النقطة الأساسية بالنسبة لها هي حق العودة لليهود المنفيين ... حقهم في إعادة بنائها وتطويرها"(٤٢)، ولأن اليهود يحلمون بتحقيق المطلق الصهيوني، فإنه يتعين على العرب المكوث في مخيمات اللاجئين.

إن عالم بن جوريون، عالم الأحلام والأساطير، هو أيضاً عالم مطلقات صهيونية ثابتة لا يطرأ عليها أي تغيير أو تحول. ولذلك، فإن بوسعه أن يصرح بأن "كتاب أشعياء في العهد القديم لا يحتوي على رؤى قديمة وحسب وإنما هو دليل للسياسة في العصر الحديث"(٤٣). ويرى بن جوريون أن تاريخ الأمة اليهودية يشهد على هذا الثبات، ويدل على استمرار إسرائيل عبر العصور. مثلاً، منذ ثلاثة آلاف عام، رفضت الأمة المختارة الصغيرة أن تنحني لحضارة اليونان لتحتفظ بطبيعتها دون أن تشوبها شائبة، وهي لا تزال تصر على رفضها حتى الآن (وهذه كذبة صهيونية أخرى، فقد استوعبت أعداد كبيرة من يهود فلسطين الثقافة الهيلينية، أما في مصر فقد اندمج يهود الإسكندرية في الحضارة الهيلينية حتى أنهم نسوا لغتهم العبرية، واضطر الحاخامات إلى ترجمة التوراه إلى اليونانية فيما يسمى الترجمة السبعينية).

ثم يستطرد بن جوريون بجرأة غير عادية فيقول: إن إسرائيل قد تكون أحدث دول العالم، ولكن الشعب اليهودي له وجود عمره أربعة آلاف عام متتالية(٤٤). وثبات اليهود هو

إحدى علامات اختيارهم، فكثير من الأمم اندثرت لغاتها وحضارتها وتقاليدها بل وأسماؤها، أما شعب إسرائيل، رغم نفيه عن أرض إسرائيل لمدة ألفي عام، فقد احتفظ بتقاليده ولغته وحضارته، كما لو كان حبل تاريخه لا ينقطع أو يلتوي على الإطلاق(٤٥). وفي حديث صحفي أجراه بن جوريون في ٨ يناير ١٩٦١، صرح هذا العالِم التوراتي أن إسرائيل هي الدولة "الحقيقية" الوحيدة في الشرق الأوسط (أي أنها الدولة الوحيدة المستمرة منذ بداية التاريخ)، فاليهود فقط هم الذين يتكلمون نفس اللغة ويمارسون نفس العقيدة كما كانوا أيام ظهور الكتاب المقدس. ثم يشير الزعيم بثقة شديدة إلى سوريا ولبنان والعراق ومصر قائلاً: هذه الدول فقدت لغتها القومية وثقافتها. وحتى يخضع هذه التعميمات لمحك الاختبار، فإنه يقول للصحفي "حينما تقابل عبد الناصر في المرة التالية اطلب منه أن يقول شيئاً باللغة المصرية". ولا أعتقد أن عبد الناصر كان سيمكنه الإجابة لأنه ليس عالم آثار مصرية قديمة. ولكن لو تحدث الصحفي مع عبد الناصر بلغته العربية، لتحدث معه عبد الناصر بطلاقة. ولكن الزعيم الصهيوني

يحدد الواقع بشكل أسطوري ويجمده عند بداية التاريخ ولا يرى أن المنطقة قد دخلت فيها حضارات عديدة وأنه لا يوجد فراعنة أو فينيقيون وإنما عرب مصريون وعرب سوريون وهكذا، وإلا اعتبرنا الصهاينة هكسوساً مثلاً.

ولكن يبدو أن فكرة استمرار إسرائيل وثباتها (وهي فكرة ذات أصول إنجيلية تم علمنتها وسيطرت على الوجدان الغربي) تسيطر على عقل بن جوريون بشكل يثير الضحك أحياناً، فهو في إمكانه أن يقول إن أعداء دولة إسرائيل الصهيونية هم مصر وبابل وأن يشير للعراقيين على أنهم آشوريون وبابليون ويشير إلى اللبنانيين على أنهم فينيقيون، بل وكان يعتقد (وهذا آخر عام ١٩٧٠ بعد الميلاد) أن إسرائيل كشعب كانت تواجه كل هذه الأمم، كلاً على حدة، في الأربعة آلاف عام الماضية، ولكنها الآن ولأول مرة تواجهها كلها مجتمعة! ويشير إلى ثورة بركوخبا على أنها آخر معارك الجيش الإسرائيلي قبل عام ١٩٤٨. ويعتقد بن جوريون أن العلاقة بين العرب وإسرائيل كانت طيبة للغاية في بادئ الأمر، حينما هاجر يوسف إلى مصر، ولكنها (مع الأسف) تدهورت

حينما هاجر الصهاينة إلى فلسطين، وهكذا .

ويلاحظ بن جوريون أنه بينما تمتلك إسرائيل الحديثة أسطولاً لا بأس به، لم يكن لدى حكومات إسرائيل القديمة قوة بحرية كبيرة، وهو يفسر هذه الظاهرة على أساس الاختلاف بين طريق العودة القديم وطريقها الحديث: "فبينما دخل اليهود أرض الميعاد المرة الأولى عن طريق مصر وبابل، قادمين من الشرق براً، دخل اليهود الأرض هذه المرة قادمين من الغرب بحراً"(٤٦). لكن بماذا نفسر أن إسرائيل الحديثة لها قوة جوية بينما لم تمتلك الدويلات العبرانية طائرة واحدة؟ إن بن جوريون يعيش بعيداً عن الواقع التاريخي، رافضاً بل ومعادياً له عن وعي وتصميم، وما دوي القنابل في الشرق الأوسط إلا نتيجة تصميم شعب من الرعاة والمكابيين البورجوازيين الصغار على الانعتاق الذاتي وعلى الهروب من طفيليته عن طريق الاعتماد على الدعم الإمبريالي لغزو أرض كنعان، أي فلسطين العربية.

اشتراكية بن جوريون

اشتراكية بن جوريون هي نتاج هذا الركام الهائل من

الأفكار المتناقضة المتعايشة جنباً إلى جنب، فإذا كان تعريفه لمعاداة اليهود والاندماج يدور في فلك المطلقات الجامدة، فإن الأمر يختلف كثيراً في تعريفه للثورة: فالثورة اليهودية ثورة ليس لها محتوى اجتماعي واضح أو مستتر لأنها ليست موجهة ضد نظام اجتماعي محدد. فالاشتراكي الصهيوني يبذل قصارى جهده في البقاء مستقلاً، يرفض الاندماج في عالم الأغيار ويبذل قصارى جهده في البقاء بعيداً عنهم "وأن يحتفظ بإخلاصه للمصير اليهودي الفريد".

وكل ثورة اشتراكية تستند إلى تحليل طبقي للواقع، ولكن بن جوريون لا يشغل باله بهذا فليس المهم الأصول الاجتماعية لليهودي بل المهم هو "الرسالة". ليس من أين بل إلى أين؟ وبذا تضمر أهمية التاريخ بظهور الرؤيا. وهو لهذا السبب يقرر ألا يستخدم اصطلاحاً مثل "بروليتاريا" ويفضل وصف الثورة الصهيونية الاشتراكية بمصطلح خاص، فيطالب بزيادة التعاون المشترك بين "العمال والأمة" ربما لأن العامل اليهودي لا ينشئ علاقة مباشرة مع الواقع "فقوته التاريخية ليست لها جذور في واقعه الحاضر وفي منجزاته – هذه قوة سطحية

ليس إلا– وإنما توجد في المخازن المخبأة للشعب المشتت"(٤٧). ويحاول بن جوريون أن يوجز أهداف الثورة الصهيونية الاشتراكية فيقول إنها "تجميع المنفيين" في دولة يهودية اشتراكية. ويمكننا أن نلاحظ مرة أخرى آلية الربط بين الهدف الصهيوني والرؤية الاشتراكية، فتجميع المنفيين يمكن أن يتم في أي دولة من أي نوع ولكن ليس هناك بالضرورة أي سبب لاختيار هذا النمط من التنظيم الاجتماعي دون سواه. وكما هو واضح، فإن الاشتراكية في ذهن معظم هؤلاء الصهاينة، وعلى رأسهم بن جوريون، هي نوع من الجماعية الاقتصادية التي يلجأ إليها أي مجتمع استيطاني كوسيلة "للدفاع" عن النفس ضد أصحاب الأرض.

بن جوريون بعد عام ١٩٦٧ : رؤي النبي

يبدو عدم وضوح الرؤية عند بن جوريون في تأرجحه وتذبذبه بين المطلق الصهيوني والواقع الذي يعيشه، ولذا نجده يصرح أحياناً بضرورة التنازل عن كل الأراضي المحتلة نظير السلام مع العرب، ولكنه في أحيان أخرى يصرح (بعد رؤية الانتصارات العسكرية الإسرائيلية) بأنه يجب الاحتفاظ بكل

الأراضي. وقد ورد في جريدة هآرتس (١٩٧٢/٨/٦) وصف طريف لتأرجح النبي وتذبذبه سنورده بأكمله: "يقول المقربون من بن جوريون إن التبدل في وجهة نظره حدث على مراحل: بعد الحرب، أيّد بن جوريون إعادة جميع المناطق، عدا القدس، إذا وافق العرب على سلام حقيقي مع إسرائيل. وبعد ذلك دُعي بن جوريون إلى زيارة هضبة الجولان ورافقه في هذه الزيارة قائد المنطقة الشمالية آنذاك رئيس الأركان الحالي ديفيد إليعازر. ويبدو أن بن جوريون تأثر عندما شاهد المستوطنات الأولى التي أنشئت هناك، فمنذ ذلك الوقت أعرب عن رأيه في أنه يتعين على إسرائيل أن تكون مستعدة لإعادة جميع المناطق مقابل السلام الحقيقي، عدا القدس وهضبة الجولان (أي أنه أضاف الجولان).

"وقبل عام ونصف عام، لاحظ المقربون من بن جوريون أنه كتب في مقدمة كتابه عن الخليل، أن الخليل شقيقة القدس، وأضاف أنه يعتبر القدس والخليل وحدة لا تتجزأ (أي أنه أضاف الخليل إلى الجولان والقدس).

"وقد طرأ التغيير على ما يبدو قبل بضعة أسابيع. ويقال

في هذا الصدد أن وزير الدفاع دعا السيد بن جوريون إلى جولة في سيناء وكان قد قام بجولة مماثلة منذ ثلاث سنوات ورافقه في جولته الأخيرة موشيه ديان. وأعلن أن بن جوريون تحمس لأعمال البناء في شبه الجزيرة وفي شرم الشيخ. وأعرب بعد ذلك عن رأيه في أنه، إذا لم يلح سلام حقيقي في الأفق، ينبغي مواصلة أعمال البناء في المناطق" (أي أنه أضاف سيناء إلى الخليل والجولان والقدس) [هآرتس ١٦/٨/١٩٧٢). أي أن الزعيم النبي ليس عنده رؤية أو خطة وليس عنده إدراك متكامل للواقع، وإنما عنده ردود أفعال للأشياء الخارجية، فينتشر مع انتشار الجيش والقوة العسكرية وينكمش مع انكماش الجيش والقوة العسكرية. وعلى هذا، فإنه يطرح، في لحظات الانتشار العسكري شعار "من النيل إلى الفرات"، ولكنه، في لحظات الانكماش العسكري، يبادر إلى القول بأن العهد القديم لم يتحدث عن النيل وإنما عن نهر مصر، وهو نهر يوجد في العريش ليس إلا. وهكذا فإن بن جوريون يستمد رؤيته للواقع والتاريخ والتوراة والتلمود من انتصارات الجيش الإسرائيلي ومن

الإنجازات العسكرية المباشرة ثم يبحث في الكتب اليهودية المقدسة عن تبرير لعمليات الاغتصاب والغزو.

وكثيراً ما نجد بعض العرب يتهامسون بأن الزعماء الصهاينة قد خططوا للمؤامرة الصهيونية منذ زمن بعيد وأن المخطط الصهيوني يتحقق حسبما هو موضوع ومقرر، ولكنني أجد أن النبوءات الصهيونية التي لم تتحقق أكثر من تلك التي تحققت، ولا أجد أطرف من هذه النبوءة الشاملة التي أطلقها النبي الكذاب في مذكراته: "إن عقب أخيل (أي نقطة الضعف) في الائتلاف العربي هو سيادة المسلمين في لبنان، وهي سيادة زائفة يمكن بسهولة قهرها. ويجب قيام دولة مسيحية هناك، بحيث تكون حدودها الجنوبية على نهر الليطاني، وسنكون على استعداد لتوقيع معاهدة مع هذه الدولة. وبعد أن نكسر الفيلق العربي ونضرب عمان بالقنابل، سوف يكون بإمكاننا إزالة دولة الأردن، وبعد ذلك سوف تسقط سوريا. وإذا اجترأت مصر على محاربتنا، فسوف نقصف بورسعيد والإسكندرية والقاهرة، وهكذا ننهي الحرب ونقضي قضاءً مبرماً على مصر وآشور وكلدانيا بالنيابة عن

أسلافنا".

ومن الواضح أن النبي الصهيوني قد اكتسحته رؤاه الشاملة الحلوة وأسكرته، فلبنان لم تقم فيها دولة مسيحية أو إسلامية وإنما دولة عربية، وهذه الدولة العربية هي أحد أهم مراكز المقاومة ضد الاستعمار الاستيطاني الصهيوني. وحيث أن الدولة الصهيونية العربية التي كان يُحلم بها الزعيم الصهيوني لم تقم في لبنان، فهو بالتالي لم يوقع معها معاهدة. أما ضرب عمان بالقنابل (بهدف تحطيم إرادة إمارة شرق الأردن) فإن مسار التاريخ كان من العناد بحيث أنه لم يتحقق، وسوريا لا تزال شامخة أبية ومصر العربية، الفتاة العجوز، قد تحملت ضربات القنابل إلى أن انتفضت في أكتوبر وردت الغاصب على عقبيه. ونسي النبي الصهيوني، فيما نسي، تلك الصخرة الصامدة: فلسطين ذاتها وأصحابها من الفلسطينيين. ولكن أنى يكون للنبي أن يتنبأ بهذا وهو المشغول بمصر الفرعونية وآشور وكلدانيا .. يحارب جيوشها ويهزمها في أحلامه الصهيونية الجيتوية الشرسة؟!

وقد تنبأ بن جوريون أن الدولة الصهيونية ستكون دولة

يهودية خالصة تعتمد على قوتها الذاتية. ولكن من الملاحظ أن معدلات العلمنة والاستهلاكية والأمركة والتوجه نحو اللذة قد تزايدت بشكل ملحوظ في هذه الدولة، وأن كل ما تبقى من اليهودية بالنسبة لغالبية السكان هو بعض العادات والتقاليد الشعبية، والدولة الصهيونية في هذا لا تختلف عن أي دولة غربية تزداد النماذج المادية والكمية هيمنة عليها. مما يؤدي إلى تقويض كل الهويات، دينية كانت أم إثنية. والدولة اليهودية التي كانت من المفروض أن تعتمد على قوتها الذاتية، أصبحت دويلة عميلة لا يمكن أن يُكتب لها البقاء أو الاستمرار إلا من خلال الدعم السياسي والاقتصادي والعسكري الغربي، والأمريكي بالدرجة الأولى.

الهوامش:

١- David Ren Gurion, Rebirthand Destiny of Israel (London, Thomas Yoseloff, 1959), p. 336.

سنشير لهذا الكتاب بعد ذلك بعبارة "بعث إسرائيل".

٢- المرجع نفسه، ص. ٣٤

٣- د. أنيس الصايغ (محرر)، الفكرة الصهيونية، (بيروت: مركز الأبحاث الفلسطينية، ١٩٧١) ص. ٨٠

٤- المرجع نفسه، ص. ١٠٧

٥- بعث إسرائيل، ص. ٣٤

٦- المرجع نفسه، ص. ٣

٧- الفكرة الصهيونية، ص. ٤٧٦

٨- بعث إسرائيل، ص. ٢٠٢

٩- المرجع نفسه، ص. ٣٣٥

١٠- الفكرة الصهيونية، ص. ١٥٤

١١- Moshe Pearlman, Ben Gurion Looks Back (London Weidenfeld and Nicwolsom, 1965), p. 245. سنشير لهذا الكتاب بعد ذلك بعبارة "بن جوريو يتذكر"

١٢- المرجع نفسه، نفس الصفحة.

١٣- المرجع نفسه، ص. ٢٣٥

١٤- الفكرة الصهيونية، ص. ٤٧٧

١٥- المرجع نفسه، ص. ٤٧٦

١٦- المرجع نفسه، ص. ٤٧٩

١٧- بن جوريو يتذكر، ص,٢٣٦
١٨- بعث إسرائيل، ص,٥٦
١٩- المرجع نفسه، ص,٤٦
٢٠- المرجع نفسه، صَ,٧
٢١- المرجع نفسه، ص,٣٩
٢٢- المرجع نفسه، ص,٥
٢٣- المرجع نفسه، ص٥-,٦
٢٤- بن جوريو يتذكر، ص,٢٣
٢٥- بعث إسرائيل، ص,٤٠
٢٦- المرجع نفسه، ص,١٥
٢٧- المرجع نفسه، ص,٣
٢٨- المرجع نفسه، ص,٤٢٣
٢٩- هيرالد تريبيون، ٣ أغسطس ,١٩٦٨
٣٠- بعث إسرائيل، ص,٤٣٧
٣١- بن جوريو يتذكر، ص,١٤٤
٣٢- المرجع نفسه، ص,١٥٠
٣٣- المرجع نفسه، ص,٢٢٠

٣٤- الفكرة الصهيونية، ص. ٤٧٤

٣٥- المرجع نفسه، نفس الصفحة.

٣٦- المرجع نفسه، ص. ٤٧٦

٣٧- بن جوريو يتذكر، ص. ٢٥١

٣٨- المرجع نفسه، ص٢٣٣-. ٢٣٦

٣٩- النيويورك تايمز، ٢٦ مايو . ١٩٦٥

٤٠- بعث إسرائيل، ص. ٢٤٥

٤١- بن جوريو يتذكر، ص. ٢٢٧

٤٢- بعث إسرائيل، ص. ٣٨٧

٤٣- النيويورك تايمز، ٢٣ ديسمبر . ١٩٦١

٤٤- بعث إسرائيل، ص. ٤٣٣

٤٥- الفكرة الصهيونية، . ٣٢٠

٤٦- بعث إسرائيل، ص. ٣١٠

٤٧- الفكرة الصهيونية، ص. ٤٨٣

الفصل العاشر
الجيبان الاستيطانيان فى إسرائيل وجنوب أفريقيا

يمكن فهم عمق العلاقة بين الحضارة الغربية والرؤية الصهيونية إن قمنا بعقد مقارنة بين الجيبين الاستيطانيين في فلسطين وجنوب أفريقيا. فهذه المقارنة ستبين أن إسرائيل ليست ظاهرة يهودية وإنما ظاهرة استعمارية استيطانية. ومن المعروف أن المستوطن الأوربي في جنوب أفريقيا والمستوطن الصهيوني في فلسطين قد خُلِّقا كجزء من محاولة الغرب الصناعي حل مشاكله، خاصةً مشكلة الفائض البشري، عن طريق تصديرها. فالمسألة اليهودية- في تصورهم - كان يمكن حلها عن طريق تصدير اليهود للشرق مثلما يصدِّرون سلعهم البائرة، وعن طريق سرقة الأراضي العربية من الفلسطينيين مثلما تسرق المواد الخام من بقية العرب. والوضع نفسه قد تم في جنوب أفريقيا، حيث تم تصدير قطاعات من الطبقة العاملة الهولندية ثم البريطانية ثم الغربية المتعطلة، وسُرقت الأراضي من الأفارقة لتوطينهم

فيها. وكان هذا هو الإطار الذي تم من خلاله حل مسألة أوربا اليهودية: تصديرها إلى العالم العربي، وتأسيس دولة وظيفية، استيطانية إحلالية، بحيث تقوم الجماعة الوظيفية اليهودية التي فَقَدت وظيفتها بوظيفة جديدة، القتال دفاعاً عن المصالح الغربية بدلاً من التجارة والربا.

ومع هذا يمكن أن نميز بين نوعين من أنواع الاستعمار الاستيطاني:

١- الاستعمار الاستيطاني الذي يهدف لاستغلال كل من الأرض ومَنْ عليها من البشر، وهذا هو الاستعمار الاستيطاني المبني على التفرقة اللونية (التي يُقال لها الأبارتهايد). وجنوب أفريقيا من أفضل الأمثلة على ذلك النوع من الاستعمار. كما يمكن القول بأن الولايات المتحدة ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر تنتمي هي الأخرى لهذا النمط.

٢- الاستعمار الاستيطاني الذي يهدف إلى استغلال الأرض بدون سكانها، وهذا هو النوع الإحلالي حيث يحل العنصر السكاني الوافد محل العنصر السكاني الأصلي الذي

يكون مصيره الطرد أو الإبادة. والولايات المتحدة في سنوات الاستيطان الأولى هي أكثر الأمثلة تبلوراً على هذا النوع من الاستعمار. والدولة الصهيونية مثل آخر (وإن كانت الإبادة هي الآلية الأساسية في حالة الولايات المتحدة، بينما نجد أن الطرد هو الآلية الأساسية في حالة الدولة الصهيونية). وكما تحولّت الولايات المتحدة من النظام الاستيطاني الإحلالي إلى النظام المبني على الأبارتهايد، تحولّت الدولة الصهيونية هي الأخرى بعد عام ١٩٦٧ من النظام الإحلالي إلى النظام المبني على الأبارتهايد.

أي أنه رغم الاختلاف بين إسرائيل وجنوب أفريقيا من منظور مرحلة التكوين الأولى، إلا أن التطورات التاريخية اللاحقة محت كل هذه الاختلافات وعمقت نُقَط التماثل بين الجيبين الاستيطانيين.

جيبان استيطانيان

يدرك كثير من المفكرين اليهود، الصهاينة وغير الصهاينة، ومن مفكري جنوب أفريقيا، من العنصريين وغير العنصريين، مدى عمق العلاقة ومدى التشابه بين إسرائيل وجنوب أفريقيا.

وقد صرح الجنرال الإسرائيلي المتقاعد ماتيتياهو بيليد أن إدراك التشابه بين الدولتين يشغل فيما يبدو التفكير الإسرائيلي إلى حدٍ كبير. وقد أكد فورستر، أحد رؤساء وزراء نظام الأبارتهايد في جنوب أفريقيا، أثناء زيارته لإسرائيل، على أن دولتي الأبارتهايد والصهيونية تتمتعان بأوجه شبه كثيرة تبدأ من الظروف المناخية فصاعداً.[1] فإسرائيل وجنوب أفريقيا ليستا نتاج غزو استعماري يتم في شهر أو شهرين، وإنما هما نتاج عملية طويلة مركبة الهدف منها إيجاد موطن للفائض الإنساني الغربي (الأبيض في حالة جنوب أفريقيا واليهودي الأبيض في حالة فلسطين). وقد بدأت العملية الاستعمارية الاستيطانية في جنوب أفريقيا منذ عدة قرون، وبدأت في إسرائيل مع نهاية القرن الماضي.

وتتميز المناطق التي تخصص للاستعمار الاستيطاني بالاعتدال النسبي لمناخها حتى يمكن للمستوطن الأوربي أن يحيا فيها حياة هنيئة وادعة! وهذا الأمر ينطبق بطبيعة الحال على كل من جنوب أفريقيا وإسرائيل. ولكن الأهم من هذا أن المستوطن عادةً ما يكون على علاقة جغرافية وثقافية وطيدة

بالوطن الأصلي، الذي يصبح الدولة الراعية، باعتبار أنه يزودهم بالدعم العسكري والمادي اللازم للبقاء والاستمرار. فمن الناحية الجغرافية، عادةً ما يستقر المستوطنون البيض في منطقة ساحلية حتى يستطيعوا الحفاظ على روابطهم مع الدولة الراعية وحماية خطوط إمدادهم (وهذه سمة أساسية في حركة الاستعمار الاستيطاني الغربي ابتداءً من حملات الفرنجة]التي يقال لها صليبية [التي شيدت كل ممالكها تقريباً على السواحل).

ويلاحظ أن المقاطعات الاستعمارية الاستيطانية كانت تشكل دائرة حول أفريقيا، حيث تحتل إسرائيل أقصى جزء في الشمال (عند بوابة أفريقية آسيوية)، بينما كانت جنوب أفريقيا تحتل أقصى جزء من الجنوب. وقد اكتملت الدائرة أو الكماشة المحيطة بأفريقيا بالمستوطنات الفرنسية في الجزائر، والإسبانية في الصحراء، والبرتغالية في أنجولا وموزمبيق، وهي المستوطنات التي تمت إزالتها، أي أنه لم يبق حتى نهاية القرن العشرين من الدائرة الاستيطانية الغربية سوى الرأس الإسرائيلي والذنب الجنوب أفريقي، ثم تم فك الجيب

الاســتـيطاني فـي جنوب أفـريقـيـا ولـم يبق ســوى الجـيب الاستيطاني الصهيوني.

والجيبان الاستيطانيان في جنوب أفريقيا وإسرائيل نشآ في ظروف ثقافية وسياسية مشابهة (حل مشكلة الفائض السلعي والسكاني) ويتجهان الاتجاه نفسه (مستوطنون بيض في أرض أفريقية أو آسيوية)، ويقومان بنفس الوظيفة (خدمة المصالح الغربية من الناحية الاقتصادية والاستراتيجية نظير الدعم والحماية الغربيين). ولذا يجب ألا نعجب البتة حين نكتشف أن وعد بلفور (١٩١٧) الذي يستند إليه الاستيطان الصهيوني وقانون الاتحاد في جنوب أفريقيا (١٩٠٩) الذي يستند إليه نظام الأبارتهايد قد صدرا في تواريخ متقاربة، وقد أصدرتهما القوة الإمبريالية نفسها، وأن الساسة الذين سعوا إلى إصدار "الوعد" هم أنفسهم كانوا وراء "قانون الاتحاد" الذي أسس بموجبه اتحاد جنوب أفريقيا، وهم لورد ملنر ولورد سلبورن ولورد بلفور وجوزيف تشامبرلين والجنرال سمطس. وفي كلتا الحالتين، كان من لا يملك يعطي من لا يستحق. ولكن، لا الملكية ولا الأحقية كانتا مطروحتين،

فالعملية الاستعمارية بشقيها التقليدي والاستيطاني كانت تستند إلى التفوق التكنولوجي وإلى العنف.

ويلاحظ أن العلاقة بين الدولة الإمبريالية الراعية والجيب الاستيطاني تستمر، حتى بعد "إعلان استقلال" الدولة الاستيطانية، فهذه الدولة ترى نفسها على أنها جزء لا يتجزأ من التشكيل الحضاري الغربي. والجيبان الاستيطانيان في إسرائيل وجنوب أفريقيا يتصوران أنهما امتداد للحضارة الغربية في وسط أفريقيا وآسيا وأن وجودهما في هذا الموقع الجغرافي هو وجود عرضي، فهما فيه ولكنهما ليسا منه، وذلك لأنها جزء من التاريخ الأوربي. فإذا كان الوضع الجغرافي (المناخ المعتدل والمنطقة الساحلية) هو محاولة للتقرب من أوربا، فالوضع الثقافي هو محاولة الإبقاء على نوع من أنواع الالتحام العضوي. وفي جنوب أفريقيا، يقسم السكان بشكل حاد إلى بيض تراثهم الثقافي غربي وسود تراثهم الثقافي أفريقي. أما في إسرائيل، فإن السكان مقسمون إلى يهود وعرب، واليهود حسب بعض التصورات ساميون، ومع هذا فهم ينظرون إلى أنفسهم باعتبار أنهم غربيون بالدرجة

الأولى. وقداختار موشي ديان جنوب أفريقيا للكشف عن مخاوف المؤسسة الحاكمة الصهيونية في إسرائيل من الشرق والشرقيين. ففي المؤتمر السنوي للاتحاد الصهيوني في جنوب أفريقيا عام ١٩٧٤، وصف ديان ارتفاع عدد المهاجرين من اليهود الشرقيين على عدد اليهود المهاجرين من الدول الغربية بأنه أكبر مشكلة تواجه إسرائيل، وناشد ديان أعضاء المؤتمر أن يمدوا يد المساعدة لحل المشكلة السكانية لإسرائيل بالهجرة إلى إسرائيل.

ويلاحظ أن أعضاء الجماعة اليهودية في جنوب أفريقيا يصنفون على أنهم بيض. وقد جاء في الموسوعة اليهودية (إنسيكلوبيديا جواديكا) التي نشرت في القدس عام ١٩٧٢ في مادة " جنوب أفريقيا" أن يهود جنوب أفريقيا يعتبرون أنفسهم جزءاً لا يتجزأ من السكان البيض. وتتضح هذه النظرة إلى اليهودي، باعتباره رجلاً أبيض، في مختلف القرارات والقوانين التي تصدرها حكومة جنوب أفريقيا. فمثلاً لا يمكن للمرء أن يحصل على تصريح بالهجرة إلى جنوب أفريقيا إلا إذا اجتاز امتحانات في إحدى اللغات المكتوبة

بالحروف اللاتينية، والغرض من هذا الامتحان هو الحد من هجرة الآسيويين والأفريقيين. ولكن فوجئ النظام العنصري بأن كثيراً من المهاجرين اليهود إلى جنوب أفريقيا لا يعرفون إلا اليديشية (وهي رطانة ألمانية دخلت عليها بضع كلمات عبرية وتُكتب بحروف عبرية - أي حروف سامية، الأمر الذي يجعلها تنتمي للتشكيل الحضاري الآسيوي)، ولذا استثنيت اليديشية وقبلت كلغة أوربية حسبما جاء في قانون الهجرة الأساسي.

ومع هذا لا تتسم العلاقة بين الوطن الأم والدولة الاستيطانية بالمودة دائماً، فرغم ادعاء الرابطة الحضارية إلا أن العلاقة مع الوطن الأم هي علاقة نفعية. فالدولة الاستيطانية دولة وظيفية يستند وجودها إلى وظيفتها، فإن فَقَدت وظيفتها أو أصبحت تكاليف دعمها أعلى من عائدها فَقَدت مبررات وجودها (كما حدث مع كل الجيوب الاستيطانية ومنها جنوب أفريقيا). وعادةً ما يحدث الصدام بين الدولة الإمبريالية الراعية الأم والجيب الاستيطاني بسبب اختلاف رقعة المصالح. فالدولة الراعية لها مصالح عالمية إمبريالية

عريضة، إما الجيب الاستيطاني فمصالحه محلية ضيقة. وأحياناً يأخذ التوتر شكل مواجهة مسلحة (حرب بريطانيا مع البوير ـ المواجهة العسكرية بين حكومة الانتداب البريطاني وبعض المنظمات العسكرية الصهيونية ـ المواجهة العسكرية بين الحكومة الفرنسية والمستوطنين الفرنسيين في الجزائر)، أو مواجهة سياسية (موقف الدول الغربية من نظام الأبارتهايد ـ التوتر بين الولايات المتحدة وإسرائيل إبان حرب ١٩٥٦).

الديباجات المشتركة

وإذا كان الدعم الغربي للجيبين الاستيطانيين قد ضمن لهما البقاء المادي، فقد بقيت مع هذا المشكلة المعنوية والأخلاقية. فالعنصر السكاني الغربي يشعر عن حق أنه عنصر غريب ودخيل تلفظه البيئة الجغرافية والتاريخية التي تذكِّره دائماً أنه اغتصب الأرض وقتل سكانها وأنه لا جذور له في المنطقة. وفي مواجهة هذا الوضع، ابتدع المستوطنون البيض والصهاينة في جنوب أفريقيا أساطير تبريرية عديدة:

أ) من أهم هذه الأساطير أن السكان الأصليين (الفلسطينيين

والأفارقة) هم مجرد جماعات صغيرة وقبائل متجولة علاقتها بالأرض واهية للغاية، إن لم تكن منعدمة، بل وينظرون لهذه الجماعات باعتبارها جماعات لا تاريخ لها، وبالتالي فإن نقلها من مكان لآخر (الترانسفير) بل وإبادتها أمر مشروع وليس فعلاً من أفعال العنف.

ب) يُلاحَظ أن الخطاب الاستعماري الاستيطاني في معظم الأحيان خطاب توراتي. فالمستوطنون سواء في جنوب أفريقيا أو إسرائيل (ومن قبل في أمريكا الشمالية) هم "عبرانيون" أو"شعب مختار" أو"جماعة يسرائيل". واعتذاريات المستوطنين عادةً اعتذاريات توراتية، فالأرض التي يستولون عليها هي صهيون، أرض وعد الإله بها أعضاء هذا الشعب دون غيرهم. والسكان الأصليون إن هم إلا "كنعانيين" أو "عماليق"، وجودهم عرضي في هذه الأرض (أو غير موجودين أساساً). ولذا فمصيرهم الإبادة أو الطرد أو أن يتحولوا إلى عمالة رخيصة.

وقد بيَّن إسحق أوفا (وهو سفير سابق لإسرائيل في جنوب أفريقيا) أن الأفريكانز (المستوطنون البيض من أصل

هولندي) بحكم تكوينهم الثقافي والديني يكثرون من قراءة العهد القديم ويعقدون المقارنات بين أنفسهم من جهة واليهود القدامى، الذين وعدهم الإله بأرض الميعاد ومساعدتهم في غزوهم لها من جهة أخرى.

ولعل تغلغل الأساطير والرموز التوراتية في الخطاب الاستعماري الاستيطاني (اليهودي وغير اليهودي) يظهر بشكل واضح في جنوب أفريقيا. فهم يحتفلون بيوم الميثاق في ١٦ ديسمبر من كل عام، إذ يعتبرونه اليوم الذي عقد الإله فيه ميثاقه مع بعض الأفريكانز (الفورتركر Voertrekker) الذين آثروا الاستقلال عن الإنجليز. وقد عُقد الميثاق قبل المواجهة التي تمت بين البيض والسود في معركة نهر الدم. وقد أصبحت المعركة رمزاً لكل الأفريكانز. ويُعقد الاجتماع في مكان يوجد فيه تلٌّ عال تُبنَى عليه سفينة ضخمة (ترمز لسفينة العهد) تواجه بريتوريا، فكأن هذا المكان هو قدس الأقداس لقومية الأفريكانز.

جـ) لكن أسطورة الوعد الإلهي تتسم بأنها أسطورة ذاتية تستقر في وعي الغازي والسارق، وقد لا تؤمن بها الضحية

ولا العـالم الخـارجي. ولذلك لابد من اللجـوء إلى أسـاطيـر "موضوعية" لها وجود مستقل عن الذات وعن إدراك المغتصب. ومن هنا ظهرت أساطير التفوق العنصري والتكنولوجي. أما أسطورة التفوق العنصري فهي ترى أن كل البشر مقسمون إلى أجناس (أو عناصر) معينة لها سمات ثابتة، وأن هذه السمات تجعل بعض الأجناس أكثر تفوقاً من البعض الآخر، فالجنس الأبيض الذي ينتمي له المستوطنون البيض في جنوب أفريقيا والصهاينة في فلسطين هو الجنس المتفوق أو الجنس الأسمى. ويترتب على هذا عدة نتائج من أهمها حق الغزو لكل أرجاء العالم والاستيلاء على كل خيراته، وقد أطلق على هذه الأسطورة "عبء الرجل الأبيض"، فـغـزو هـذا الرجل الأبيض لآسيا وأفريقيا وذبحه للبشر وإبادته للشعوب هو شيء من قبيل المسئولية الخلقية. وقد برر المستوطنون البيض والصهاينة وجودهم في آسيا وأفريقيا استناداً إلى تفوقهم العلمي والتكنولوجي. فهم ينظرون إلى أنفسهم باعتبار أنهم ممثلون للحضارة الغربية، يحملون مشعل الديمقراطية والعلم الغربيين، وأنهم سينشئون مجتمعات معاصرة تُدار بطريقة

حديثة وتستخدم آخر منتجات العلم. وإذا كان الأمر كذلك، فإن ذلك يعطي الاستعماريين الاستيطانيين الحق في غزو بلاد أفريقيا وآسيا (المتخلفة) لإدخال الحضارة عليها.

ولكن، بعد مئات السنين من الاستعمار الأبيض في جنوب أفريقيا وعشرات السنين من الاستعمار الصهيوني في فلسطين، لم يستفد الأفارقة أو الفلسطينيون كثيراً من العلم الغربي والتكنولوجيا. ولعل الأفارقة الذين كانوا يقضون سحابة ليلهم في البانتوستان (أي الأحياء المقتصرة على السود) الذي يشبه السجن في كثير من الوجوه، والفلسطينيين الذين يقضون سنوات حياتهم في المخيمات أو في المدن المحاصرة بالقوات الإسرائيلية، لعلهم لا يشاركون المستعمرين الرأي. فحينما تطلق عليهم المدافع الرشاشة الأوتوماتيكية، كما حدث في مذبحة شاربزفيل في جنوب أفريقيا وفي صبرا وشاتيلا وقانا وجنين، فإنهم يعرفون أن الرجل الأبيض لم يأت لهم بالعلم والنور والتكنولوجيا وإنما للاستيلاء على أراضيهم ولحرمانهم من فرصة التغيير والتطور.

نقاط التشابه الأخري

هذه هي نقاط التشابه الأساسية والتي تتفرع عنها نقاط كثيرة نذكر منها ما يلي:

١- يمكن القول بأن الكتل الاستيطانية عادةً كتل معادية للتاريخ، فقد جاء المستوطنون من أوربا التي لفظتهم إلى أرض عذراء (صهيون الجديدة) لا تاريخ لها ـ حسب تصوُّرهم ـ يمكنهم أن يبدأوا فيها من نقطة الصفر. (وإنكار تاريخ البلد الجديد مسألة أساسية من الناحية المعرفية والنفسية، لأن المستوطنين لو اعترفوا بوجود تاريخ لسكانه الأصليين لفقدوا شرعية وجودهم).

٢ـ يتفرع من هذا كله خطاب عنصري يؤكد التفاوت بين الكتلة الوافدة (التي يُنسَب لها التفوق العرْقي والحضاري)، والسكان الأصليين (الذين يُنسَب لهم التخلف العرْقي والحضاري).

٣ـ ويترجم هذا نفسه إلى نظرية في الحقوق. فحقوق الكتلة الاستيطانية حقوق مطلقة، أما السكان الأصليون فلا حقوق لهم، وإن كان ثمة حقوق فهي عرضية (كنعانية) تجبُّها

حقوق المستوطنين (العبرانيين!).

٤ـ عادةً ما يتبنَّى الجيب الاستيطاني رؤية قومية عضوية، إذ يرى المستوطنون أن ثمة وحدة عضوية تضمهم كلهم وتربطهم بأرضهم. هذا على مستوى الإدراك والرؤية، أما على مستوى البنية الفعلية فالأمر جدُّ مختلف. ففي جنوب أفريقيا ـ على سبيل المثال ـ نجد أن المستوطنين هناك قد انقسموا إلى شيع وجماعات، ولكن الانقسام بين العنصر الهولندي والعنصر البريطاني يظل أهم الانقسامات. وفي إسرائيل نجد أيضاً انقسامات حادة بين أعضاء الجماعات اليهودية المختلفة التي هاجرت إلى إسرائيل، ولكن مع هذا يظل الانقسام الأساسي هو الانقسام بين السفارد والإشكناز.

٥ـ انطلاقاً من كل هذا يتحدد مفهوم المواطنة في البلدين، فالمواطن ليس من يعيش في الجيب الاستيطاني وإنما هو صاحب الحقوق المطلقة، أي اليهودي في الدولة الصهيونية، والأبيض في جنوب أفريقيا. ويتضح هذا في قانون العودة الإسرائيلي الذي يمنح حق العودة لليهود وحسب، كما يتضح في قوانين الهجرة في جنوب أفريقيا التي تمنع هجرة غير

البيض. هذا يعني أن التمييز العنصري في الجيوب الاستيطانية لا يُشكِّل انحرافاً عن القانون أو خرقاً له (كما هو الحال الآن في الولايات المتحدة) وإنما هو من صميم القانون نفسه. فمقولة "يهودي" و"أبيض" هي مقولات قانونية تمنح صاحبها حقوقاً قانونية وسياسية ومزايا اقتصادية تنكرها على من هو غير يهودي في إسرائيل، ومن هو غير أبيض في جنوب أفريقيا.

٦- تترجم نظرية الحقوق (والتفاوت) نفسها إلى بنية سياسية واجتماعية وثقافية. فعلى المستوى السياسي ينشأ نظامان سياسيان واحد ديموقراطي حديث مقصور على المستوطنين، والآخر شمولي يحكم علاقة الجماعة الاستيطانية بأصحاب الأرض الأصليين. وبينما يُسمَح لأعضاء الكتلة الوافدة بالتنظيم السياسي والمهني، يُحرَّم هذا على السكان الأصليين. ويُلاحَظ أنه رغم أن النظام الاستيطاني نظام غربي حديث إلا أنه يُشكل عنصراً أساسياً في محاولات إعاقة تحديث السكان الأصليين.

٧- أما في المجال الاقتصادي فنجد أن المستوطنين

يحاولون الاستيلاء على الأرض إما عن طريق الاستيلاء المباشر أو عن طريق شرائها أو عن طريق إصدار قوانين تُسهِّل عملية الاستيلاء هذه ونقل الأرض من السكان الأصليين للمستوطنين.

٨- عملية التوسع هذه مستمرة لا تتوقف فالجيوب الاستيطانية تواجه مشكلة ديموجرافية دائمة إذ أن السكان الأصليين يأخذون في التكاثر. ولذا لابد أن يضمن الجيب الاستيطاني تدفُّق الهجرة من الغرب. وتُستصدَر التشريعات المختلفة لهذا الهدف وتُعدُّ الهجرة قضية أمنية عسكرية. الأمر الذي يتطلب المزيد من الأرض، فيزداد الصراع. وقد قام المستوطنون البيض في جنوب أفريقيا بالتوسع على حساب السكان الأصليين البوشمان والهوتنتوت والبانتو، تماماً مثلما قام المستوطنون الصهاينة بالتوسع على حساب الفلسطينيين.

ومع هذا ينبغي الإشارة إلى أن التوسعية الصهيونية أكثر شراهة بسبب مفهوم حدود الوطن القومي عند الصهاينة، وهي حدود بلا حدود، فهي تمتد من النهر إلى البحر (من نهر الأردن إلى البحر المتوسط) أو من النيل إلى الفرات. ومن

المعروف أن الدولة الصهيونية ليس لها دستور حتى لا تُعرف حدودها.

٩- يتقاضى العمال من السكان الأصليين أجوراً أقل كثيراً من التي يتقاضاها العمال الاستيطانيون. كما أن معظم العمال من السكان الأصليين عليهم الانتقال من أماكن انتقالهم إلى أماكن عملهم، وهو ما يعني جهداً إضافياً شاقاً يتجشمه العامل دون مقابل. كما يقوم النظام الاستيطاني بإعاقة تطوُّر اقتصاد محلي للسكان الأصليين أو أي شكلٍ من أشكال التراكم الرأسمالي.

١٠- ويُلاحَظ على المستوى الثقافي ظهور نظامين قوميين: القومية الأولى قومية أصحاب الأرض الأصليين سواء الفلسطينيين أو الأفارقة في كلتا الدولتين، أما القومية الثانية فهي قومية مصطنعة، وهي قومية المستوطنين الذين لا تتوافر لهم في مجموعهم من البداية غالبية خصائص القومية الواحدة. ومع هذا يُحتفَل "بالقومية" الاصطناعية الواحدة وتصبح رموزها هي الرموز السائدة في الدول الاستيطانية. وفي مجال التعليم، لا تُتاح لأبناء السكان الأصليين فرص

تعليمية متميِّزة، خشية أن يحققوا حراكاً اجتماعياً وثقافياً وتظهر بينهم نخبة متعلمة تقود كفاحهم الوطني.

١١ـ لابد أن تساند نظرية الحقوق هذه ومحاولة ترجمتها إلى بنية اجتماعية وسياسية قدراً كبيراً من العنف الفكري والإرهاب الفعلي والقمع المستمر بهدف إبادة السكان أو طردهم أو استرقاقهم. وآليات الإرهاب تبدأ من عمليات المذابح المباشرة (دير ياسين وشاربفيل) والطرد الجماعي والعقاب الجماعي ووضع السكان في معازل جماعية (البانتوستان في جنوب أفريقيا ـ المناطق العسكرية من الضفة في فلسطين المحتلة)، وفرض شبكة أمنية ضخمة وشبكة مواصلات ومجموعة من القوانين (مثل ضرورة استصدار تصريح من السلطات) بهدف تقييد حرية انتقال السكان الأصليين من مكان لآخر وتقليل الاحتكاك بين السكان الأصليين والمستوطنين.

١٢ـ رغم كل عمليات القمع هذه يظهر ما يمكن تسميته "شرعية الوجود"، أي إحساس المستوطنين الوافدين أن السكان الأصليين لا يزالون هناك يطالبون بحقوقهم ويحاربون

من أجلهـا، وتأكـيـد هذا الوجـود يعني في واقع الأمـر غياب/اختفاء المستوطنين. ولذا يصر المستوطنون على أن وجودهم مهدد دائماً. ولذا فهدف الأمن القومي في النظم الاستيطانية هو البقاء (وأهم مقومات البقاء القوة العسكرية وتدفُّق المادة البشرية بشكل دائم).

وقد أدرك المستوطنون في جنوب أفريقيا أن ثمة وحدة مصير بين الجيبين الاستيطانيين الأمر الذي أدّى إلى خلق درجة كبيرة من الاعتماد المتبادل بين الدولتين في عدة مجالات. ففي المجال التجاري كانت العلاقات بين الجيبين الاستيطانيين من القوة بحيث نجد أن جنوب أفريقيا ـ قبل زوال النظام العنصري ـ كانت شريكة إسرائيل الأولى في التجارة. ولم يكن التعاون العسكري بين الدولتين أقل قوة، فقد أرسلت الدولة الصهيونية متطوعين إسرائيليين ليحاربوا جنباً إلى جنب مع قوات جنوب أفريقيا في حربها ضد قوى التحرر الوطني. وشاركت جنوب أفريقيا بدورها في إمداد إسرائيل بالسلاح في حرب إسرائيل ضد العرب. وكان التعاون في مجال صناعة الأسلحة يُعدُّ من أهم أشكال التعاون، وكانت

الدولتان تحاولان تنسيق جهودهما لتحقيق الاستقلال في مجال إنتاج المعدات العسكرية وفي مجال السلاح النووي.

ومع هذا تبقى نقطة تشابه أساسية وهي أن كل الجيوب الاستيطانية التي لم تبد السكان الأصليين تم القضاء عليها. ويلاحظ أنه مع بداية التسعينيات تمت تصفية كل الجيوب الاستيطانية في أنحاء العالم، ولم يتبقَ غير إسرائيل وجنوب أفريقيا. وبزوال الجيب الاستيطاني في جنوب أفريقيا، لم يبق سوى إسرائيل، الحفرية الأخيرة في نظام قضي وانتهى، وهو جيب *استيطاني لم ينجح في إبادة السكان الأصليين الذين لا* يزالون يقاومون ويستشهدون. فهل هذا يشير إلى مصير الجيب الاستيطاني الإحلالي الأخير في العالم؟ ألا يمكن القول إن الديباجات اليهودية تهدف إلى طمأنة المستوطنين الصهاينة بحيث يتصوروا أنهم أصحاب حقوق يهودية أزلية وأنهم في واقع الأمر لا ينتمون إلى نمط الاستعمار الاستيطاني الإحلالي الآيل للزوال؟!

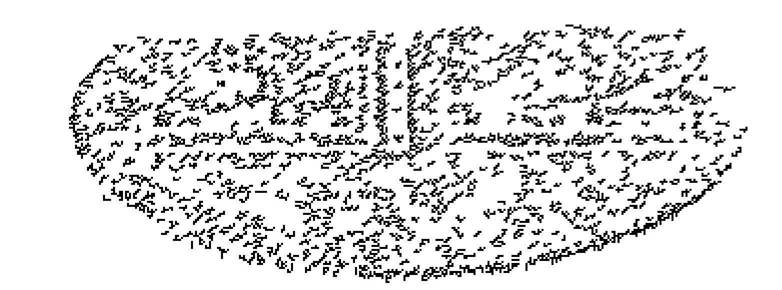
والله المستعان

فهـــرس

رقم الإيداع: ١٤٠٣٥ / ٢٠٠٣
I.S.B.N.
977 - 07 - 1001 - 6

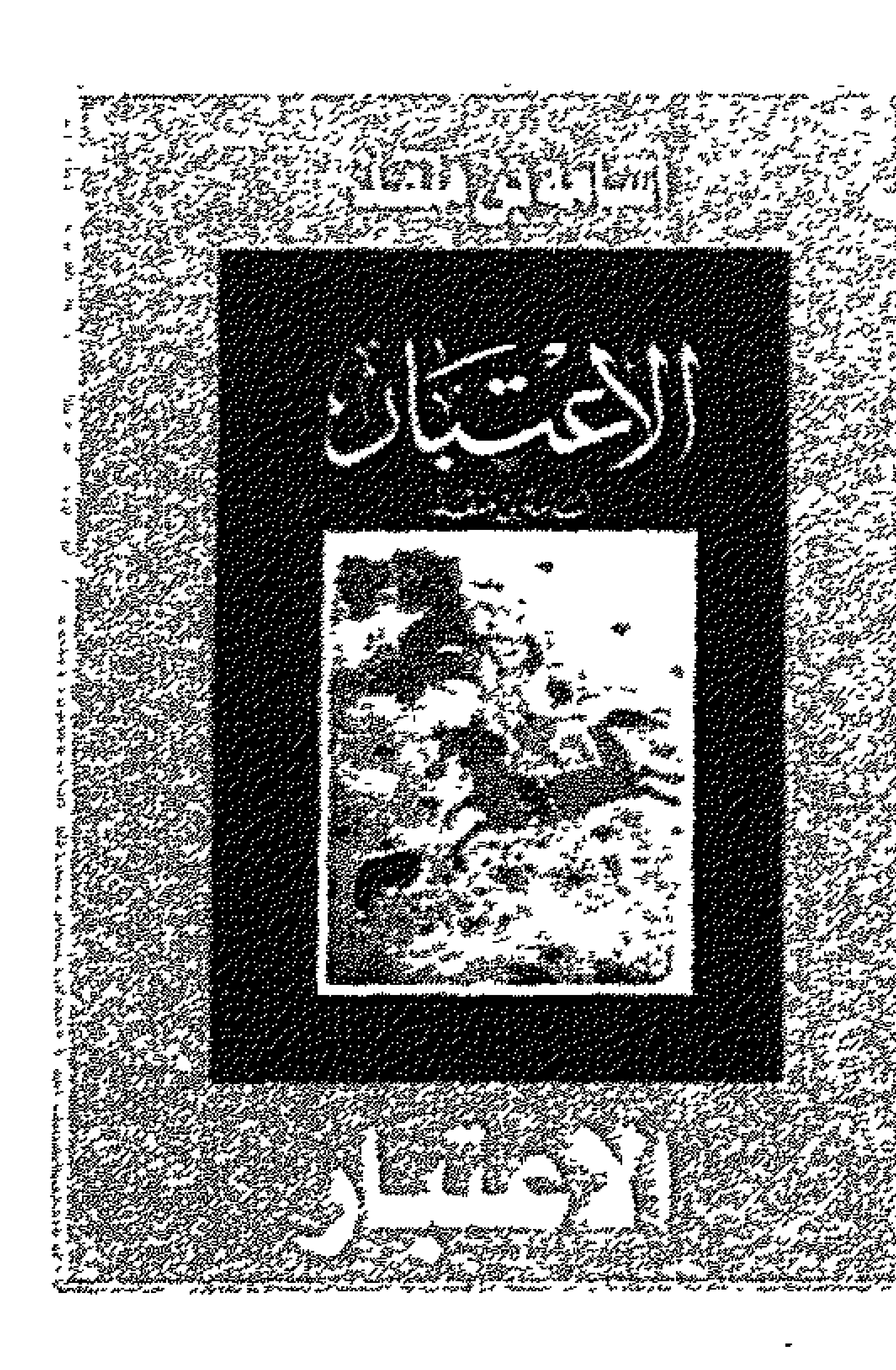
هذا الكتاب

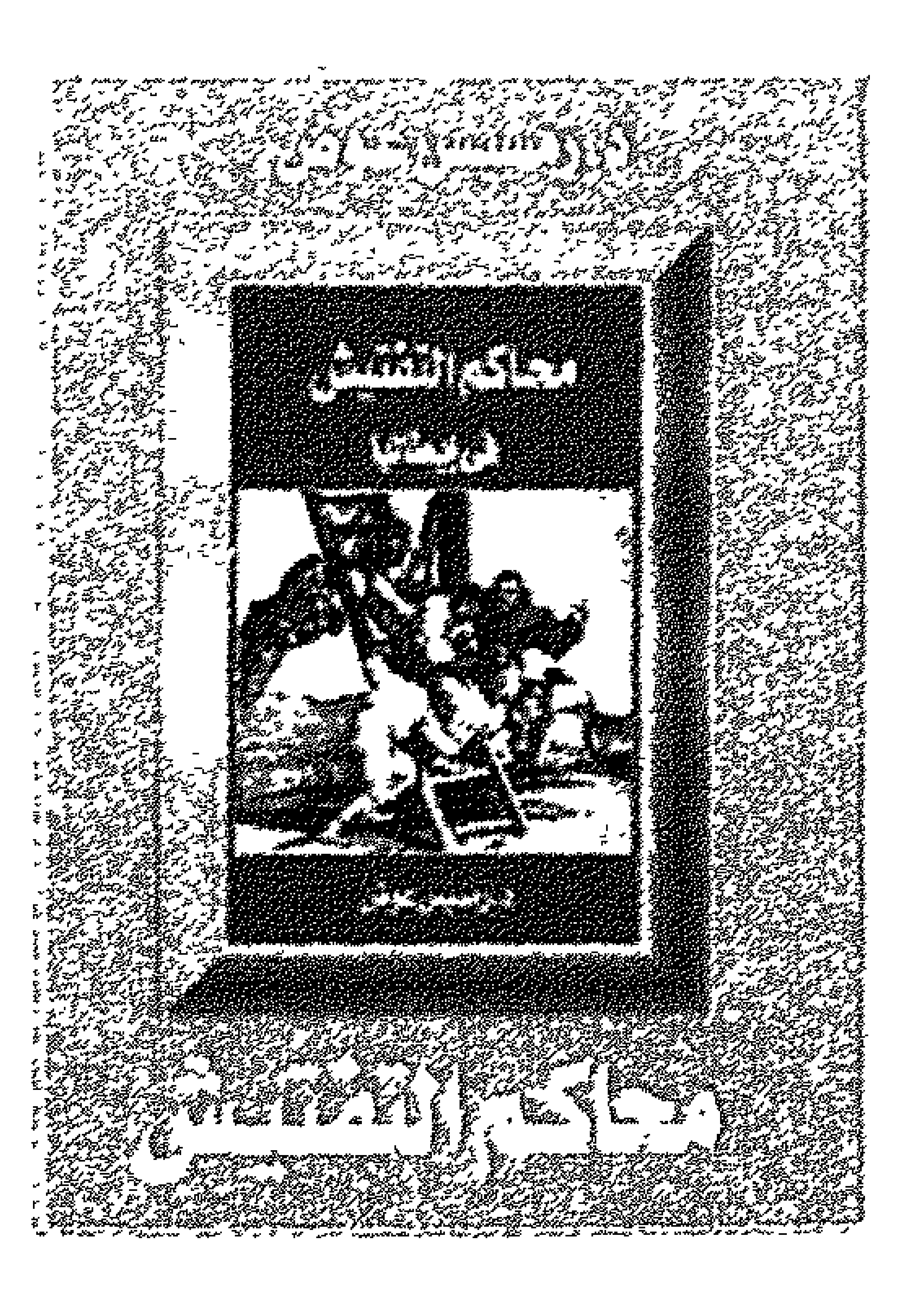
شاع في الخطاب التحليلي العربي أن الصهيونية تضرب بجذورها في التوراة والتلمود والتقاليد الدينية والإثنية اليهودية. واعتقد أن ثمة خللا تصنيفياً أساسياً هنا، فالصهيونية، كما نحاول آن نبين في هذه الدراسة وغيرها من الدراسات، ذات جذور غربية ثم أضيفت لها ديباجات يهودية، فالبعد اليهودي في معظم الأحيان بُعد زخرفي تبريري، أضيف من أجل مقدرته التعبوية. وقد أدى هذا الخلل التصنيفي إلى خطأ الافتراضات التي تبدأ بها كثير من البحوث في العالم العربي، وهذا يحدد بطبيعة الحال المجال الذي ترصده هذه البحوث وطريقة تصنيف المعلومات والنتائج التي يصل اليها الباحث، فهي في معظم الأحيان ليس لها قيمة تفسيرية أو تنبوئية عالية. ولعلاج هذا الخلل كتبنا هذه الدراسة، التي تتناول هذه الإشكالية، والتي تحاول أن توضح العناصر الغربية الأساسية (المادية والمعنوية) التي دخلت في تكوين الرؤية الصهيونية للواقع، وأن الصهيونية ليست مجرد انحراف عن الحضارة الغربية الحديثة كما يحلو للبعض القول، وإنما هي افراز عضوي لهذه الحضارة ولما نسميه بالحداثة الداروينية، أي الحداثة التي ترمي الى تحويل العالم الى مادة استعمالية توظف لصالح الأقوى (في مقابل الحداثة الإنسانية التي ترمي الى تحقيق التوازن بين الذات والطبيعة والتي تطالب بتكاتف كل أبناء الجنس البشري لإعمار الأرض لصالح البشرية جميعاً بما في ذلك الأجيال القادمة).




د. زكى مبارك


الحقيقة
والوهم
في الواقع المصرى
د. رشدى سعيد


الاعتبار
الاعتبار


محاكم التفتيش
محاكم التفتيش





نبع الأدب والثقافة المعاصرة



أدبيات

التنوير الميتافيزيقي ماله .. وما عليه

أدبيات

أدبيات

المرأة العاطفة

أدبيات

الإعلام .. والمخدرات

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع (مطابع سلاح التلميذ) 13،10،8
المكتبات 16،10 شارع كامل صدقي بالفجالة - 4 شارع الإسحاقي بمنشية البكري - روكسي
ت : 6835554 - 6851801 - 6823792 - 2586197 ج . م . ع /فاكس - 202 / 2596650 - 6827002